الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

دائرة المعارف التونسية

الكراس 4/1994

بيت الحكمة . قرطاج

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

دائرة المعارف التونسية

عدد خاص

في تاريخ إفريقية

أ. د. محمد الطالبي

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون « بيت الحكمة » . قرطاج . تونس

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

أ. د. محمد الطالبي

في تاريخ إفريقية

أعلام ـ مواقع ـ قضايا

مجموعة من مقالات صدرت في « دائرة المعارف الاسلامية »

ترجمة
الاستاذ محمد العربي عبدالرزاق (و) الاستاذ رياض المرزوقي

تحظى « دائرة المعارف التونسية»
بتوصية بالنشر من وزارة الثقافة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة » . قرطاج : تونس

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

أمانة التحرير
*** الأستاذ عبد الوهاب الدخلي**
التصميم والاشراف الفني
*** فتحي اللواتي**
التوثيق الفوتوغرافي الفني
*** رضا الزيلي**

ـ تصدر «**دائرة المعارف**» تباعا في كراسات مرتبة موادها ترتيبا أبجديا ومفصلة محتوياتها ضمن أقسام ثلاثة : أعلام ومواقع وقضايا.

المدير المسؤول
رئيس المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

دائرة المعارف التونسية

الكراس 1994/4

*** سحب من هذا الكراس في طبعته الأولى : 5000 نسخة**

صورة الغلاف

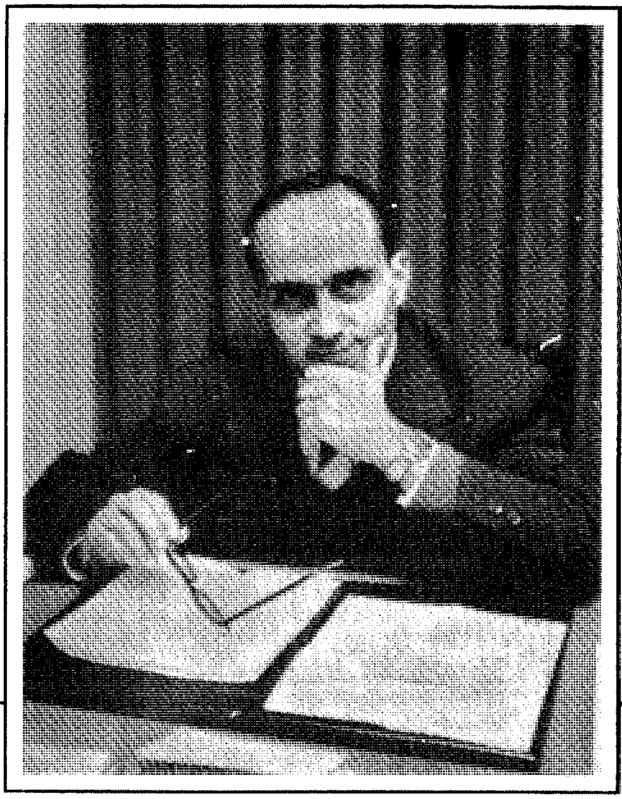
*** لوحة فنية تشكيلية من معرض «المفردة التشكيلية»**

مركز الفن الحي لمدينة تونس - 1988 -

التركيب الفني المطبعي : محمد المهذبي

المطبعة : شركة فنون الرسم والنشر والصحافة - القصبة - تونس

تكريم



أ. د. محمد الطالبي

تمهيد

من البديهي اليوم التأكيد على أهمية دوائر المعارف في حوصلة المعرفة البشرية التي تزداد تشعبا يوما فيوما.

لذا رأينا بعض الدول وبعض المؤسسات تعتني بإصدار دوائر معارف عامة أو مختصة تمسح بعض الميادين أو ما يهم بعض الثقافات أو بعض الجهات.

ويتنزّل مشروع «دائرة المعارف التونسية» الذي صدر منه حتى الآن ثلاث كراسات [1] ضمن المشاغل الرئيسية للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون. وقد حظي باهتمام القرّاء بجميع فئاتهم فخصّصت له المقالات النقدية المطوّلة في كثير من الأحيان [2]، وبقطع النظر عن قيمة الأحكام والآراء الواردة في هذه المقالات، فإنّها أثبتت أنّ هذا المشروع أساسي بالنّسبة إلى الثقافة التونسية «إذ لا يوجد شعب يعتزّ بهويّته وثقافته وتراثه الإنسانيّ إلاّ ولديه دائرة معارف بلغته تعكس رؤيته للماضي والمستقبل وتقدّم كل المعارف الإنسانيّة وتحافظ على تراثه الفكري».[3]

ومن أهمّ ما نشر وله صلة متينة بالثقافة العربية «دائرة المعارف الإسلامية» التي أشرف على إصدارها والتحرير فيها جمع من المستشرقين الكبار منذ سنة 1913 عندما بدأت الطبعة الأولى في الصدور وانتهت سنة 1934.

ووعيا بقيمة المشروع رأى بعض العلماء العرب والمسلمين منذ البداية أهميّة ترجمة هذه الدّائرة إلاّ أن هذه الترجمة لم يصدر منها إلا ستة عشر جزء وانقطعت لأسباب مختلفة، وكان من جملة الأسباب التي زهدت في الترجمة أن طبعة ثانية مزيدة ومنقحة من هذه الدائرة قد بدأت في الظهور منذ سنة 1954 ووجب الاتجاه إلى ترجمتها إن كان لا بد من ترجمة.

ولم يجد المشروع مؤسسة تقوى عليه لأنه يتطلّب عملا طويل النفس واتجهت الكثير من البلاد العربية والإسلامية ومؤسساتها إلى مشاريع مختلفة تمتّ بصلة متينة أو بعيدة إلى دوائر المعارف.

وراودت فكرة ترجمة «دائرة المعارف الإسلامية» المسؤولين عن «بيت الحكمة» ومجلسها العلمي ومجلس إدارتها منذ سنة 1985. وللتاريخ يجب أن نذكر أن الأستاذ محمد الطالبي كان من المتحمسين للفكرة وراسل في ذلك رئيس «بيت الحكمة» الأسبق الأستاذ أحمد عبد السلام.

ولئن لم تتوفر إلى الآن أسباب تجسيم الموضوع برمّته فإنّنا رأينا في نطاق التّهيئة لمادة «دائرة المعارف التونسية» التي نسعى إلى بلورة معالمها أن نبدأ بترجمة المقالات المتعلقة بالبلاد التونسية من «دائرة المعارف الإسلامية»، بل ورأينا في بداية هذه المرحلة أن نبدأ بما كتبه أستاذ من أساتذتنا الأجلّاء الذين لهم فضل السّبق والريادة في التأليف الموسوعي هو الدكتور محمد الطالبي [4]، وهو من أبرز العرب المسلمين المحرّرين فيها وجل كتاباته تتعلق بالبلاد التونسية، وهو من المتمرّسين بالكتابة في دوائر المعارف. ونرجو أن يكون أسوة حسنة لبقية محرري مقالات «دائرة المعارف التونسية» من حيث الضبط والتحقيق والشّمول والدّقة والقيمة العلمية.

وهذا النوع من التأليف يقتضي المنهج العلمي الصارم في تناول المسائل والقضايا والإيجاز والتركيز في عرضها، وهي مقتضيات رسّختها الموسوعات المتنوّعة التي نشرت في شتّى أقطار العالم. وقد رأينا ونحن مازلنا في طور الإعداد للمشروع النّهائي الكبير لدائرة المعارف التونسية «دامت» أن نجمع أربعة وعشرين نصّا من تأليف الأستاذ الطالبي نشر ثلاثة وعشرون منها في «دائرة المعارف الإسلامية» (الطبعة الجديدة) أمّا مقال «القدّيس لويس في تونس» فقد صدر ضمن تأليف جماعي في تاريخ الحروب الصليبيّة[5].

وأملنا أن يجد الباحثون التونسيون وخاصة منهم أصحاب الاختصاص في المسائل التي تتناولها هذه المقالات (أعلام - مواقع - قضايا)

المادّة العلمية النافعة، وأن يكون هذا الجزء مرحلة من مراحل تهيئة الإنجاز الكبير الذي نرومه وهو «دائرة معارف تونسية» شاملة تهتم بأبرز الأعلام والمواقع والقضايا محرّرة من قبل علماء تونسيين أو غير تونسيين مشهود لهم بالتضلع في المادة التي يكتبون فيها حتى تكون مادة هذه الدائرة غذاء علميا نافعا لكل المهتمين بالثقافة التونسية.

ولا يفوتنا أن نشكر كافة الذين ساعدونا على إنجاز هذا الكراس:

- الفقيد كلود كاهين (بصفته مؤلفا مشاركا لمقال «الحسبة»)
- المترجمان الأستاذان محمد العربي عبد الرزاق ورياض المرزوقي
- المستشار في ميدان الخرائط المثبتة في قسم المواقع: الأستاذ عبد المجيد الذويب، المتفقّد العام للتعليم الثانوي بالجمهورية التونسية (سابقا).

---

1) «عن بيت الحكمة»: الكراس 1/ 141,1990 ص+ الكراس 2/ 150,1991 + الكراس 3/ 164,1992 ص.

2) يراجع بصفة خاصة : مقال الأستاذ جمعة شيخة : «دائرة المعارف التونسية» مالها وما عليها، من أجل دائرة معارف متميزة شكلا ومحتوى، الصباح 7 ماي 1991: ومقال الأستاذ الحبيب عباس: المنهجية العلمية في الكراس الثاني لدائرة المعارف التونسية، الهداية س 17 ع 3، ص ص 78ـ 87.

3) مصطفى نبيل: نحو موسوعة عربية شاملة «الهلال» ـ يناير 1989، ص 19.

4) راجع خاصة «إلى الأستاذ محمد الطالبي في عيد ميلاده السبعين» منشورات كلية الآداب 1993.

5) صدر عن دار لوسوي باريس ـ 1988 ـ ص ص 72 ـ 79.

مختصرات

وردت في مقالات «دائرة المعارف الإسلامية» المترجمة المنشورة في هذا الكرّاس الخاصّ مجموعة من عناوين النّشريات والمجلاّت مختصرة رأينا خدمة للقارئ غير المتخصّص إيرادها مرتّبة ترتيبا أبجديّا وأثبتنا أمامها العناوين الكاملة مع ترجمتها العربية:

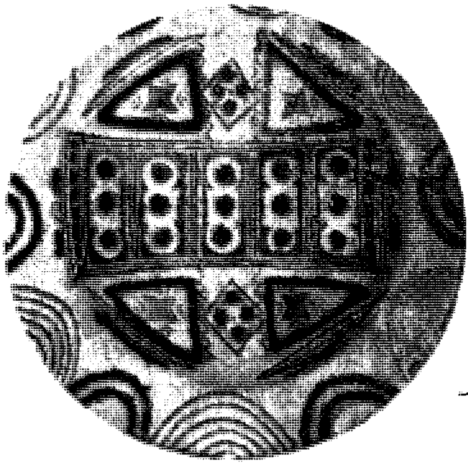
ـ حوليات الاقتصاد والاجتماع والحضارة.	— Annales E.S.C. (=Annales, Economic, Société, Civilisation).
ـ نشرة الآثار.	— Bull. Arch. : (= Bulletin Archéologique).
ـ نشرة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق.	— B.E.O. (= Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas).
ـ نشرة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية.	— B.S.O.A.S. (= Bulletin of the School of Oriental and African Studies).
ـ كرّاسات تونسية.	— C.T. (= Cahiers de Tunisie).
ـ الفهرس العربي.	— I.A. (= Index Arabicus).
ـ الثقافة الإسلامية.	— I.C. (= Islamic Culture).
ـ الفصليّة الإسلامية.	— I.Q. (= The Islamic Quarterly).
ـ المجلّة الآسياوية.	— J.A. (= Journal Asiatique).
ـ المجلّة الشرّقية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي.	— J.E.S.H.O. (= Journal of the Economic and Social History of the Orient).
ـ مجلّة الدراسات السامية.	— J.Sem.St. (= Journal of Semetic Studies).
ـ مجلّة المجمع العلمي العربي	— M.M.I.A. (= Maǧallat al-Maǧmaʿ al-Ilmī al Arabī).
ـ مجلّة جغرافيّة منطقة الالب.	— R.G.A. (= Revue de Géographie des Alpes).
ـ مجلّة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.	— R.I.E.E.I. (= Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid).
ـ مجلّة الدراسات الشرّقية.	— R.S.O. (= Rivista degli Studi Orientali).
ـ المجلّة التونسية.	— R.T. (= Revue Tunisienne).
ـ دراسات إسلاميّة.	— S.I. (= Studia Islamica).

أعـــلام

مواقـــع

قضايـــا

أعلام



ابراهيم الأول

[184ـ196 هـ/ 800 ـ 812 م]

إبراهيم الأول بن الأغلب بن سليم بن عقال، مؤسس دولة الأغالبة الإفريقية، كان تميميا من عشيرة بني سعد بن زيد مناة. وقد استقر هؤلاء، بفضل الفتوحات الإسلامية، بصفة مبكّرة جدا في خراسان، حيث واجهوا خاصة المهلّبيين الذين سيلقاهم إبراهيم فيما بعد في مصر ثم في إفريقية.هكذا ولد الأغلب، جدّ الأغالبة ومانح اسمه لهم، بمرو الرّوذ. وقد اعتنق دعوة العباسيّين، وكان من أكثر أبطالهم حماسة إلى جانب أبي مسلم الخراسانيّ. واتّصل لأول مرة بالمغرب في خدمة العباسيّين، ضمن جيش ابن الأشعث. وقد عيّنه ابن الأشعث حاكما على الزّاب (144هـ/ 761 م)، أي منطقة الأوراس جنوب جهة قسنطينة الحالية. وفي سنة 148 هـ / 765م، أطرد جيوش ابن الأشعث قائدهم، وعوّضه الأغلب بالقيروان وتحت أسوارها لقي حتفه خلال إحدى حركات التمرّد العديدة التّي لم تكف عن إغراق البلاد بالدّم .

وانسحبت أسرته إلى مصر. وكان عمر إبراهيم آنذاك عشر سنين. فبدأ بتلقّي دروس متينة في الفقه، وكان من ألمع تلامذة الليث بن سعد (المتوفى 179 هـ / 795م). ولكن كان عليه، وهو سليل أحد مشاهير قواد الجيش العباسي، أن يتبع تقاليد أسرته. فانضمّ إلى جند مصر، وشارك حتما في الانتفاضات التي كانت تهزّ البلاد.وشارك بصفة خاصة،سنة 174 هـ/ 790م، في نهب بيت المال، ليأخذ مقدار رزقه، « لم يزد على ذلك شيئا » حسب تأكيد البلاذري. وتسبّب هذا التصرّف في طرد الوالي المهلّبي له من مصر،

وإرساله إلى الزّاب في الاقامة الجبرية، وكان يحكم الزّاب آنذاك مهلّبي آخر، أي عدو تقليدي لأسرته .

إلاّ أن ابراهيم، بفضل الاضطرابات التي لم تنفك تهزّ إفريقية،دعم مركزه بالزّاب حيث مازال ذكر أبيه حيّا. وتعلّم خاصة كيف لا يخرج عن الشرعيّة. وعرف، وقد أنضجته التجارب، تجنّب الانتفاضات، وتوصّل، بفضل شغور الحكم بالزّاب، نتيجة لهذه الانتفاضات، إلى الاضطلاع بسلطة حقيقيّة فعلية. وفي سنة 179 هـ / 795 م، حوّل هرثمة الذي قدم من بغداد لإعادة النظام والشرعيّة في البلاد، هذه السلطة الفعليّة إلى تنصيب قانوني. ومن المرجح أن إبراهيم، بعد سنتين، رقّاه الرّشيد، وقد رضي فيما يبدو عن خدماته، من خطة مساعد الوالي إلى والي الزّاب العائد إليه مباشرة بالنظر.
وسرعان ما وضعت انتفاضة جديدة مفاتيح القيروان بين يديه. وفي رمضان 183هـ/ اكتوبر 799م، أطرد تمّام، والي تونس التميمي - وهو من عشيرة بني مالك بن زيد مناة، المعادية لبني سعد بن زيد مناة- ابن العكّي من القيروان. فسارع إبراهيم، من الزّاب، بإنجاد الشرعيّة، وأعاد للوالي الشرعيّ حقوقه. وفي الواقع، لم يلق هذا الرجوع الى الوضع الثابت › statu quo ante ‹ موافقة الخلافة ولا موافقة الأفارقة. فدعي إبراهيم إذن، لأسباب مختلفة من السياسة البغداديّة والإفريقية، إلى تعويض ابن العكّي، وبواسطة اتفاق مالي ملائم، حمل الرشيد على منحه رتبة الإمارة الوراثيّة. وهكذا، ارتقت افريقية، دون صدمة، إلى وضع إمارة مستقلّة .

إلاّ أن هذه الولادة بغير كبير ألم لم تجنّبه الصعوبات. فقد كان على إبراهيم الأول أن يقاوم عداء أوساط الفقهاء والجند. واضطر إلى أن يتحمّل إهانات كثيرة وأن يبذل كنوزا من الاعتدال، والحيلة والنشاط لتدعيم نظامه. وبمجرد تولّيه الحكم، أسس، على ميلين جنوبي القيروان، قصرا محصّنا، العبّاسية [انظر الفصل المخصص لها في « دامت »]، وسينقذ هذا القصر المزوّد بفرقة حراسة عتيدة زنجيّة، أكثر من مرة الدولة. وقد اندلع التمرّد الأول بتونس (186 هـ / 802م)، ثم كان دور طرابلس في التحرّك (189 هـ / 805 م). لكن أخطر انشقاق كان انشقاق الجند الذي لم يهزم إلاّ بفضل المعونة المرسلة من الخليفة في الوقت المناسب. ولمّا توفي إبراهيم الأوّل (21شوال 196هـ / 5 جويلية 812م)،

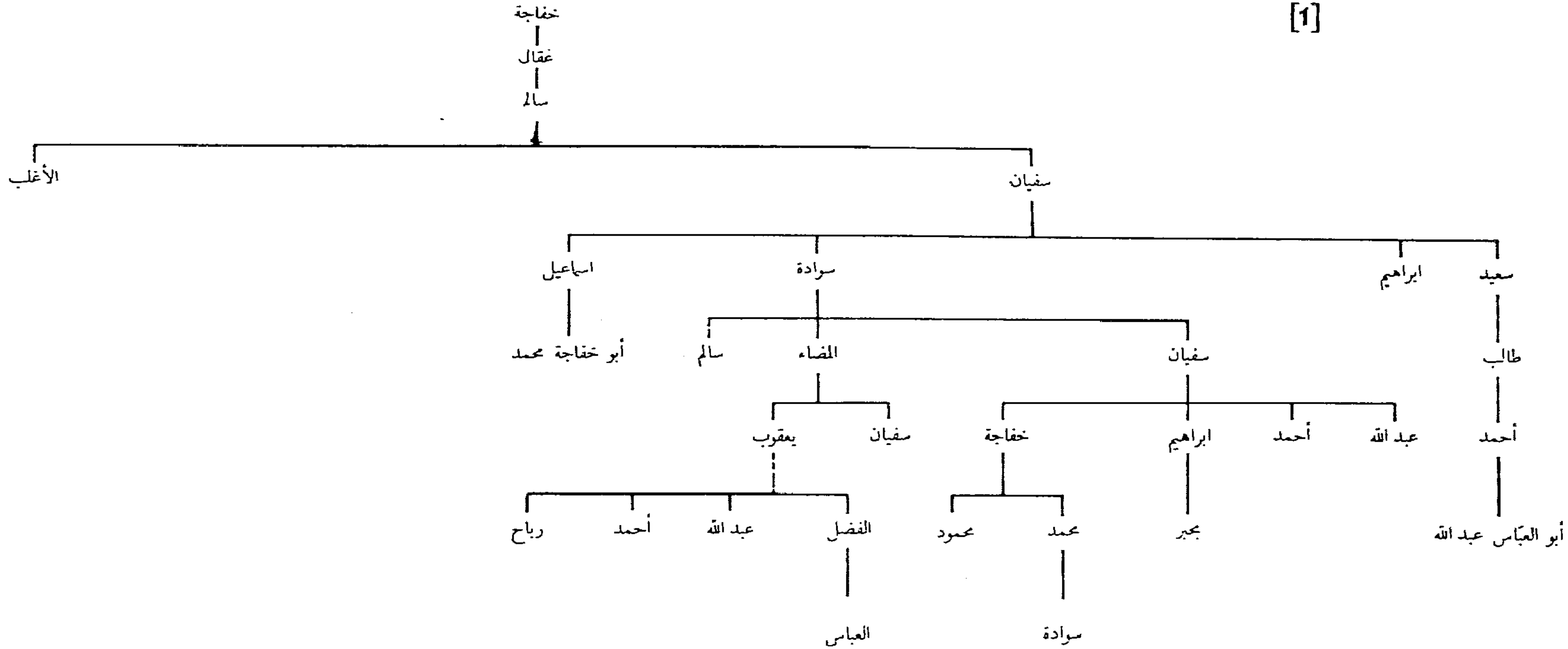
كان ابنه وخلفه عبد الله محاصرا في طرابلس .

وخلف إبراهيم الأول ذكرى أمير مثقّف، حازم، عادل. ويذكر النويري أنه « كان فقيها، عالما، خطيبا، شاعرا. وكان أيضا رجل رأي وحزم ... لم يحكم إفريقية قبله أمير أعدل في سيرته، وأمثل في سياسته، وأرفق بالرعيّة، وأحزم في تصريف الأمور» .

البيبليوغرافيا :البلاذري، **فتوح**، ط. بيروت ، 1958، 326 ـ 328 ابن الأبّار، **الحلّة**، تحـ. ح. مؤنس، القاهرة، 1963، 93 ـ 101؛ ابن الأثير، **الكامل**، ط. القاهرة 1938 ـ 1939 V ، 96، 104، 121، 141، 156 ـ 157، VI، 63؛ ابن عذاري، **البيان**، تحـ. ج . س . كولان-G. S. Col in وأ. ليفي بروفنسال .E. Lévi Provençal ليدن Leyde، 1948، I، 90-95 ؛ ابن خلدون، **العبر**، ط بيروت، 1958، IV ، 417- 421 ؛ ابن الخطيب، **أعمال**، في مائوية آماري II Centenario Amari ، 434-436 ؛ النويري، **نهاية**، تحـ . وترجمة إلى الإسبانية ج . ريميرو G.Remiro، غرناطة، 1917 ـ 1919 ، II ، 60 ـ 65 ؛ م. فونديرهيدن M. Vonderheyden، **بلاد البربر الشرقية تحت حكم دولة بني الأغلب** La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benoû'l- Arlab، باريس، 1927؛ م. الطالبي، **الإمارة الأغلبية** L'Emirat aghlabide ، باريس، 1966.

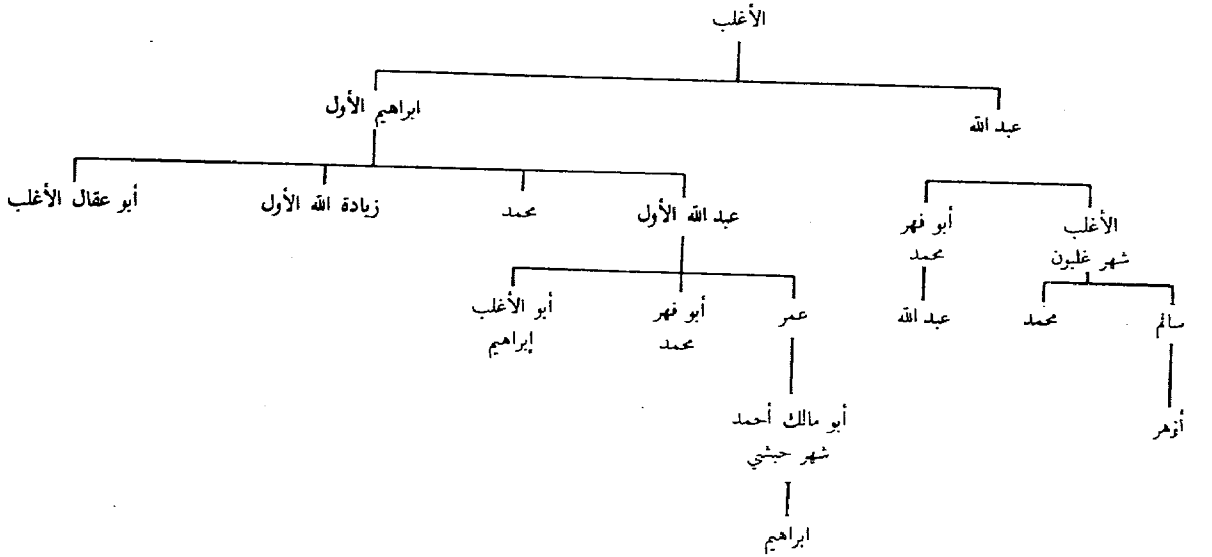
شجرة انساب الدولة الاغلبية

[1]



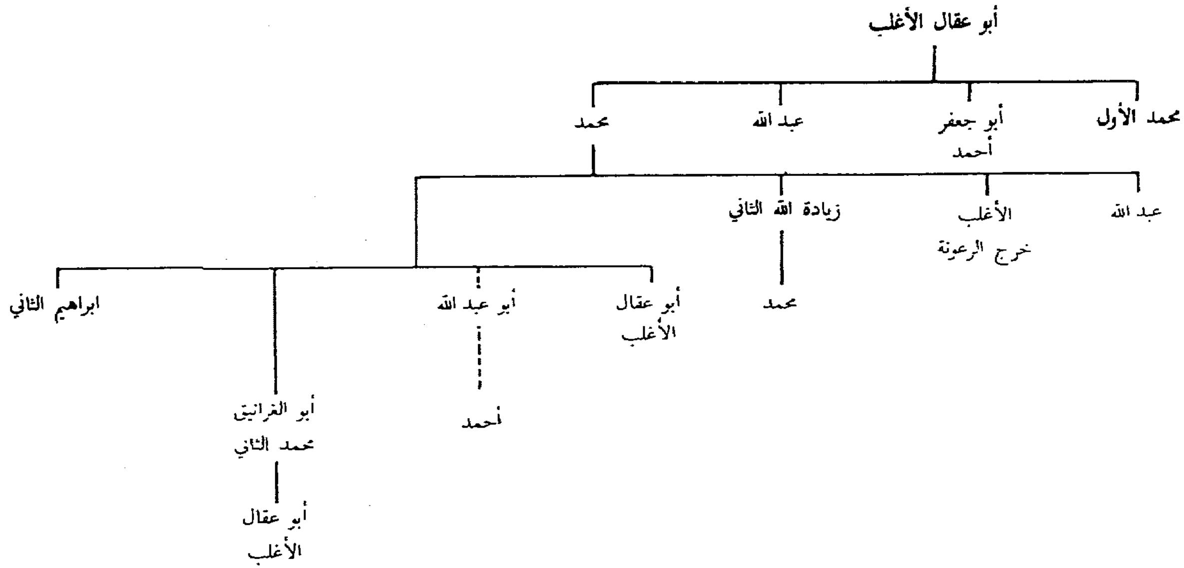
شجرة انساب الدولة الاغلبية

[2]



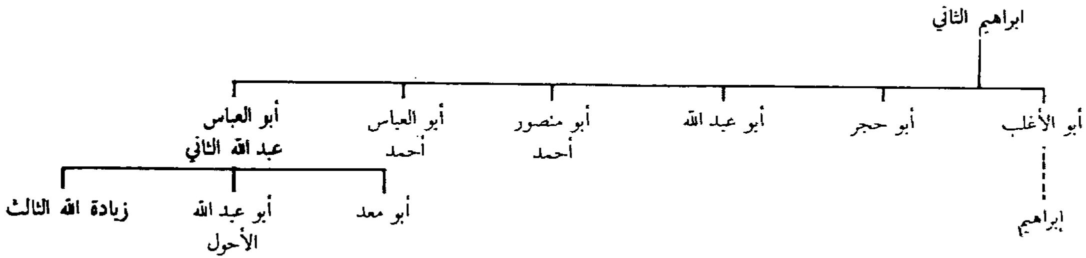
شجرة انساب الدولة الاغلبية

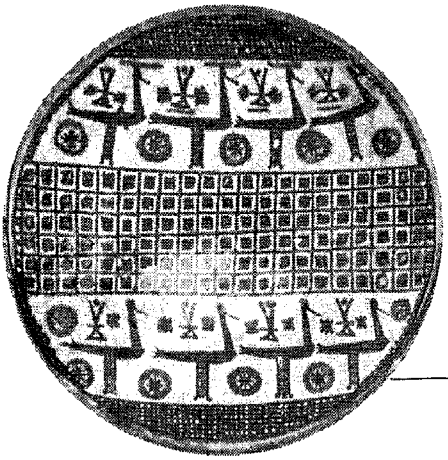
[3]



شجرة انساب الدولة الاغلبية

[4]





ابراهيم الثاني

[235 ـ 289هـ / 850 ـ 902 م]

إبراهيم الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب، ولد في 10 ذي الحجة 235هـ / 27 جوان 850 م، وكان، بعد إبراهيم الأول، أبعد الشخصيات أثرا في البيت الأغلبي، وقد تميّز على حدّ السواء بخصاله الاستثنائية، وجرائمه التي لا تصدق بيسر. فلمّا رفعه الحماس الشعبي إلى الحكم، على حساب الوريث الشرعي الذي مازال آنذاك طفلا، وكان هو الوصيّ عليه، افتتح عهده (261 هـ / 875 م.) بقرارات عادلة، وادارية حكيمة. ولتحقيق هذه الغاية، لم يتأخّر أمام اجراءات غير شعبيّة ولكنّها منقذة، مثل سحب القطع النقدية التي لا قيمة لها، والتي طغت على المعاملات، من التّداول، ممّا كاد يحدث انتفاضة خطرة بالقيروان (ثورة الدراهم). وعرف، في هذه المناسبة، كيف يبرهن على تحكّمه في نفسه، وكيف يتجنّب، مع المحافظة على قراره، إسالة الدماء .

لكنّه لم يعتّم، تحت تأثير الاضطرابات العقلية التي اشتدت عليه شيئا فشيئا، أن نصب، بكامل الوعي، الاستبداد المطلق للأمير دستورا للحكم، وبالإفراط في استخدام هذا الحقّ، أن يسفك الدّم بصفة واسعة. وارتكب، بالتأكيد، تلبية لحاجات سياسته، وكذلك بصفة مجانيّة، جرائم كثيرة، ونسب إليه عدد أكبر منها. وهكذا اتخذ في عين الأجيال اللاّحقة شكل وحش، وبقيت منه خاصة ذكرى بطل شرير لسلسلة من الحكايات السوداء ، الضحايا فيها هي بناته، وابناؤه ، وخدمه، وغلمانه، وجواريه، وغير هؤلاء كثير. وللدعاية الإسماعيلية، في هذا الرسم المرعب الذي صوّره

له أغلب الإخباريين ، دور كبير دون شكّ، وقد كانت نشطة بصفة خاصة في آخر ملكه.

ولم يخل استبداد إبراهيم الثاني من إثارة ردود فعل عنيفة. فانتفض البربر في البداية (268 ـ 269 هـ / 881 ـ 883 م.)، وهم أكثر تعرّضا من غيرهم، من شمال المملكة إلى جنوبها، وعوقبوا بقسوة. فحملت أجساد الضحايا ملء عربات كاملة، وقذف بها في قبور مشتركة. وبعد اثني عشر عاما (280 هـ / 893 م)، حان دور كبار « الاقطاعيّين » لدخول الحلبة. وكانت علّة هذه الانتفاضة سياسة استعباد كبار القوم التي يمارسها الأمير، وأشهر ضحاياها مقاتلو قلعة بلزمة الفخورون، وهي قفل جبل كتامة، ومنه انطلقت الحركة التي ستطيح بالأسرة الأغلبية. وقد تملّك إبراهيم الثاني الخوف، فقد ظنّ في البداية أن تمرّد الجند الكبير الذي كاد يذهب بعرش زيادة الله الأول، تكرر. وانتصر، في الواقع، بيسر على أعدائه الذين لم يحاولوا حتى توحيد قواهم. ثم دخل في خلاف مع بربر نفوسة (283ـ 284 / هـ 896- 897م)، وأباد صفوفهم تماما. وإثر ذلك، تظاهر بغزو مصر، بعد أن أمر بقتل ابن عمه حاكم طرابلس، بقسوة كبيرة ـ ومصر انطلقت منها حملة أبي العباس بن طولون المجهضة على إفريقية ـ وذلك قبل أن يسلك من جديد طريق تونس .

وبعد بضع سنوات (289 هـ / 902 م.)، تخلّى عن الحكم لابنه عبد الله الثاني الذي وقعت دعوته من صقليّة، وسار، يحيط به أهل البصائر، وهو يلبس مرقعة الزهاد التائبين، يبحث عن الشهادة ويلقاها تحت أسوار كنسته Cosenza (17 ذو القعدة 289 هـ / 23 اكتوبر 902 م). وقيل إن الأمير الذي نشر وصوله الرّعب في كامل إيطاليا الجنوبية، كان يعتزم لا أقل من السير لامتلاك بيزنطة عبر رومة. لقد كان ملكه ملك القوّة والجنون. وتبعا لتفاقم الداء الذي كان يدمّره، تراجع من الأفضل إلى الأسوء، وبأخطائه أعدّ انتصار الفاطميّين .

البيبليوغرافيا : ابن الأبّار، **الحلّة**، تحـ. ح . مؤنس، القاهرة1964،I، 164، 165،171 ـ 174، 179 ـ 181 ، 185 ، 187 ، 266؛ ابن الأثير،**الكامل** ، ط . القاهرة، 1938ـ1939،V ، 5 ـ 7 ، 36، 39، 67، 82، 91

103؛ ابن عـــذاري، **البيان**، تحــــ ج . س . كـــولان G. S.Colin وأ.ليفي
بروفنسال" E.Lévi - Provençal ليـدن Leyde ، 1948، I، 115-134؛ ابــــن
خلـدون، **العــبـــر**، ط. ـــ بيروت، 1958، IV ، 434 ـــ 6؛ 43 ابـن الخطيب،
أعمـال، فــــي مائويـة آماري Centenario Amari، II، 439 ـــ 443 ؛ النويري،
نهايـــة، تحقيـق وترجمة اسبانيّة ج. رميروG.Remiro ، غرناطة، 1917ـ1919،
II ،82ـ92؛ **الشماخي**،**سير**، ط.القاهرة، 1883 ـــ 1884، 215، 229، 237، 267 ـ272، 275
320؛ القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، نشرة بصدد الإعداد ف.الدشراوي ،
تونس*؛ م. فونديرهيدنM.Vonderheyden، **بلاد البربـر الشرقيّة تحت حكم
دولة بني الأغلب** La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benou'l- Arlab ،
باريس ،1927؛ م. الطالبي، **الإمارة الأغلبية** L'Emirat aghlabide باريس ، 1966.

* صدر سنة 1975 (المترجم).



ابـن خلـدون

[732 ـ 808 هـ / 1332 ـ 1406م]

ابن خلدون، وليّ الـدين عبد الـرحمن بن محمـد بن محمد بن أبي بكـر محـمـد بن الـحسن (732 هـ / 1332 م - 808 هـ / 1406 م)، من أقــوى شخصيات الثقافة العـربية الإسلامية زمن غروبها. ويعتبر عـامة مؤرّخا وعالـم اجتمـــاع وفيلسوفا. وبهذا العنوان، كـانت حياته وآثاره موضوع دراسات لا تحصى،وتعرضت لأكثر التأويلات تنوّعا،ولربّما أكثرها تباينا.

I. ـ **الرجل**. إن حياة ابن خلـدون ثلاثية، شغل مـرحلتها الأولى (20 سنة) الطفـولة والتكـوّن، والثانيـة (23 سنـة) مواصلـة الدراسـة والمغامـرات السياسية، والثالثة (31 سنة) حيـاة عالم و مـدرّس وقاض. وقـد دارت المرحلتان الأوليان بالمغرب الإسلامي، وكانت الأخيرة بين المغرب ومصر.

في تونس ـ ولد ابن خلــــدون بتونس فـــي غرة رمضـان 732/27 ماي 1332، فـــي أسرة عـربيّة يعود أصلهـــا إلى حضرمـــوت، استقرّت منـــذ بداية الفتح الإسلامي بإشبيلية (ابن حزم، **جمهرة** نشــــــر أ . ليفي بروفنسال E. Lévi-Provençal ، 430) حيث قامـــت بدور سياسي هـــــام. ثــم غـادرت هـــذه المديــنـــــة إلى سبتــــة، قبيـــل الاسترجــاع المسيحـــي للأنـــدلس. ومــــن هنـــــاك، وصلـت الى إفريقــــية واستقــــرّت بتونــــس فـــي عهــد السلطـــــان الحفصــــي أبـــي زكريــــاء ـ (625ـ647 هـ / 1228 ـ 1249م). ووالـــــد جدّ ابــــن خـلدون، أبو بكـــر محمـــــد بـــن الحســـن الـــذي تـــرك لنا رســالـة فـي أدب الكاتـــــب (انظــــر أ. لفـــي بروفنســـــال [E.Levi Provençal فـــي

أرابيكا Arabica، II، (1955)، 280 ــ 288)، وقد تحصل على خطة المالية في عهد أبي إسحق (678 - 681 هـ / 1279 - 1283 م). ووضع المغتصب ابن أبي عمارة حدّا لعمله وحياته بالأمر بخنقه بعد أن استولى على أملاكه، وعرضه للتعذيب. وشغل ابنه محمد بدوره عدة خطط ببجاية وتونس على حدّ السواء، وتوفي سنة 737 هـ / 1337 م، بعد أن تخلّى عن الحياة السياسية إثر سقوط ابن اللّحياني (711-717هـ / 1311 ــ 1317) وبقي ابنه محمد، أي والد مؤلّفنا متعقّلا،بعيدا عن السياسة،يحيى حياة الفقيه والأديب(التعريف10-15)

وتمكّن بذلك من أن يضمن لابنه عبد الرحمن تربية فيها عناية. وتابع هذا الابن كذلك دروس أشهر الشيوخ في تونس، وقد خصّص لهم في ترجمته الذّاتيّة (**التعريف**) تحاليل مطوّلة. وتلقّي بهذه الصفة تكوينا كلاسيكيّا، يعتمد أساسا على تلقي القرآن، والحديث، واللّغة العربية، والفقه. وجعلت غزوة بني مرين (748 ــ 750 هـ/ 1347 ــ 1349 م) باقة كاملة من الفقهاء والأدباء تتوافد على تونس مع السلطان أبي الحسن. وقد كان ذلك انبهارا للشابّ ابن خلدون الذي تمكّن بهذا، وخاصة بتتلمذه للآبلي، من تلقّي مبادىء الفلسفة، والقضايا الكبرى في الفكر العربي الإسلامي. إلاّ انّ القدركان يهيء له أيّاما قاسية ، فقد انتهى الاحتلال المريني في الفوضى والدمّ. وممّا زاد المأساة حدّة، أن الطاعون الأسود العالمي الرهيب الذي ظهر في منتصف القرن، وانطلق من الشرق ،قد كانت له فتكات سوداء في البلاد، وأودى بأبويه. وكان عُمُر ابن خلدون يومئذ 17 سنة. وطيلة حياته، سيحتفظ من ذلك بذكرى قاسية تنعكس في مقاطع عدّة من **التعريف والمقدمة**. وقدكانت تلك أول صدمة في حياته لها تأثير لا يمحى على اللّون والتوجّه اللذين سيتصف بهما فكره فيما بعد. ومن جهة أخرى، خلف رحيل العلماء المرينيّين فراغا ثقافيا كبيرا بتونس. ويبدو أنه من ذلك الحين، لم يفكّر ابن خلدون الشاب إلاّ في مغادرة تونس إلى فاس التي كانت حينذاك ألمع عواصم المغرب الإسلامي. وقد كان كما يذكر لنا (**التعريف**، 55) متعطّشا الى الدراسة، وحوله شقيقه الأكبر محمد عن مشروعه، ولكن لم يكن ذلك لمدة طويلة .

في بلاط فاس ـ لم يبلغ ابن خلدون بعد العشرين، عندما عهد إليه الحاجب القوي ابن تفراجين، قرب نهاية 751 هـ / 1350م ، بخطة العلامة لدى

السلطان أبي إسحق. وقبل، مع إبطان أفكار الإفلات كما يبدو (**التعريف**، 56). ومكّنه غزو إفريقية، على يد أمير قسنطينة، أبي يزيد (753 هـ / 1352م)، من الفرصة التي كان يحلم بها : فبفضل الهزيمة، هرب من سيّده، ولجأ لبعض الوقت الى إبّة، ثمّ التحق بتبسّه، فقفصة، قبل أن يبلغ بسكرة حيث قضى الشتاء لدى أصدقائه بني مزني، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حياته، وهي في الآن نفسه فترة دراسة ومغامرة، بارتداد، وسيتكرر ذلك في المستقبل، ويحكم أغلب الذين انكبوا على حياته وآثاره عليه حكما قاسيا. وفي الواقع ، هل علينا أن نأسف له إلى هذه الدرجة ؟ لقد كان ابن خلدون يرفض الغرق في الوحل الذي كان يترقّبه في بلاد إفريقية، وكانت آنذاك في انحلال كامل، وكان بلاطها إلى ذلك بعيدا عن أن يكون مدرسة للإخلاص وحسن الإخلاق .

وأثناء ذلك، لقي السلطان المريني أبو الحسن حتفه (752 هـ / 1351م)، في ختام مغامرة تعسة، وترك مجال المغرب الأقصى مفتوحا أمام ابنه أبي عنان الذي لم ينتظر إلى ذلك موت أبيه ليأخذ مكانه بفاس. وبدا أن السيطرة المرينيّة تأكّدت من جديد. فاستولى أبو عنان على تلمسان (753هـ/ 1352 م)، وأعاد بجاية إلى حكمه. ومن بسكرة، عرض عليه ابن خلدون خدماته. وفي طريقه إليه، لقي الحاجب المريني ابن أبي عمرو الذي سمي حاكما على بجاية، فحمله إلى إقامته الجديدة، حيث بقي بعض الوقت (حتّى نهاية شتاء 754 هـ / 1353م)، قبل أن تقع دعوته إلى بلاط فاس. وانضمّ بصفة رسمية الى مجلس السّلطان العلمي، وبعيد ذلك، التحق بكتابته، دون حرص كبير كما يبدو، « إذ كان لم يعهد مثله لسلفه»، ولنفهم من ذلك : أنّ هذه الخطّة كانت دون مكانته. ولنلاحظ مدى الطموح الذي تكشف عنه هذه الفكرة لدى شاب كان عمره آنذاك لا يكاد يبلغ 23 سنة. وواصل إذن التعلم خاصة، وقد خاب أمله قليلا أو كثيرا، وكتب في ذلك (**التعريف**،59) : « وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة، من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس، الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية ». وفي الجملة، كان تعطّشه للعلم مازال بعد يغلب على اهتماماته السياسيّة. لكن هل انغمس حينذاك، منتهزا مرض السلطان، في مؤامرة تهدف إلى تحرير أمير بجاية القديم، أبي عبد الله وإقراره على مملكته القديمة ؟ إن مؤلّفنا يدفع عن نفسه التهمة، ويتحدث عن مكائد، وحسد، ومداخلة

(**التعريف**، 67). وعلى كلّ، فقد ألقي في السجن، حيث بقي عامين (758- 759هـ / 1357-1358 م)، حتى وفاة أبي عنان وكانت هذه الوفاة مناسبة اضطراب، وصراع مسلّح بين المطالبين بالعرش، وخيانة، وسفك للدماء. وقد شارك ابن خلدون الذي أطلق سراحه، في ذلك، حسب قواعد اللعب السياسي لذلك العصر. فقد كان الارتداد عملة رائجة. واستخدم ابن خلدون تلك العملة بنجاعة، فوجد نفسه يعينّ في شعبان 760/ جويلية 1359م. في كتابة السر والترسيل للسلطان الجديد أبي سليم، وحتى يؤدي دوره بصفة أفضل، ويدعّم مركزه، فقد جهد في أن يصبح شاعرا للبلاط (« أخذت نفسي بالشعر» **التعريف**، 70) ، وينقل لنا مقطوعات طويلة من إنتاجه المدحي. لكن بلا جدوى، إذ أن نجمه أفل. وبعد سنتين تخلّ عن الكتابة إلى قضاء المظالم.ثم جاءت اضطرابات جديدة بسلطان جديد. فأبدل ابن خلدون معسكره في الوقت المناسب، واعتبر أنه حرم من ثمار النصر. فعبرّ عن سخطه، وخلق لنفسه أعداء، وبعد صعوبة كبرى، تحصّل على الإذن بالانسحاب إلى غرناطة (خريف 764هـ/ 1362م) .

في بلاط غرناطة. ـ في رمضان 760 هـ / أوت 1359 م، أطردت ثورة في القصر محمّد بن الأحمر من العرش. وهكذا، وجد نفسه منذ محرّم 761 هـ / ديسمبر 1359م ، لاجئا بفاس مع وزيره الشهير ابن الخطيب. وعقدت بين ابن الخطيب والشاب ابن خلدون، منذ ذلك الحين، صداقة ستصمد فيما بعد، رغم الغيوم التي لا يمكن تجنّبها، أمام صروف الزمان، وفي جمادى الثانية 763هـ/ أفريل 1362 م، استعاد محمد بن الأحمر عرشه، وابن الخطيب مركزه القديم، ونتج عن الصداقة المعقودة بفاس أن ابن خلدون المرغم بدوره على أن يبحث عن ملجإ في الضفّة الأخرى من المتوسط، استقبل بغرناطة بأكبر التشريف، وفي نهاية 765هـ/ 1364م ،بُعث إلى إشبيلية، مكلّفا بمهمة عسيرة لتحقيق السّلام لدى بطرس القاسي Pierre le Cruel. وينبغي أن نسجّل هذا الاتّصال بالعالم المسيحي وقد كان آنذاك في أوج التحوّل.ولمّا رجع، غمره الأمير النصري بالعطايا (**التعريف**، 85) .فاستقدم ابن خلدون عندئذ زوجته وأبناءه من قسنطينة. وللأسف، شعر ابن الخطيب ببعض الاستياء أمام نجاح صديقه الشاّب، وفضّل ابن خلدون ألاّ يلحّ في هذا الشأن (ربيع 766هـ / 1365 م).

في بلاط بجاية. ــ والحق أن فرصة فريدة سنحت له آنذاك لإشباع

طموحه. فقد استعاد صديقه أبو عبد الله محمد، الذي قد يكون شاركه في مؤامرتـه بفاس، مملكة بجاية. فعـرض عليه خطة الحجابـة، وكانت آنذاك أهم خطط الـدولة، وعهـد بالوزارة إلى شقيقـه الأصغر يحيى. وقـام ابن خلدون في الآن نفسه بتـدريس الفقه وبالوعظ. وكـان ذلك انتصارا زائلا. فمن السنة المواليـــة، عاد أمـــير قسنطينة، أبوالعباس، إلى الهجوم، وألحق هزيمة ساحقة بابن عمه أبي عبـد الله محمد الذي بقي على أرض المعركة. وسلّم ابن خلدون الـرافض لمواصلة القتال، مثلما اقترح عليه، بـاسم أحد أبناء المتوفى القصرّ، المدينة للمنتصر (شعبان 767هـ/ ماي1366م) وانتقل إلى خدمتـه. ولم يكن ذلك لمدّة طويلة. فقد شعـر ابن خلدون بانقـلاب الريح. فـاستعفى في الـوقت المنـاسب و لجأ أولا إلى العـرب الـذواودة، ثمّ لـدى أصـــدقائه بني مـزني ببسكـرة، بينما قبض على شقيقه الأصغـريحيى. وأجـاب السلـــطان أبــا حـــمو الـــذي عـــرض عليـــــه فـــي رسالـــة بتاريخ 17 رجب 769 / 8 مارس 1368م (**التعريف**، 102 - 103)، خطة الحجـابة بتلمسان، بـالرفض اللّطيف، واكتفى بأن بعث إليـه بأخيه يحيى المسرّح في الاثناء. ويفسرّ ذلك بقوله :

طريق العزلة. ـ « كنت نزعت عـــن غواية الرتب، وطال عليّ إغفال العلم، فأعــرضت عن الخوض في أحـوال الملـــوك، وبعثت الهمّـــة على القـراءة والتّدريس » (**التعريف**، 103) . وبتعبير آخر، أيعـاود وهذا أثـر الفأس ؟ حـــاول ابن خـــلدون إذن أن يحيى حيـــاة الأدبـــــاء ببســـكرة. وتبادل الـرسـائل الطويلـــــة، المرصّعـة بزهـور البديع، مع صـديقه ابن الخطيب (**التعريف**، 103ـ130). غير أنّ شيطان الدّسائس لم يستطع التخليّ عنه. فشجع ضدّ أبي العباس، تحالف السلطان الحفصي بتونس، وسلطان تلمسان ابن عبـد الواد أبي حمو. وتحوّل، إثر ذلك، إلى ضابط تجنيـدلدى السلطان المريني أبي فارس. وتعدّدت تنقلاته، محاولا أن ينشيء من غبار القبائل قوّة قادرة على دعم سلطة تتمتع بقوّة حقيقية. لكنّ الأحداث كانت، في كلّ مرة، تشـوّش حساباتـــــه. فقـد كان المطالبون المتنـافسون كثيرين للغاية . ومن هنا ،كانت له سلسلة من حركات الارتداد ربما ليست هي في أصلها سـوى محاولات غير ناجعة لإيجاد الجواد الجيّد القـادر على الفوز في السّبـاق. لكنّ هذا الجواد كـان مفقودا في سبـاق المغرب الإسـلامي في القرن الثامن هـ/ الـرابع عشر م. ومن جهة أخـرى، بدأ أصـدقاؤه بنـو مزني يستاؤون من نشاط ضيفهم البـاعث على الشكّ. فحاول ابن خلدون

مرّة أخرى أن يفلت من إغراءات السّياسة، فلجأ إلى رباط أبي مدين. وكتب أنه كان (**التعريف** 134) « مؤثرا للتخلّي والانقطاع للعلم لو ترك له » . ولم يكن من طبعه أن يبقى كذلك لمدّة طويلة، فأفضى به السعي إلى فاس (774 هـ / 1372 م) إذن، بعد بعض المحن في المغرب الأوسط. واستقبل، في البداية، استقبالا حسنا، ثم قبض عليه، وأطلق سراحه إثر ذلك، وسمح له، في نهاية الأمر، بأن ينسحب إلى إسبانية الإسلامية ربيع (776 هـ / 1375 م)، حيث ذهب « قصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم » (**التعريف**، 226). وللأسف، فإن أمله قد خاب مرّة أخرى. إذ أصبح شخصية سياسية ذات ماض ثقيل الى درجة توحي بالرّيبة، وكان من ذلك الحين محكوما عليه بأن يؤجر خدماته وأن يوحي بمشاعر مختلطة لا يبعد عنها الشكّ أبدا. غير أنه، في الظاهر، لم يكن يطمح إلى غير السّلام لاستخراج نتائج تجربته الصاخبة وتنظيم أفكاره .

في **قلعة ابن سلامة**. عاد ابن خلدون إلى المغرب، بعد أن أنذر فعليا بمغادرة مملكة غرناطة، وإثر بعض الصعوبات، استقر مع أسرته بتلمسان (غرة شوال 776 هـ / 5 مارس 1375م). وفي هذه الأثناء، خُنق صديقه، الوزير ابن الخطيب في سجنه بفاس، وقد حاول عبثا إنقاذه (**التعريف**، 227)، مما أكسبه عداوة أمير غرناطة، فهل رأى في ذلك إنذارا ؟ بدا، على كلّ، أنه منذ ذلك الحين، قرّر بصفة ثابتة الاكتفاء بالدراسة والتدريس، لكنّ سلطان تلمسان قبل أن ينسى الماضي — وقد وقف ابن خلدون بالتداول معه وضدّه - بخلفية استخدامه من جديد، فعهد إليه بمهمة لدى الذواودة. وتظاهر ابن خلدون بالقبول، لكنّه بمجرّد أن غادر تلمسان لجأ لدى أولاد عريف، واستقبله هؤلاء استقبالا ملكيا وتدخّلوا لفائدته لدى سلطان تلمسان الذي سمح لأسرته باللحاق به. ولمدّة أربع سنوات (776 - 780 هـ / 1375 - 1379م)، عاش ابن خلدون بقلعة ابن سلامة، على بعد 6 كلم جنوب غربي فرندة الحالية، في مقاطعة وهران (**التعريف**، 228). وكان ذلك منعرجا حاسما في حياته. فقد ألّف، وهو سجين برجه العاجي لأوّل مرة بصفة جديّة، **المقدمة** « على ذلك النحو الغريب الذي اهتدى إليه في تلك الخلوة » (**التعريف**، 229) .

من جديد في تونس ـــ ثم أصبحت ضرورة الحصول على وثائق أشمل تتأكد أكثر فأكثر، لمتابعة العمل. وكان عُمر ابن خلدون آنذاك 37 سنة. ففكّر في العودة الى تونس، وقد غادرها في سنّ العشرين، تونس « حيث قرار آبائه، ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم »، حسب تعبيره (**التعريف** 230). فراسل وتحصّل على الترخيص من محيي الدولة الحفصية، أبي العباس (771- 796هـ / 1370-1394م)، وقد كان له معه خصام منذ أكثر من عقد سابق في بجاية. وهكذا «ألقى عصا التسيار » (**التعريف**، 231) بمسقط رأسه، في شعبان 780 هـ / نوفمبر ـــ ديسمبر 1378 م. وواصل في تونس مهنته الجديدة في التدريس والعلم، وأتمّ بها تحريرا أوّل لكتابه **العبر** الذي أهدى نسخته الأولى، مصحوبة بمدحة طويلة أملتها الظروف (**التعريف**، 233- 234)، إلى السلطان، لكنّ نجاح تدريسه ـــ وقد اعتبره البعض هدّاما ـ وحظوة السلطان كوّنا له أعداء كثيرين. وجعلته دسيسة، روّجها ابن عرفة الشهير، يخشى شرّ العواقب. فخيرّ أن يغادر المغرب الإسلامي حيث يتبعه ماضيه الثقيل بصفة أكيدة في كلّ مكان، وكانت التعلة الحجّ، فمنحه السلطان ترخيصا، وكان أحد المراكب على أهبة الإقلاع إلى الاسكندرية، فركبه ابن خلدون في 15 شعبان 784 هـ/ 24 اكتوبر 1382م (**التعريف**، 245) .

في القاهرة. لقد كان وصول مؤلّفنا إلى عاصمة المماليك انبهارا حقيقيا بالنسبة إليه، فتدفّق الطلاّب على دروسه بالأزهر. وسرعان ما سمّي مدرسًا للفقه المالكي، وكان هذا الدرس شاغرا، بالمدرسة القمحية، وبعد وقت قليل، سمي كذلك قاضيا مالكيا أكبر (جمادى الثانية 786 هـ / جويلية- أوت 1384م)، وعندئذ بدأت محنه، فقد غرقت أسرته التي سمح لها بالالتحاق به إثر تدخّل السلطان الظاهر برقوق، في عرض الإسكندريّة، وفي نفس الوقت، تسبّب تشدّده ودسائس أعدائه الغاضبين لمنح وظيفة من أهم وظائف الدولة إلى « غريب » في فقدانه لخطّة القضاء (جمادى الأولى 787هـ / جوان - جويلية 1385م). وفي سنة 789هـ / 1387م. سمّي بالمدرسة الظاهرية، وهي حديثة البناء، ثم عهد إليه، عند رجوعه من الحجّ، بتدريس الحديث في مدرسة صرغمتش، وقداحتفظ لنا ابن خلدون بدرسه الافتتاحي بحذافيره (محرّم 791هـ / جانفي 1389م) وهو مخصّص لموطأ مالك (**التعريف**، 294 ـ 310)، وفي الآن نفسه، وضع على رأس خانقاه

بيبرس، أهم «الأديرة » الصوفيّة بمصر. ثمّ إثر أربعة عشر سنة خصّصت للتدريس وحده، وقع الاتجّاه إليه من جديد ليشغل خطة القضاء (15 رمضان 801 هـ / 21 ماي 1399 م). وعزل مرّة أخرى (محرّم 803 هـ/ اوت سبتمبر 1400 م) وبعد بضعة أشهر (ربيع الثاني 803هـ/ نوفمبر ـ ديسمبر 1400 م)، اضطرّ إلى أن يتّبع، وكان ذلك بالقوّة أكثر مما هو عن طيب خاطر، الناصر الذاهب إلى نجدة دمشق التي يهددها تيمورلنك المستولي بعد على حلب. ولعب ابن خلدون الذي بقي في المدينة المحاصرة ـ وقد تخلّ عنها الناصر بعجلة إذ كان يشكّ في قيام مؤامرة بالقاهرة اثناء غيابه ـ دورا ما في استسلام المدينة، بأمان خداع، واحتفظ لنا برواية مفصّلة لمقابلاته مع القائد المغولي (**التعريف**، 366 ـ 383). وليس من المستحيل أنّه تخيل فيه رجل القرن المتمتّع بعصبيّة كافية لإعادة توحيد العالم الإسلامي وإعطاء توجّه جديد للتاريخ (**التعريف** 372، 382). وفي النهاية، عاد إلى القاهرة، إثر تحرير وصف للمغرب لتيمورلنك وبعد أن شهد فظائع الحرق والنهب بدمشق ، وتخلّ حتى عن ثيابه لقطّاع الطريق، وعلى الرّغم من موقفه المتورّط تجاه القائد المغولي (**التعريف**، 378) فقد استقبل استقبالا حسنا في البلاط. ولأربع مرّات أخرى سيسمّى قاضيا أكبر، ويخلع بالتوالي. وتمّت آخر تسمية له، وهي السادسة، في شعبان 808 هـ/ جانفي / فيفري 1406 م، قبل أسابيع من وفاته في 26 رمضان 808 هـ / 17 مارس 1406م .

وخلال إقامة ابن خلدون بالقاهرة، لم يقطع صلته بالمغرب الإسلامي. فقد حافظ على زيه المغربي، وهو برنس داكن. وحاول أيضا أن يشجع تبادل الهدايا بين سلاطين مصر وسلاطين المغرب وأن يوجد مناخا للتفاهم (**التعريف**، 335 - 346). وأرسل نسخة من كتاب العبر الى السلطان المريني أبي فارس (796 - 799 هـ / 1394 - 1396 م)، وواصل مراسلة أصدقائه، واحتفظ لنا بصفة خاصة، بمقاطع طويلة، نثرا وشعرا، من الرسائل التي وجهها إليه الشاعر الغرناطي الشهير، ابن زمرك (**التعريف**، 262- 274) .

إن حياة ابن خلدون قد وقع الحكم عليها أحكاما متنوعة، وبصفة عامة، بصرامة نسبية. فبالفعل، لا شكّ يحوم حول تصرّف مفكّرنا الطائش،

النفعي، المتعالي، الطموح، الملتبس. وهو، إلى ما ذكرنا، لايخفي ذلك، ويعرض بنفسه في وضح النهار، في كتاب **التعريف**، هذه التغييرات المتتالية للاتجاه. أهو التقلّب ؟ أم الانعدام المحيرّ للوطنية ؟ لقد كان ينبغي، لكي تكون هذه الأحكام صحيحة بدقّة، أن يوجد وطن. بينما، لم يكن هناك وطن بالفعل. ولم يكن يوجد على الاطلاق حتى المفهوم، ولن يدخل الفكر الإسلامي إلاّ بفضل الاتصال الحديث جدًا بأوروبا. ولم يكن يتصور أنه توجد خيانة غير الردّة. ولم يكن الوفاء مفهوما كذلك إلاّ في إطار العلاقات بين الرجل والرجل، وكان أكابر القوم يضربون، يوميا، المثال على الخيانة. وكان يعفى عن الخيانة، إلى ذلك، بيسر تبعا للمصلحة- أو لم يكن ابن خلدون بالتداول عدوّا لهؤلاء و أولئك أو خادما لهم ؟ — كما كان المرء يقتل غدرا أو بلا سبب، و ببساطة كاملة قصد التوقّي. وكانت الصراعات التي تمزّق المغرب الإسلامي في عهد ابن خلدون سلسلة من الإجهاضات بلا أفق ولا عظمة. فينبغي أن نحكم عليه إذن حسب مقاييس عصره، لا حسب مقاييسنا .

وكان ابن خلدون، إلى ذلك، مثلما يبرهن عليه في مقدمته، جلي الرؤى بصفة مدهشة. وبالطبع ، كان تصرّفه يمليه الطموح، والتعلّق بالسلطة، وطعم المغامرة، وربّما انعدام كامل للقلب في ميدان السياسة. ولكن، هل كان ذلك كلّ شيء ؟ يمكن الشكّ في الأمر. وبالفعل، قد يكون رغم كلّ شيء من الغريب أن منظّر العصبية لم يتصوّر، وربماكان ذلك في غموض قليل أو كثير، مشروع إحياء الحضارة العربية الإسلامية التي يعلم انهّا - وهو يذكر ذلك بوضوح — في صلب الاحتضار. فيمكن ألاّ تكون مغامرته سوى تنقيب غير مجدّ وبارد عن عصبية قوية إلى درجة لإنقاذ مركب الإسلام من الغرق. وتسمح بعض العلامات بإبداء هذا الافتراض. لكنّ ابن خلدون لايذكر لنا شيئا بصفة صريحة. ولا يمكنّنا كتابه **التعريف**، وقد أبديت في شأنه، إلى هذا، أحكام مختلفة، من أية مساعدة. ومثلما لاحظنا ذلك من قبل، فهو لايسمح لنا بالدخول في حياة الرجل الخاصة، إذ أنّه يرسم لنا فقط ملامح الشخصية. ولذا علينا ان نرضى برؤية نوايا الرجل العميقة تفلت منا إلى الأبد .

II - **الآثار** - عرف ابن خلدون خاصة **بمقدمته وكتاب العبر**، لكنّ له آثارا أخرى لم تصلنا كلها. لقد حاول، في حوالي العشرين من عمره، تحت تأثير

الآبلي، أن يلخص جمع الرّازي اللاهـوتي الفلسفي المعنون **كتاب محصل أفكــار المتقـدّمين والمتأخـــرين من العلماء والحكماء والمتكلّمين** (ط. القاهرة، 1905)، وهـو جمع يكثف كل التراث الثقـافي العربي الإســلامي في شأن موضــوع العقيدة وأصدائه الفلسفيّة. وهـذا الملخّص، المعنون **لباب المحصل في أصول الدّين** (ط. تطوان 1952، مخطوط بخطّ المؤلف مؤرخ في 29 صفر 752هـ / 27 افريل 1351م، الإسكوريال رقم 1614)، يبينّ اتجاها في الفكر لن يفارق ابن خلدون فيما بعد مطلقا .

ونـذكـر، من جهـة أخـرى، أنّ ابن خلـدون ألحّ، عـديـد المرّات، في كتـاب **التعريف**، من بيـــــــن أمـــــــــور على الطـابع الـدّراسي المجـدّ لإقامتـــــــــــه بفاس وغرناطة. فخـلال هذه الفترة، أي ما بين 752هـ/ 1351م و 765 هـ / 1364م، وهو التاريخ الـذي انتهى فيه كتاب **الإحاطة** لابن الخطيب وإليه ندين بالمعلومات التي تلي، ألّف خمسة تصانيف : .

1. **شرح متن البردة للبوصيري**
2. **ملخّص في المنطق**
3. **مقالة في علم الحساب**
4. **ملخّصات عدّة لآثار ابن رشد**، دون أن نذكر للأسف ماهي!
5. **شرح على قصيدة لابن الخطيب في أصول الفقه**. وجميع هذه الآثار اليوم مفقودة، ويبـدو إضافة إلى ذلك أنها نسيت بسرعة من زمـن مؤلفها نفسـه. ولا يـذكـرهــا ابن خلـدون حتى في كتـاب **التعريف**، ويبـدو أن المترجمين له من المصريّين لا يحملون أية فكرة عنها .

وهذه الأعمال تنتمي من جهة أخرى إلى نوع لاهوتي فلسفي تقليدي، بما في ذلك علم العـدد الضروري للفقه. ولاشيء ، إلى هذا الحدّ، يسمح بتـوقّع انّـه سيعـرف لـدى الأجيال الـلاّحقـة بصفتـه المؤسّس العبقـري للعلم التاريخي وعلوم أخرى أيضا. وسيتم تفتق العبقـرية في قلعة ابن سلامة، في نقطـة انصهـار العلـوم التقليديـة التي سـاهمت في تكـوين عقلـه، مع الحصاد الثريّ للتجارب السياسية التي جعلتـه، بالتراكم المرّ للاجهاضات والمآزق، يعي معنى التاريخ وعبره العميقـة وحينذاك بدأ، في سكـون قلعة ابن سـلامة الجليـل، عمل فكّ رموز المغـامـرة الإنسـانية الأخـاذة المثيرة للحيرة، ولهذه المغامرة دون شكّ عظمتها، لكنّـه تفحّص بؤسها منذ قليل.

وهكذا، حصل تحوّل حقيقي. فقد أصبح الفقيه العادي الذي كان يمكن أن يكونه ابن خلدون على كلّ حال، مؤرّخا عبقريا، وربّما مؤسّس بعض العلوم التي ستكشف أنها من بين أكثر العلوم الإنسانية العصرية إثمارا. وأول دفعة من مقدمته - وتحوي أساس تفكيره - لكتاب **العبر**، وكذلك أقسام واسعة من هذا التاريخ نفسه، قد تمّ تحريرها بين 776هـ/ 1375م و 780هـ/ 1379 م في أثناء عزلته. ولم ينقطع إثر ذلك، إلى نهاية أيامه، عن تنقيح هذا الأثر الأساسي، وخاصة المقدمة. ويبدو **التعريف**، وهو ترجمة ذاتية تتوقف في ذي القعدة 807هـ/ ماي 1405م (ط .الطنجي، القاهرة، 1951)، و**شفاء السائل**، وهو مؤلّف في التصوّف كتب في أواخر حياته (ط . الطنجي، إسطنبول، 1958، وط .ا.ا .خليفة، بيروت، 1959) في شكل عملين أدنيين مقارنة مع أثره الرئيسي، وتقتصر أهميتهما الأساسية إذّاك على إضاءته. ونلاحظ في هذا الصدد أن مشكل صحّة نسبة **شفاء السّائل**، ولها من الأهمية مالها بالنسبة إلى تاريخ فكر المؤلّف، لم يقع بعد حلّها بصفة نهائية اليوم .

ويمجّد المؤرخ العثماني نعيمة (المتوفّى 1128 هـ / 1716 م) ابن خلدون في مقدّمة كتابه ويقدم تلخيصا لأفكاره. (قام بأول ترجمة تركية لقسم من المقدمة شيخ الإسلام بيري - زاده محمد في 1143 هـ / 1749م (انظر الفهرس العربي I A؛ فصل ابن خلدون Ibn Haldûn، العمود 740 ب). وأحدث الترجمات، وهي كاملة، قام بها زاكر كادري أوغن Zakir Kadiri Ugan، في مجلدين، اسطمبول، 1954). إلاّ أن فضل اكتشاف ابن خلدون وثراء مقدمته يعود إلى أوربا، أي إلى دار بولو d'Herbelot (المكتبة الشرقية Bibliothèque Orientale،1697)، وسلفستر دوساسي Silvestre de Sacy (مختارات أدبية عربية Chrestomatie arabe 1806)، وفون هامر بورغستال von Hammer-Purgstall، (Uber den Verfall des Islams ...، 1812)، وخاصة كواترمار Quatremère الذي قام، سنة 1858، بالطبعة الأولى الكاملة للمقدمة - وقد طبعت كذلك في نفس السنة بالقاهرة على يد نصر الهوريني عن مخطوط آخر يتضمن خاصة الإهداء الى السلطان أبي فارس (796 - 799 هـ / 1394 - 1397 م) بفاس -، ودوسلان De Slane الذي قام بعد بعض السنوات بأول ترجمة لها إلى اللغة الفرنسية (**المقدمة** Les Prolégomènes، باريس 1863 - 1868). ومن ذلك التاريخ، لم تكفّ الطّبعات والدّراسات عن التكاثر، في

الشرق والغرب، شاهدة بالاهتمام المتزايد الذي يبعثه الفكر الخلدوني، وقد بلغ عـددهـا هـذه السنـوات الأخيرة حـدًّا جعلها تحتـاج إلى الضبط البيبليوغرافي الذي قام به هـ . بيريس H. Pérès وو.ج فيشال ‹W.J. Fischel. وتوفّر آخر الترجمات، وهـي ترجمة فر.روزنتال ‹Fr.Rosenthal، مزية أنها انجزت عن مخطوط اسطنبول (عاطف أفندي، 1936)، وقد أثبتت فيه بخط ابن خلـدون ملاحظـة تشير إلى أن المؤلف«راجعه علميّـا».ونلاحظ أيضـا الترجمة البرتغالية التي قام بها كوري Khoury في3مجلّدات (ساوباولو، 1958 -1960)،والترجمة الفرنسية (قيد الطبع) التي قام بهاف،مونتاي.*V. Monteil وبالطبع، أثار **كتـاب العبر**، التـاريخ العـالمي نفسـه، اهتمامـا أقلّ. وأول المهتمين ، نوال ديفرجي Noël Devergers قام بنشر مقاطع مستمدّة من العبر وتـرجمتهـا تحـت عنوان **تاريخ إفـريقيا تحـت حكـم الدولة الأغلبية وصقليّة تحت السيطرة الإسلامية**-Histoire de l'Afrique sous la dy-nastie des Aghlabites et de la Sicile sous la domination musulmane، باريس 1841. ونشرت بعد سنوات قليلة ، ترجمة أخرى جزئية قام بها دوسلان De Slane ، تحت عنـوان **تـاريخ البربر والـدّول الإسلاميـة بإفريقيـا الشماليـة** Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septen-tionale (في 4مجلدات، الجزائر، 1852-1856) متبوعة بنشرة للمقاطع المترجمة (في جزأين، الجزائر، 1863). ثم نشرت طبعة بولاق الكاملة (في 7 مجلدات، 1868) ومن ذلك الحين، تتـابعت كذلك الترجمات الجزئيـة. إلاّ أننا مـازلنا ننتظر الطبعـة النقديـة الحقيقيّة للمقـدمة والعبر. والطبعـة الأخيرة، طبعة بيروت، (1956-1959) ـ التي نحيل عليها ـ هي طبعة تجارية إلاّ أنهّا مزودة بفهارس نافعة .

والنقد الموجّه عامة إلى **كتاب العبر** هو أنه لم يحقّق وعود المقدمة وهو نقد واضح جليّ. لكن لم يكن من الممكن أن تتم الأمـور على غير هذا. فـلا بشر يقدر وحـده على كتابة تاريخ عـالمي حسب مقتضيات المقدّمة. لكن يـوجد ماهـو أخطر. إذ يبرهن ابن خلـدون في كتابـه أحيانـا عـن انعدام عجيب للمعرفة، مثال ذلك ما يتعلـق بالموحّـدين وعقيدتهـم. « وفضـلا عـن ذلك، لم تكن التـواريخ الدقيقـة نقطـة قوتـه، فالمعطيـات الزّمنيـة تتناقـض غالبا عبر كتابه، ويضطـر المرء إلـى أن يفضل فـي عديـد المـرّات، تلك التـي توفّرها كتـب أخرى، أكثـر تواضعـا، وأكثر اختصـارا بكثيـر » « (ر. برونشفيـغR.Brunschvig **الحفصيّون** Hafsides ،II ، 392).

إلاّ أنّ كتــــاب العبــــر، بالترتيــــب الــذّكي لــلأحداث، وعمـــق الروايـــة واتساعها، يبقى رغـم كلّ شيء، حسب رأي أفضل اختصاصي، استعمله أكبر استعمال، أداة عمل لا نظير لها، وخاصــــة « بالنسبة إلى القـرنين القـريبين أكثـر من مـؤلّفنـا، وهما الثـالث عشر والـرابع عشر » (ر.برونشفيغ، المرجـع المذكور II، 393). ونلاحـظ أيضا أن هـذا الكتاب، وغالبا مـا يكون مخيّبا للآمـال عندما يتعلق الأمر بتـاريخ المشرق،له قيمة بصفة عامة خصوصا بالنسبة إلى المغرب الإسلامي، وبالأخصّ إلى البربر.

لكن الآية الحق، ذات القيمة العالميـة، التي أنتجتها ريشة ابن خلدون ، هـي **المقدّمة**. وهي، في ذهن مؤلّفها، ومثلما يدلّ عليه عنوانها إلى ذلك، مدخل إلى عمل المؤرخ. ولـهذا، قدّمت لنا بصفتها موسوعة تأليفية للمعارف المنهجية والثقـافية الضروريـة للمؤرّخ ليتمكّن من إنجـاز عمل علمي حقّا. وفعـلا، كانت اهتمامات ابن خلدون في المنطلق، أبيستمولوجية بالأساس. وسيدفع، خطوة خطـوة، أثناء تأمّلـه في منهج التاريخ ومـادّته، وبكامـل الوعي، إلى ابتداع ما يسمّيه « علم مستنبت النشأة » (63)، وسيبرز هو نفسه بصفته حـاويا بصفـة صريحة إن قليـلا أو كثيرا نقط انطـلاق عدة اتجاهـات في البحث تفضي إلى فلسفة التـاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصـاد، وعلوم أخرى أيضا .

ويبدأ ابـن خلدون، في مقـدّمة **المقدّمة** (1 - 68) بتعريـف التاريخ ـــ الذي يوسعه إلى دراسة مجمل الماضي الإنساني، بما في ذلك المظاهر الاجتماعية، والاقتصـادية، والثقافة ـ واستخـراج فائدته، ونقد انعدام الفضول والمنهج لدى سابقيه، ووضع قواعد نقد جيّـد سليم. ويتركز هذا النقد أسـاسا، إذا تركنـا جانبـا فحص الشهادة، على قـانون المطـابقة (61 - 62)، أي قـرب الأحداث المذكورة من الحقيقة ومطابقتها لطبيعة الأمور، وليس ذلك سوى جري التاريخ وتطوّره. ومن هنا، كانت ضرورة بروز القوانين التي تحدّد اتجاه هذا الجري. ويذكر لنا أن العلم القادر على إضاءة هذه الظاهرة، هو علم العمـران « وكان هـذا علم مستقلّ بنفسـه، فإنه ذو مـوضوع وهـو العمران البشري والاجتماع الإنساني » (62) .

وكل ما يتبع ذلك، أي صلب المقدّمـة نفسها، ليس سوى العرض المفصل لهذا العلـــم الجديد المستقل الذي تفطّن إليه المؤلف حـدسا. ويحلّل ابن خلدون، انطـلاقا من هنا بـرهنته ـ على عكس مـا يمكن أن يكون البعض

ظنّوه ـ حسب هندسة محكمة، وهو إلى ذلك يشير بوضوح إلى خطوطها الكبرى ويفسرها (68) قبل أن ينطلق في عرضه. وهذا العرض يتوزّع على ستة فصول كبرى، تنقسم بدورها إلى عدد كبير من الفقرات ذات الطول المتنوّع، وغالبا ما يتمّ تحديد ذلك حسابيا .

الفصل I : في العمران البشري على الجملة. ويرسم فيه ابن خلدون ملامح دراسة للوسط وتأثيره في الطبع البشري، واتنولوجيا، وانطروبولوجيا .

الفصل II : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل. ويدرس عامة المجتمعات القريبة من البدائية .

الفصل III : في الدّول والممالك والخلافة والمراتب السلطانيّة، ويدرس مختلف أصناف الحكم، والدّول، والمؤسسات .

الفصل IV : في البلدان والأمصار وسائر العمران الحضري ، أي الأشكال المتطورة أكثر، وربّما المتصنّعة أكثر للحضارة .

الفصل V : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ويدرس الصنائع ومجموع الأحداث الاقتصادية .

الفصل VI : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويدرس العلوم والآداب، ومجموع الظواهر الثقافية .

ويبينّ هذا التخطيط، بوضوح، أن ابن خلدون دفع في مقدمته إلى الاهتمام بجملة الظواهر الاجتماعية. والمحور الذي تنتظم حوله الملاحظات، والموجّه لبحوثه، هو دراسة مظاهر ذبول الحضارات وانحطاطها، أي أعراض الأدواء التي تموت من جرائها الحضارات وطبيعتها. ومن هنا كانت الروابط المتينة للغاية والتي تجمع بين المقدّمة وتجارب مؤلّفها السياسية. وفعلا، فقد كان لابن خلدون شعور تنبّئي واضح بأنه شاهد على تغيير عملاق في مجرى التاريخ. ومن هنا كانت ضرورة القيام بتقويم الماضي الانساني واستخلاص العبر منه. ويقول ابن خلدون إن التغييرات، في بعض الأوقات المتميّزة من التاريخ، تصل إلى حدّ الشعور بأن المرء يشهد « خلقا جديدا، ونشأة مستأنفة، وعالما محدثا. فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق » (53). وهذا « العالم المحدث » كان ابن خلدون يعلم (866) أنه في حالة مخاض على ضفاف أخرى، وكان يعلم كذلك أن الحضارة التي ينتمي إليها تحيى أيامها الأخيرة. وقد رغب،

لاستحالة إمكان تجنّب الكارثة، أن يفهم الأحداث على الأقلّ، ومن هنا كانت ضرورة تفكيك آليات التاريخ .

وفي عمل التفكيك هذا، كانت الأداة الأساسية له هي الملاحظة. وقد وقع الإلحاح حديثا على المظهر الواقعي لفكره. فابن خلدون، المتمرّس بمصادر المنطق والملتجىء إليها، وخاصة إلى الاستقراء، يحذر كثيرا من العقل النظري. وهو يقبل أن العقل هو بالتأكيد أداة مدهشة، لكن في إطار حدودها الطبيعية فحسب، وهي حدود البحث في الواقع وتأويله. وقد حيّره مشكل المعرفة عميق الحيرة ودفعه، في النهاية، في آخر نقد جذري، إلى رفض الفلسفة. « وبوضعه لتطابق العقلي العالمي مع الواقعي الفردي موضع شك، وضع ابن خلدون موضع شكّ، بنفس العملية، كامل بناء الفلسفة النظرية السابقة ». (ن . نصار N. Nassar، **فكر ابن خلدون الواقعي** La pensée réaliste d'Ibn Khaldûn، 66). وهكذا اختار ابن خلدون، بعد أن أنهى، بصفاء كبير، مأساة الفلسفة العربية الإسلامية، التوجّه الى مذهب تجريبي معيّن، لاستكشاف الواقع واستخراج معناه، وهذا المذهب لا يرفض « اللّجوء إلى أصناف التفسير العقلي المتولّدة عن الفلسفة » . وفي الجملة، لا يطرح ابن خلدون التنظير التقليدي للفلاسفة الذي يتورط في الطريق غير النافذة للخلافات والمجادلات، إلاّ ليعوّضه بتنظير آخر أوثق في مساعيه وأخصب في نتائجه، لأنه متصل مباشرة مع الواقع الملموس .

وهذا التنظير الإيجابي الجديد الذي يعرضه علينا، ويعطينا مثالا له في **المقدّمة**، يجري حسب حركة جدلية لاحظها عدة باحثين (انظر خاصة الكتب الحديثة. إ. لاكوست Y. Lacoste ون. نصار N. Nassar) وفعلا، فانه لا يمكنه النّفاذ إلى قلب الواقع ، ووصف الصرّاعات، والنّزاعات ، والتّوترات، والإجهاضات المتتالية للدول والحضارات تحت تأثير تناقضاتها الداخلية، دون أن يعترضه ، وأن يلاحظ في طريقه، لعبة الجدل، خاصة وأنه التقى في شبابه بالمنطق، وأن مفاهيم المتناقض، والمتضاد، والمقابلة، وتكامل الأضداد، واللّبس، والتّعقد، والتّداخل كانت منذ زمان طويل مألوفة في الفكر الإسلامي الذي ينتمي إليه. ولهذا تذكر هذه المفاهيم غالبا بصفتها مفاهيم إجرائية تسمح بالفهم والتفسير. وتوصّل ابن خلدون هكذا ،بتجاوز التناقضات جدليا، ومحاولة تفسيرها ، وحلّها

إذن، إلى تصوّر دينامي للتطور الجدلي لمصيرالإنسان، ولتاريخ واضح، عقلي، ضروري استعاديا. وينبغي إدماج رسمه البياني الدائري الشهير للتأويل التاريخي، وهو في حدّ ذاته لا يقدم أية طرافة خاصة، ضمن هذه الرؤية العامة، حتى يأخذ معناه الحقيقي.

ولقد جعل ثراء الأفكار المثارة في **المقدّمة** عدة اختصاصيّين يكتشفون فيها بذور عدّة علوم لم تتأسس حقّا بصفتها علوما مستقلة إلاّ في فترة حديثة جدّا نسبيا. ولا أحد بالطبع يناقش صفته مؤرخا، ويرى إ.لاكوست (ابن خلدون Ibn Khaldoun، 187) انّه « إذا كان توسيديد Thucydide مخترع التاريخ »، فإن ابن خلدون « يسجّل ظهور التاريخ بصفته علما » . لكن رأى الدارسون فيه فيلسوفا، وقد كان التعجّب خاصة من اكتشاف علم اجتماع كثير الضبط في مقدمته. وليس « علمه المستنبت النشأة »، علم العمران، وقد كان هو نفسه منبهرا باكتشافه، في حقيقة الأمر، وبالمعنى الدقيق، غير علم اجتماع، وقع تصوّره في الحق بصفته علما مساعدا للتاريخ. وهو يرى أن الأسباب العميقة للتطور التاريخي، علينا بالفعل أن نبحث عنها في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية. فثابر على تحليلها إذن، مؤسسا، في طريقه، عددا من المفاهيم الإجرائية الجديدة وأبعدها تأثيرا هو بلا جدال مفهوم العصبية. وهذا المفهوم، وكذلك مفهوم العمران، أنتجا عديد المناقشات العصرية ـ ولا يمكن ذكرها هنا ـ في شأن تأويلهما (انظر م. الطالبي، **ابن خلدون ومعنى التاريخ** Ibn Haldùn et le sens del'Histoire، في دراسات إسلاميّة XXVI S.I" (1967)، (86 – 90، 99 – 112). وقد اهتمّ خاصة بتأثير نوع الحياة والإنتاج في تطوّر المجموعات الاجتماعية. وهو يؤكّد، في جملة اشتهرت بعد : « اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنّما هو باختلاف نحلتهم من المعاش » (210). وكثيرا ما قربت هذه الجملة من جملة أخرى لا تقلّ عنها شهرة لماركس Marx : « تحدد طريقة الإنتاج للحياة المادية، عامة، التطوّر الاجتماعي، والسياسي، والفكري للحياة ». والتماثل، فعلا، مدهش. وليس الوحيد بين المفكّرين. ولهذا فإنّ فكر ابن خلدون كثيرا ما يؤوّل، وخاصة في هذه السنوات الأخيرة، في معنى المادية الجدلية. ولكن، على الرغم من وجوه التماثل التي لا تناقش فإنه يبدولنا صعبا أن نرى في ابن خلدون رائدا للمادية. والى ذلك، فالتعليل، عنده، ليس اجتماعيا

اقتصاديا فقط، بل هو نفساني أيضا . « لا تحوي المقدّمة علم اجتماع عام فحسب، ولكن أيضا علم نفس اجتماعي وافر الثراء، كثير التنويع، يمكن أن ينقسم الى علم نفس سياسي، وعلم نفس اقتصادي، وعلم نفس اخلاقي، وعلم نفس عام. وتكوّن العناصر المتشابكة والمترابطة في الصميم، وهي عناصر علم النفس الاجتماعي هذا وعلم الاجتماع العام كلاّ معقدا صعب الفصل » (نصّار Nassar المرجع المذكور أعلاه، 178) .

وهكذا تعتبر صورة ابن خلدون غير الخاضعة للقوالب في الثقافة العربية الاسلامية وبالإجماع، منذ اكتشاف أوروبا له، بصفتها صورة عبقري حقيقي بارز، صورة « مفكر عبقري شاذ » (ر. برونشفيغ R. Brunschvig **الحفصيون**، II ، 391) تشكّل مقدّمته « أحد الأوقات الجليلة للفكر البشري» (بوتول Bouthoul) وقد كان « عبقريا متفرّدا »، لا يرتبط بأي تيار معينّ من الفكر العربي الإسلامي، لأنه في الحق نهاية العديد من التساؤلات المحيّرة، ويمثل فكره تحوّلا جذريا بقي - للأسف !- عديم التأثير مثل مغامراته السياسية الفاشلة. « ومثلما لم يكن له سابقون في اللّغة العربية، لم يكن له كذلك في هذا اللسان، إلى الفترة المعاصرة، منافسون ولا تابعون. وإذا لم يكن تأثيره المباشر منعدما، في مصر، في بعض كتّاب العصر الوسيط المنتهي، فإنه يمكن التأكيد أن مقدّمته وتعليمه الشخصي لم يخلّف كلاهما، في مسقط رأسه بلاد البربر، آثارا دائمة. وذلك في الحقيقة، من أكثر المآسي تأثيرا، وأشجى صفحات تاريخ الثقافة الإسلامية وأكثرها دلالة، أي هذا الانعدام المطلق للفهم والعداوة المصرّة اللذان تعرّض إليهما، في عالمه نفسه، هذا المفكّر العبقري الشاذّ (ر. برونشفيغ، المرجع المذكور أعلاه، II ، 391) .

البيبليوغرافيا : إن البيبليوغرافيا حول ابن خلدون غزيرة إلى حدّ أنها لا تجد مكانها هنا بصفة تامة ويمكن الرجوع إذن إلى هـ . بيريس H. Pérès، **بيبليوغرافيا حول حياة ابن خلدون وآثاره** Bibliographie sur la vie et l'oeuvre d'Ibn Kaldûn، في متفرقات ليفي دلافيدا Mélanges Levi Della Vida، II، 308 -

329 ، وإلى بيبليوغرافيا أحدث أنجزها و.ج. فيشال W.J.Fischel في نهاية المجلّد III من ترجمة المقدّمة التي قام بها فر.روزنتال Fr.Rosenthal نيويورك، 1958، 27 ص . على أنّه ينبغي التنويه بالدراسات والتآليف التّالية بصفة خاصّة : طه حسين، **دراسة تحليلية ونقدية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية** Etude analytique et critique de la [Philosophie sociale d'Ibn Khaldùn باريس1917؛ ج، بوتول G. Bouthoul، **ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية** Ibn Khaldoun , sa philosophie sociale، باريس، 1930؛ ن. شميت N.Schmidt، **ابن خلدون، مؤرخا وعالم اجتماع وفيلسوفا** [Ibn Khaldùn Historian, Sociologist and philosopher]، نيويورك؛ 1930؛ م.ع. عنان، **ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري**، القاهرة،1933(ط. جديدة مزيدة، القاهرة، 1965)؛ ر. برونشفيغ R. Brunschvig، تأليف ممتاز في **بلاد البربر الشرقية تحت حكم الحفصيّين** La Berbérie Orientale sous les Hafsides، باريس، II،1947، 385 ـ393 صدرت الترجمة العربيّة عن دار الغرب الإسلامي، في جزأين،1988 : حمادي الساحلي : تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي ؛ ش، إيساوي Ch. Issawy **فلسفة عربية للتاريخ** An Arab philosophy of history، لندن، 1950؛ س . الحصري، **دراسات عن مقدّمة ابن خلدون**، القاهرة، 1953؛ م . مهدي. **فلسفة التاريخ لدى ابن خلدون** Ibn Khaldùn 's philosophy of history لندن،1957.

ومنذ آخر ضبط بيبليوغرافي أنجزه و، ج، فيشال W. J. Fischel نشرت دراسات وتآليف أخرى. نذكر منها : أ.ا.ج.روزنتال E.I.J.Rosenthal، **الفكر السياسي في الإسلام الوسيط** Political thought in medieval Islam، كامبريدج،1958، الفصل IV، 84 ـ 113؛ نفسه، **الإسلام في الدولة الوطنية العصرية** Islam in the modern national state، كامبريدج، 1965، 16 ـ17 وما بعدها (**تأثير ابن خلدون في المفكرين المسلمين المعاصرين**)؛ هـ . سيمون H.Simon، Ibn Khaldùns Wissenchaft der menschlichen kultur، ليبزيغ ، 1959؛ س . م باسييفا S.M.Bacieva ، **حول العمل في فكر ابن خلدون** Sur le travail dans la pensée d'Ibn Khaldùn، في متفرقات أ. كراتشوفسكي Mélanges I.Krackovskij ، لينينغراد، 1958؛ و.ج. فيشال، **استعمال ابن خلدون للمصادر التاريخية** Ibn Khaldùn 's use of historical sources، في دراسات إسلامية S.I، XIV (1961)؛ نفسه،

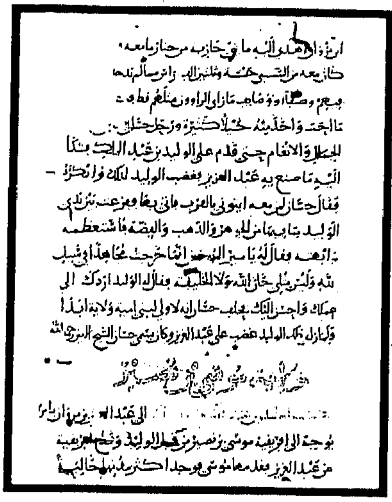
ابن خلدون في مصر، وظائفه العامة وبحثه التاريخـــي (1382-1406) Ibn khaldùn in Egypt .His public fonctions and historical research† بركــلي، 1967؛ جلنــر E.Gellner من ابـن خلـدون إلـى كـارل ماركـس. From ibn Khal-dùn to Karl Marx، فـي الربعيـات السياسية Political Quarterly، XXXII (1961)، 385 ـــ 392؛ خصّصـــــت الفـكر (تـونس)، عـدد مـارس 1961، لابن خلدون**؛ ع. بـدوي، مؤلّفـات ابن خلدون، القاهـرة، 1962؛ ع. الوردي، منطق ابن خلدون، القاهرة، 1962؛ أعمال مهرجان ابن خلدون، القاهرة، 1962؛ ر. والزر R.Walzer مظاهر من الفكر السياسي الإسلامي : الفارابي وابن خلدون Aspects of Islamic political thought : Al-Fàràbi and Ibn Kaldùn، في الشـرق Oriens، 1963، 40-60؛ جيتسوزو تامورا Jitsuzo Tamura، نظرات ابن خلدون الاقتصاديـة Les vues économiques d'Ibn Khaldùn (باليابانيــــة)، فــي أجيا كازاي Ajia Kazai، سبتمبر، 1963؛ ولفسون Wolfson] الفلسفة الدينية Religious Philosophy، جامعة هـارفارد Harvard، 1961، 177 - 195 (حول الصفات والقدر)؛ نـدوة الرّباط، ماي 1962، ط. دار الكتاب، الـدار البيضـاء؛ م . عطاء اللـه برهان، فكر ابن خلـدون الاقتصادي La Pensée économique d'Ibn Khaldùn، أطروحة جامعية، باريس، 1964؛ ن. نصار، شيخ ابن خلدون : الآبلي Le maître d'Ibn Khaldùn: al- Abili، في دراسات اسلاميـة S.I. XX (1964) 103 - 115؛ نفسه، فكر ابن خلدون الواقــعي La pensée réaliste d'Ibn Khaldùn، بــاريس، 1967؛ ج . هـــ. بوسكــــــي G.H.Bousquet نصـــوص المقدمـة الاجتماعية والاقتصادية 1375، 1379 Les textes sociol-ogiques de la Mukaddima باريـــس، 1965؛ ج. لابيكــا G.Labica، محاولة رســـم سوسيولوجيـــا الدّين لدى ابن خلدون Esquisse d'une soci-ologie de la religion chez Ibn Khaldùn فـــي الفكـــر La Pensée أكتوبـــــر 1965، العــــــــدد 123، 233؛ ر.أرنالدز R.Arnaldez] ، خواطر حول مقطع من مقدمة ابن خلدون Réflexions sur un passage de la Mukaddima d'Ibn Khaldùn، في متفرّقات ر. كروز Mélanges R.Crozet، بواتيي Poitiers، 1966، 1337 وما بعدهـا؛ إ. لاكوست Y.Lacoste، ابن خلـــــدون، نشأة التاريخ، مـاضي العالم الثالـــث Ibn Khaldùm, naissance de l'histoire, passé du tiers- monde باريس، 1966 (تأويل مـاركسي لامع، للرجـوع إليه بحذر، انظـر في الملحق الأدبي للتايمس Times، 8 أوت 1968، 853)؛ أ. أ. ميـــــــارس E.A.Myers، ابن خلدون رائـد « علـم جديد » Ibn Khaldùn, forerunner of new science، فــي العالم العربــي The Arab World، نيويورك، مارس 1966؛ م. الطالبي،

ابن خلدون ومعنى التاريخ Ibn Haldùn et le sens de l'histoire، في دراسات إسلامية S.I، XXVI (1967) 73 - 148؛ ف. مونتاي V.Monteil، في المجلّة التاريخية Revue Historique، أفريل - جوان 1967؛ محمد محمود ربيع، نظريّة ابن خلدون السياسية The political theory of Ibn Khaldùn ، ليدن Leyde 1967؛ج . بيالوسكي J. Bielawski، المظهر السوسيولوجي لآراء ابن خلدون حول «علوم اللّغة العربية» Aspect sociologique des opinions d'Ibn Haldùn sur les Sciences de la langue arabe أعمال المؤتمر الثالث للدّراسات العربيّة الإسلاميّة Atti del terzo congresso di studi arabi e islamici ، نابولي Naples، 1967؛ وحول تأثيره في تركيا، انظر ز. فهري فنديكوغلو Z. Fahri Findikoglu، Türkiye'de Ibn Haldunizm، في Fuad Köprülü Armagani، إسطمبول، 1953، 153- 163. وانظر كذلك بيرسون Pearson، الفهرس، 10897- 10923، الملحق ، 2872- 2887 الملحق ، II، 2796-2805

---

*صدرت ترجمة ف . مونتاي في 3 مجلّدات بيروت ، 1967 - 1968، ثمّ في باريس، 1978. (المترجم)،

وكذلك الحياة الثقافية (تونس) ، س V ، العدد 9، ماي - جوان 1980 (المترجم).



ابن الرّقيق

[توفي بعد 418هـ / 1028م]

ابن الرقيق، أو كذلك الرقيق أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الكاتب القيرواني، كان كاتبا للزيريين منذ ما يقارب ربع القرن حين كان ابن رشيق بصدد تأليف كتابه **العمدة**، وكان ابن الرقيق (توفي بعد 418هـ / 1027– 1028 م) خاصة أديبا و إخباريا بارعا. ويعترف ابن رشيق له بشيء من الموهبة الشعرية، على الرّغم من أن طريقته كانت خاصة طريقة الكتاب، واحتفظ لنا ياقوت (**معجم الأدباء**، ا، 217 ـ 226) بقطع طويلة من قصائده. وندين لنشاطه الأدبي كذلك بأثر بلغنا، هو **كتاب قطب السرور** (مخطوط باريس، المكتبة الوطنية، رقم 4829، 4830، 4831)، وبالنسبة إلى المخطوطات الأخرى، انظر بروكلمان Brockelmann، وقد خصّص لغرض الخمريات كما ازدهر في المشرق .

لكنّ ابن الرقيق، في نظرمعاصريه (انظر ابن رشيق، نقلا عن ياقوت، المذكور أعلاه، ا ، 216) وكذلك في نظر من أتوا بعده، يعتبر خاصة مؤرخا لا نظير له. ويعتبره ابن خلدون (**المقدمّة**، ط. بيروت 1956 ، 4) « مؤرخ افريقية والدّول التي كانت بالقيروان ». ويستحق ابن الرقيق هذه الشهرة بصفة واسعة. فقد كان كتابه **تاريخ افريقية والمغرب**، وهو في عدة أجزاء، عمدة أعمال ابن شدّاد، ابن الأثير (المتوفّى 630 هـ / 1233 م)، وابن الأبّار (المتوفّى 658 هـ /1260م)، والتجاني (المتوفّى بعد 708 هـ / 1308 م)، وخاصة ابن عذاري (حوالي 706 هـ / 1306 ـ 1307 م)،

والنويري (المتوفّ 732هـ / 1331_1332)، وابن خلدون (المتوفّ 808 هـ / 1405 ـــ 1406 م) والمقريزي (المتوفى 846 هـ / 1442 ـــ 1443 م). ويبدو أن السخاوي (**إعلان،** 122 [**توفي** 902 هـ / 1496 ـ 1497م]، والشمّاخي، وحتى الوزير السرّاج (**الحلل،** 289 وما بعدها) وكان يكتب سنة 1137هـ/ 1724_1725م)، ينقلون عنه مباشرة

إلاّ أنّ تاريخ ابن الرقيق، في أيامنا، يبقى في الواقع مفقودا، على الرغم من الإشارة بالانقطاع إلى وجوده في بعض المكتبات الخاصة بالبلاد التونسية. أما القطعة غير المنسوبة، من تاريخ المغرب، من حكم عقبة بن نافع الى عهد ابراهيم الأوّل، والتّي هي ناقصة الأول، منعدمة اللّصاق، وقد وقع اكتشافها في الرباط على يد السيد المنوني، ونشرها بتونس (1968) السيد الكعبي، ونسبها إلى ابن الرقيق، فصحّتها مشكوك فيها. ونسجّل أخيرا قصد الاستعمال الحسن للمقاطع المأخوذة من ابن الرقيق، أنّ أثره، على الرغم من أنّه مجموع أو مؤلف بكثير من الوعي والعناية، تطبعه ميول صاحبه الشيعية، وهو ما يبدو أن الجامعين الذين احتفظوا لنا بقطع مطوّلة منه قد نسوه أو أهملوه .

ويبدو أن ابن الرقيق، الذي قام سنة 388هـ / 998م. باسم الأمير الزيري باديس بمهمة ديبلوماسيّة لدى أمير مصر الحاكم، حسب قصيدة احتفظ بها ياقوت (المصدر المذكور أعلاه، ا، 222_224) قد أقام مدة طويلة بالقاهرة التي يتغنّى بملاذها في حنين أخّاذ. ونذكر ضمن آثاره التي لم تقع الإشارة إليها بعد : **كتاب النساء، والرّاح والارتياح، والأغاني، ونظم السلوك في مسامرات الملوك.**

البيبليوغرافيا : ذكر المصادر بروكلمان I. Brockelman، I، 161، الملحق ا، 252؛ آماري Amari **تاريخ مسلمي صقلية** Storia. ط. نلّينو Nallino، 1933، ا، 39؛ الزركلي **الأعلام،** ط. 2، ا، 51_52؛ هـ.ر. إدريس H.R.Idriss، **بلاد البربر الشرقية تحت حكم الزيريّين** Zirides، ا، XIV و II، 81_82. وأفضل نصّ يترجم لابن الرقيق هو نص ياقوت، **معجم الأدباء** ط. القاهرة، 1936، ا، 216_226.

وفي تاريخ ابن شداد(١) وذكر شدة ما انتهى اليه حال افريقية ايام استيلاء على بن اسحاق الميورقي عليها فقال : أخبرني أبو عبد الله محمد بن البراء المهدوي وقد وصل الى دمشق في هذه السنة يعني سنة اثنين وثمانين(٢) وخمسمائة قال فسألته من احوال افريقية فقال : هلك العباد وخرب البلاد ثم قال ، وسأخبرك ببعض ما تستدل به على الحال : لما نزل على بن اسحاق على منزل باشو من الجزيرة وهو على بعض يوم من تونس سأله أهله الامان فامنهم ودخل عسكره الى المنزل المذكور فانتهبوا جميع ما فيه وسلبوا أهله حتى ثيابهم التي تواريهم وامتدت أيدي العبيد وجفاة الاعراب الى البنات (٣) فاضطر أهله الى الفرار ففروا بأجمعهم الى تونس ونزلوا بين سوريها فدخل عليهم فصل الشتاء هنالك فأهلكهم البرد والماء ، واحصى من مات منهم بتونس فكانوا اثنى عشر الفا ، انتهى كلام ابن شداد

وفي مياومة الفاضل ابن البيساني(٤) أن الخبر وصلهم في جمادى الاخرى من سنة خمس وثمانين ان يحيى بن اسحاق الميورقي وأبا

ابن شدّاد

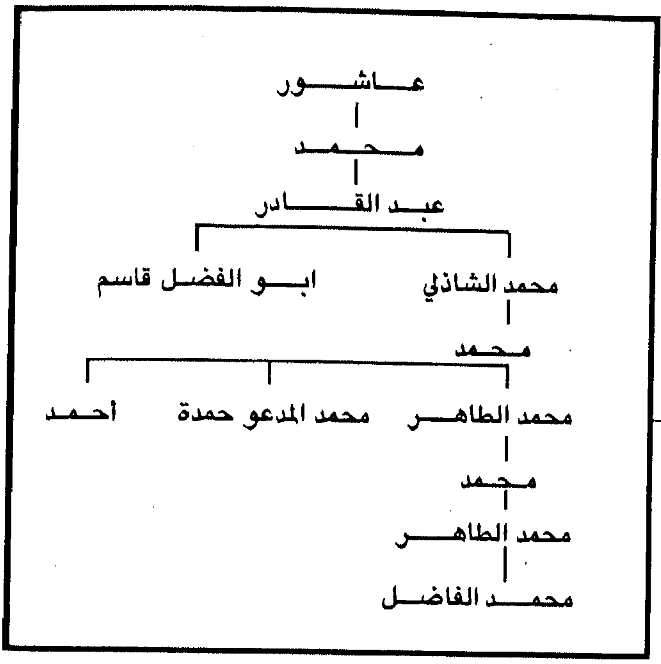
[توفي بعد 582 هـ / 1186 م]

ابن شدّاد، أبو محمد عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعزّ بن باديس (توفي بعد 582 هـ / 1186 م)، ويسمّى كذلك أحيانا أبا الغريب عزالدين الصنهاجي. إخباري من أصل زيري - فقد كان حفيد تميم (454-501هـ / 1062-1108 م) وابن أخي يحيى بن تميم (501-509 هـ / 1108-1116 م). عاش ابن شدّاد أولا في حاشية آخر أمراء المهديّة الزيريينّ، الحسن بن علي، ويبدو أنّه اتبعه، بعض الوقت على الأقل، لدى الأمير الموحّدي عبد المؤمن، لما قصده الحسن ملتمسا دعمه له. و يبدو أنه شَهِدَ بحضوره في بَلِرْم سنة 551 هـ / 1156-1157م. وفي النهاية، سافر إلى المشرق واستقرّ بدمَشق، وذلك على أكثر تقدير سنة 571 هـ/ 1175 - 1176 م؛ وكان ما يزال يعيش بها سنة 582 هـ / 1186م، وتمكّن من الحصول على شهادة أحد سكّان المهديّة حلّ في هذا التاريخ بمدينة دمشق، بخصوص أحداث إفريقية (التجاني، **الرحلة**، ط، تونس، 1958، 14).

استعمل تاريخه - واتجاهه مضادّ للشيعة (انظر المقريزي، **اتّعاظ**... ط. الشيّال، القاهرة، 1948، 47) - ويبدو أن عنوانه الكامل كان كتاب **الجمع والبيان في أخبار القيروان وفي من فيها وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيان**، ابن خلّكان وابن الأثير (**الكامل**، ط.القاهرة، 1938-1939، VI، 125)، والنويري، والمقريزي، والتجاني (**الرحلة** - تونس ، 1958 14-15، 341 - 347) وأبو الفداء. وينبغي أن نعتبر هذا التاريخ مفقودا

(الشيّال، مقدّمة ط. **اتّعاظ** .. المقريزي، ص. كاف) وأن ب. لويس B. Lewis (**أصول المذهب الإسماعيلي** The Origins of Ismà 'ilism ، كامبريدج 1940، 57) قد أشار خطأ الى مخطوطات عديدة منه في مصر وسوريا .

البيبليوغرافيا : أشار إلى المصادر بروكلمان Brockelmann، الملحق II، 575 ؛ آماري Amari، **تاريخ مسلمي صقليّة** Storia، ط، نلينو Nallino، 1933، I ، 40-41 (وانظر كذلك III 486)؛ هـ.ر. إدريس H.R.Idris [**بلاد البربر الشرقيّة تحت حكم الزّيريين** Zirides I ، ـ XVIII - XIX-



ابن عاشور
[أسرة]

ابن عاشور، أسرة تنتمي إلى الأدارسة، من أصل مغربي، استقرّت بإسبانيا المسلمة. يقال إن عاشور، الهارب للمحافظة على دينه، قدم إلى المغرب إثر ذلك واستقرّ به. ولد ابنه محمد بسلا (حوالي 1030هـ 1621م)، وبدأت الأسرة، مع محمد ابن عاشور في شقّ طريقها في التاريخ التونسي، في البداية عن طريق «التصوّف»، ثم عن طريق الفقه، والتعليم والخطط الدينية. برز محمد ابن عاشور، وقد أخذ « التصوّف » بالمغرب عن الشيخ محمد القشيري، في تونس بصفته شيخا لإحدى الطرق. وقد استقرّ بتونس، إثر عودته من الحج، وكان يبلغ حوالي الثلاثين سنة من عمره، وامتهن بها صنع الشواشي. وفي تونس، وقع في البداية تحت تأثير الشيخ علي الزواوي، وقد خلف هذا الشيخ عند وفاته، بصفته شيخا للطريقة في الزاوية التي تحمل اسمه، وكانت تقع في نواحي باب المنارة، أحد أبواب العاصمة، وقد اندثرت منذ بضع سنوات فقط. لكنّه اتبع في النهاية طريقة أبي الحسن الشاذلي.

وكان لمحمد بن عاشور موقف منكمش، وربما مُعاد، إزاء السلطة، وعاش حياة الفقر الشديد. وتنسب إليه هذه القولة التي لا تخلو من النبل « ما نحن ممن يذكر الله بالكراء والدراهم» (**ذيل**، 197).وعند موته (1110 هـ

/ 1698 ـ 1699م)، دفن في الزاوية التي ورثها عن شيخه علي الزواوي.

وخلفه ابنـه عبد القـادر، الذي بشّره به في الحلـم المتصوّف الشـهير، سمّي ابنه، بصفتـه شيخا للطريقـة. وكان أقل نفورا من أبيـه، وعاش في بعض اليسر.

وقد وصف فعلا بأنه شيخ طريقـة ميسور الحال يتمتع بنوع من السلطة المعنويـة التي يضعها في خـدمة جميع الـذين يطلبون حمايتـه، بما في ذلك الذمّيـون من اليهود والنّصـارى. ولم يكن الـدراويش القادمـون على حدّ السواء من الهند ومن الشرق يحجمون أبدا عن طرق بابه. ولمّا كان حسين خوجة بصدد تأليف كتابه **الذّيل** كان ابن عاشور على قيد الحياة.

وبدأت العـائلة، بأبناء أحفـاده، أحمد (المتوفّى 1255 هـ / 1839 م)، ومحمـد المدعو حمدة (المتوفّى 1265 هـ / 1849م)، وخاصة محمد الطـاهر (المتوفّى 1284 هـ / 1868 م)، تبرز في ميدان العلـوم الإسلامية. فـدرّس أحمد بجامع الزيتونة الأكبر النحو والفقه. وشغل مهنة عدل موثق، ودفـــن عند موته في الزاوية الموروثة عن الشيخ علي الـزواوي. وتعاطى محمد المدعـو حمدة أيضا التـدريس. ولمّـا عيّنه البـاي أبو العباس أحمـــد (1253ـ1271هـ / 1837 ـ 1854 م)، من غير رغبتـه، قـاضيـا للجيـوش، لجأ إلى الـوزيـر مصطفى خزندار ليراجع الباي قراره. ودفن هو أيضا في زاوية سيدي علي الزواوي التي يبدو أنها تحوّلت إلى مقبرة للأسرة .

وكان محمـد الطاهـر أشهر الإخوة الثـلاثة، فبرز في نفس الـوقت بصفته أديبا ـ وقد احتفظ بنماذج عديدة من نثره وشعره ـ ونحويًا وفقيها. وله **حاشية على شرح القطر** (وهو أثر بقي أساسا للسنة الثانية من التعليم الزيتوني إلى إصـلاح سنة 1958)، **وتلخيص لشرح ابن مـرزوق لبردة البوصيري**. وعينّ في 25 رجب 1267هـ / 26 ماي 1851م، قاضيا أكبر لتونس، وهي خطة تركها سنة 1277 هـ/ 1860 ـ 1861م. ليشغل خطـة الإفتاء. وجمع، بعيـد ذلك، بينها وبين نقابـة الأشراف. وتوفي في 21 ذي الحجّة 1284 هـ / 14 أفريل 1868م، ودفن في نفس الزاوية التي دفن فيها أخواه .

وتواصلت تقاليد الأسرة في شخص حفيده، المسمّى كذلك محمد الطاهـــر (المولود في 1296 هـ / 1879 م) [انظر الفصل المخصـص له في «دامت»] وفي شخص ابن حفيده محمد الفاضل .

البيبليوغرافيا: حسين خوجة، **الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان**، تونس 1908، 192 ـ 199؛ محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النـور الزكية في طبقات المالكيـة**، القاهرة، 1349 / 1930، I ، 392 ، الرقم 1565؛ أحمد بن أبي الضيـاف، **إتحاف أهل الزمان**، تونس، 1966، VIII ، الأرقام 243 ، 283 ، 394 ؛ **التاريخ الباشي**، مخطوط دار الكتـب الـوطنية التونسية، رقم 1794 ، 316 ؛ الوزير السراج، **الحلل السندسيـة**، مخطوط تونس، الأحمدية (الـزيتونة)، رقم 6205، و : 98- 99؛ محمد النيفـر، **عنوان الأريب**، تونس، 1351 / 1932 ، 122-127؛ محمـــد البهلي النيّـــال، **الحقيقـة التـاريخية للتصـــوّف الإسلامي**،تــونس 1965، 306- 307.

الكاهنة فكتب خالد بن يزيد الى حسان كتابا وجعله في خبزة ملة ثم دفعها الى الرسول ليحقق فيها الكتاب وليظن من رأى الخبزة انها زاد الرجل فخرجت الكاهنة وهي تقول يا بني هلاككم فيما تأكله الناس فكررت ذلك ومضى الرسول حتى قدم على حسان بالكتاب فيه علم ما يحتاج اليه. ثم كتب اليه ايضا كتابا آخر وجعله في قربوس حفره ووضع الكتاب فيه واطبق عليه حتى استوى وخفي مكانه فخرجت الكاهنة ايضا وهي تقول يا بني هلاككم في شيء من نبات الارض ميت فكررت ذلك ومضى حتى قدم على حسان فندب اصحابه ثم غزاها فلما توجه اليها خرجت ناشرة شعرها فقالت يا بني انظروا ما ذا ترون في السماء قالوا نرى شيئا من سحاب احمر قالت لا والهي ولكنها رهج خيل العرب ثم قالت لخالد بن يزيد اني انما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم أنا مقتولة فاوصيك بأخويك هذين خيرا فقال خالد اني اخاف ان كان ما تقولين حقا ألا يستبقيا قالت بلى ويكون احدهما عند العرب اعظم شأنا منه اليوم فانطلق فخذ لهما امانا فانطلق خالد فلقي حسان فاخبره خبرها واخذ لابنيها امانا؛ وكان مع حسان جماعة من البربر من البتر فولى عليهم حسان الاكبر من ابني الكاهنة وقربه.

ومضى حسان ومن معه فلقي الكاهنة في اصل جبل فقتلت وعامة من معها فسميت بئر الكاهنة. وكان مقتل الكاهنة....

قال ثم رجع الى حديث عثمان وغيره قال ثم انصرف حسان فنزل موضع

حسّان بن النعمان الغسّاني

[توفي بعد80 هـ/699ـ 700 م]

حسّان بن النعمان الغسّاني، قائد أموي لعب دورا حاسما في دعم غزو إفريقية باحتلال قرطاج والتغلّب في النهاية على الكاهنة [انظر الفصل المخصص لها في « دامت »]. إلاّ أننا نصطدم في تتبع أعماله، بقلة الضبط الزمني، وبعديد التناقضات. والتواريخ المقدمة لوصوله إلى افريقية هي : محرم 68/ جويلية ـ أوت 687/69، 688ـ689/ 73، 692 - 693/ 74، 693 - 694/ 78، 697ـ698، ولعزله :76/ 695، 696/77، 696، 697/ 78، 697ـ698/ 79، 698 ـ 699/ 82، 701 ـ 702/ 84، 703 ـ 704/ 89 هـ/ 707ـ 708 م. والتاريخ الزمني الذي أثبته أقدم الإخباريين أي ابن عبد الحكم وابن قتيبة المنحول، والذي أكدّه ابن عساكر، هو التاريخ الأقرب إلى المعقول. فهو يتماشى والتتابع المنطقي للأحداث ويسمح بتجنّب التناقضات .

لقي زهير بن قيس البلوي [انظر الفصل المخصص له] حتفه سنة 69هـ/ 688 ـ 689 م، وهو يقاتل الرّوم بعد انسحابه من إفريقية. ولم يتمكن عبد الملك بن مروان المشغول بصراعه للخليفة ـ المضاد عبد الله بن الزبير، من أن يعوّضه على الفور بخلف. ولكن، سنة 73 هـ / 692 - 693 م، هزم ابن الزبير وقتل، واستؤنفت الحرب مع البيزنطيين . وهكذا فهذا التاريخ هو بلا شكّ الذي أرسل فيه حسان مع جيش قوي لإعادة غزو إفريقية. وبعد أن استولى على قرطاج واجتاحها، وركب سكّانها البحر إلى صقليّة، طارد الروم وحلفاءهم البربر في جهة

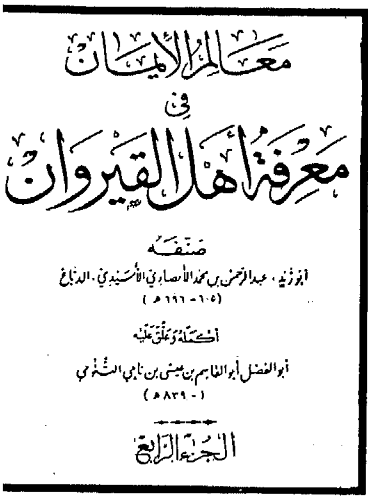
بنزرت. وبعد أن قهرهم من جديد، قذف بالرّوم إلى باجة (= فاقا vaga) حيث تحصّنوا، وبالبربر إلى بونة. وإثر توقفه بالقيروان، سار لقتل الكاهنة. وجانب قلعة المجانة دون مهاجمتها وذهب ليتعرّض إلى انكسار كامل على ضفاف المسكيانة. واضطر وقد طورد والسيف يتهدده إلى قابس، إلى الانسحاب من إفريقية، وذهب لينتظر أوامر الخليفة بقصور حسّان، على أربع مراحل شرقي طرابلس، وقد سميّت كذلك للتذكير به.

وقد سبب سقوط قرطاج انفعالا كبيرا ببيزنطة. فأرسل الامبراطور ليونتيوس Léontius الذي أطاح بجوستنيان الثاني Justinien II سنة 695 م، البطريق جان Jean مع أسطول قوي لاستعادة المدينة، وذلك بالتأكيد بعد جلاء حسّان عن إفريقية. وقد بقي حسّان ثلاث سنوات في البلاد الطرابلسيّة. ثم عاد إلى الهجوم بجيش جديد، سنة 78 هـ / 697 ــ 698 م. حسب المرجح، وبدعم من بعض جماعات البربر الغاضبين من سياسة الكاهنة. وهُزمت الكاهنة ولقيت حتفها في المعركة. ثم وقع الاستيلاء، من جديد، على قرطاج التي أخليت في الوقت المناسب من المدافعين عنها، وتمّ اجتياحها. وعاد حسّان بعد أن عزله عبد العزيز بن مروان ــ شقيق الخليفة وحاكم مصر ـ وعوّضه بمولاه موسى بن نصير (صفر 79/ أفريل ـ ماي 698) إلى المشرق. وعند مروره بمصر، وقع افتكاك جميع الغنائم التي جمعها بإفريقية منه. وتوفيّ وهو يحارب الرّوم سنة 80 هـ / 699ـ 700م.

وتسجّل حملات حسّان الدعم النهائي للغزو العربي. ويعودإليه فضل تأسيس دار الصناعة [انظر الفصل المخصص لها] بتونس، بأمر الخليفة المهتم بتكوين أسطول قوي، وإعادة بناء الجامع الكبير بالقيروان بمواد أمتن. وقد حاول أيضا، وهو يقلّد في ذلك الجهد المبذول آنذاك في المشرق، أن يجهز إفريقية بإدارة ناجعة، ولكي يضمن محالفة البربر وولاءهم، جعلهم يشاركون في الفيء، وبصفة خاصة في تقسيم الأراضي.

البيبليوغرافيا : ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية**، نشر وترجمة أ.غاتو A.Gateau، الجزائر، 1948، 76ـ87 ، والهامش 97؛ اليعقوبي، **تاريخ**، بيروت، 1960، II،277 ؛ البلاذري، **فتوح**، القاهرة، 1932، 231؛ ابن قتيبة (منحول)، **كتاب الإمامة والسياسة**، القاهرة، 1904، 97،

102 (وحول هذا الأثر، انظر هـ . بيريس H. Pérès، كتاب الإمامة Le... Kitab al- Imàma في كراسات تونس C.T.، 1934، 317 — 335) ؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، 1332، IV، 146-147؛ ابن الأثير الكامل، القاهرة، 1357، IV، 146 — 147 ؛ ابن الأبّار ، الحلة، تحـ . م .ج . مولر M.J.Müller ، في دراسات في تاريخ المغرب العربي Beïträge zur Geschichte der Westlichen Araber ، مونيخ 1878، 253 ، (تحـ. حسين مؤنس، القاهرة، 1963، I 164، II 331 - 332)؛ ابن عذاري ، البيان، تحـ. كولان وليفي بروفنسال Colin et Lévi- Provençal ، ليدن Leyde، 1948، I ، 34-39؛ النويري، ملحق بتاريخ البربر L'Histoire des Berbères، ترجمة دي سلان De Slane ، باريس ، 1925، I 338 — 343، ابن خلدون، العبر، بيروت 1958 ، I، 453 — 454، IV ، 401 ؛ ابن خرداذبه، المسالك، نشر وترجمة الحاج صادق ،الجزائر، 1949، 5، والهامش 45 ؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، نشر وترجمة ش. بلاّ Ch. Pellat ، الجزائر، 1950، 63 ؛ البكري ، المسالك، ترجمة دي سلان De Slane 22 - 23، 52، 82 - 85 الإدريسي، نزهة، تحـ. هـ. بيريس H. Pérès ، الجزائر، 1957، 90 ؛ التجاني ، الرحلة، تحـ . ح .ح . عبد الوهاب، تونس ، 1960، 249 ؛ المالكي، رياض، تحـ . ح . مؤنس، القاهرة 1951، 31 — 38 ؛ ابن ناجي، معالم I، 54 ، 63 ؛ م. آماري M.Amari، تاريخ مسلمي صقلية Storia dei musulman di Sicilia 1854 - 1872، I، 118 - 121 ؛ ش كورتوا Ch. Courtois ذخائر قرطاجنية وأسطورة كارولنجية Reliques carthaginoises et légende carolingienne . في المجلة التاريخية Revue Historique 1946 ، 69 ؛ ش، ديل [Ch.Diehl] افريقيا البيزنطية l'Afrique Byzantine، باريس، 1896، 581 - 587؛ هـ فورنال H. Fournel ؛ البربر Les Berbers باريس، 1875، 1881- I، 207 - 224 أ ـ ف، غوتيي E.F.Gautier، ماضي إفريقيا الشمالية Le passé de l'Afrique du Nord، باريس، 1952، 270 - 272.



الدبّــاغ

[605 ـ 699 هـ / 1208 ـ 1300م]

الدبّاغ، هـو أبـو زيـد عبـد الـرحمان بن محمـد بن علي بـن عبـد اللّـه الأنصـاري الأُسيـدي. ولد سنة 605 هـ / 1208 م. وتـوفّي في سنـة 699 هـ/ 1300م. وكان حسـب قول العبـدري ـ الذي أدلى بشهادة عيان لوطَر كان يقضيه بـدون شكّ ـ فريـد عصـره بين علمـاء القيـروان. وإذا ما اعتمدنا الخبر الذي يقول إنّه مدين بلقب الدبّاغ لتنكّر جدّ أبيه في زيّ دبّاغ جلود قصد الإفلات من مهام القضاء، فـإنّه يكون منتسبا إلى أسرة عريقة من فقهاء القيروان. وقد كـان العبدري، الذي زاره في سنة 688 هـ / 1289م. وحصل منه على إجازة عـامة في كلّ تآليفه، يُثني على كـرمه وحسن هيئته وطيب معاشرته وصفـاء ذهنه وسعة معارفه. فقـد كان متضلّعا في جميع العلوم الإسلاميـة التقليدية، وكان يقـرض الشعر، وكان متقدّمـا في علوم الحديث. وقـد أخـذ عن كثـرة من الشيـوخ (يـزيـدون على الثمانين). وخصّـهم ـ على سنّة عصره ـ ب « بـرنامج » أو دليل لم يصل إلينا. وألّف مصنّفا في الحديث سماّه **كتاب الأحاديـث الأربعين في عموم رحمة اللّه لسائر العالمين**، وكتابا في التاريخ بعنوان **تاريخ ملوك الإسلام**، وكتابا في المناقب سماه « **جلاء الأبصار في منـاقب الأنصار** ». ولم يصل إلينا أيّ واحد من هذه المؤلفات. لكنّ شهـرة الدبـّاغ تعود إلى كتاب **الطبقات** الذي خصّ به العلماء والأوليـاء الصالحين الذيـن عاشوا بـالقيروان أو زاروها. وقد رتّبه ترتيبـا يعتمد التدرّج الزمني لتواريخ الوفيـات. وقد كان عنوان هذا الكتـاب فيما ذكره العبـدري **معالم الإيمان وروضـة الرضـوان في**

مناقب المشهورين من صلحاء القيروان. وهو يتألّف من مجلّدين وكان الدبّاغ يقتبس كثيرا من مؤلفات سابقة، ولاسيّما **طبقات** أبي العرب **ورياض النفوس** للمالكي. وقد جرت مراجعة كتاب الدبّاغ بدوره والتوسّع فيه من قبل إبراهيم العوّاني (المتوفّى حوالي سنة 719هـ / 1320م). أوّلا، ثمّ وبالخصوص من قبل قيرواني آخر وهو ابن ناجي الذي أكمل الكتاب بإضافة أخبار حياة علماء عصره و بالتدخّل في ثنايا النصوص التي سبقته بزيادة ملاحظاته الشخصيّة التي يستهلّها في الغالب بفعل «قلتُ» . وبذلك فإنّ مصنّف الدبّاغ لم يصل إلينا إلاّ في هذا الشكل النهائي — أربعة المجلّدات — الذي صاغه فيه ابن ناجي بعنوان **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**. وهذا الكتاب هو في الحقيقة مؤلّف جماعي يحيي أمام أنظارنا - بواسطة النوادر والأخبار والعبر المقدّمة في شكل طبقات متتالية - عالم الصلاّح والفقه الشديد التنوّع .

وكانت الطبعة المنشورة بتونس (سنة 1320 - 1325 هـ) كثيرة الضعف والرداءة. وقد أعاد طبع الكتاب بأسلوب أقرب إلى الطريقة النقدية الأستاذ إبراهيم شبوح (مجلّد I القاهرة، 1968). لكنّ هذه الطبعة وقفت عند حدّ هذا الجزء الأوّل. ويبدو أنه ليس من المتوقّع صدور بقيّة الأجزاء .

وقام الأستاذ محمد الحبيب الهيلة من جهته بوضع فهارس مفيدة جدّا، غير أنها بقيت من سوء الحظّ مسحوبة بالآلة الراقنة وقليلة الانتشار.

وينبغي أن نضيف أنّ الدبّاغ قد دفن بالقيروان بجوار باب تونس في تربة أجداده التي كان يطلق عليها اسم سلسلة الذهب. وقد كان فعلا سليل أسرة من مشاهير الأنصار.

المراجع: العبدري، **الرحلة المغربيّة**. تحـ. م. الفاسي، الرباط، 1968، ص 66-72: ابن ناجي، **المعالم**. ج IV: ص89- 92، الوزير السرّاج، **الحُلل**، تحـ. م.ح. الهيلة، تونس ، 1970، ج I ، ص 262 — 270 (ينقل بالخصوص ما كتبه العبدري): ر.برانشفيك. **الدولة الحفصيّة**، باريس، 1947، ج II ، ص 382-383.

> وبها عسكر كسيلة بن لمزم فبا زهير لقتاله وخرج اليه فاقتتلا فقتل كسيلة ومن معه ثم انصرف زهير قافلا الى برقة. ويقال بل حسان بن النعمان الذى كان وجه زهير بن قيس والله اعلم. وكان مقتل كسيلة كما حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سعد فى سنة أربع وستين.
>
> حسان بن النعمان. ــ ثم قدم حسان بن النعمان واليا على المغرب امره عليها عبد الملك بن مروان فى سنة ثلث وسبعين فمضى فى جيش كبير حتى نزل اطرابلس واجتمع اليه بها من كان خرج من افريقية واطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن ابى بكير وهلال بن ثروان اللواتى وزهير بن قيس ففتح البلاد واصاب غنائم كثيرة. وخرج الى مدينة قرطاجنة وفيها الروم فلم يصب فيها الا قليلا من متاعهم. فانصرف وغزا الكاهنة وهى اذ ذاك ملكة البربر وقد غلبت على جل افريقية فلقيهما على نهر يسمى اليوم نهر البلاء فاقتتلوا قتالا شديدا فهزمته وقتلت من اصحابه واسرت منهم ثمانين رجلا واقلت حسان ونفذ من مكانه الى انطابلس فنزل قصوراً من حيز برقة فسميت قصور حسان واستخلف على افريقية ابا صالح وكانت انطابلس ولوبية ومراقية الى حد اجدابية من عمل حسان.
>
> فاحسنت الكاهنة إسار من اسرت من أصحابه وارسلتهم الا رجلا منهم من بنى عبس يقال له خالد بن يزيد فتبنته واقام معها. فبعث حسان الى خالد رجلا فاتاه فقال له إن حسان يقول لك ما يمنعك من الكتاب الينا بخبر

الكاهنة

[القرن الاول هـ / السابع م]

كانت **الكاهنة** في مواجهة حسّان بن النّعمان [انظر الفصل المخصّص له في دامت]، روح المقاومة البربرية للغازين العرب، إثر انهيار سلطة الروم الرسميّة المسجّل بسقوط قرطاج (73 هـ/ 692- 693م) .

وشخصيتها الحقيقية ـ وينبغي أن تكون إلى ما نذكر كثيرة التعقّد ـ يعسر حصرها لاسيما أنه لا يمكننا الحصول من ملامحها الحقيقية إلاّ على الانعكاس المحرّف عبر زجاج الأسطورة. فماذا نعلم عن حياتها الخاصة ؟ إن الاتفاق لم يحصل حتى على اسمها الحقيقي، إذ أنّ الكاهنة ليس سوى لقب أطلقه عليها العرب. فيبدو أنها سميّت دَهْيَة ـ ويذكر ابن خلدون (ترجمة دي سلان De Slane، **البربر** Berbères، I، 172) قبيلة بربرية تعرف كذلك بهذا الاسم ـ ويمكن ألاّ تكون دَهْيَا، أو دَمْية، أو دَامِيَة أو دَاهيَة، أو دَحْيَة سوى اختلافات في الرسم ويسجل نفس التردّد في شأن نسبها، فيبدو أنها ابنة تاتيت، أو كذلك مَاتيَا (« ماتياس، ماتيو Mathias, Mathieu ابن تيفان « تيوفَان Téophane .) فهل تكون الكاهنة من هؤلاء البربر ذوي الدّم المختلط، الناشئين عن زيجات مختلطة ؟ وقد يساعد ذلك على تفسير النفوذ الذي كان لها لاعلى مواطنيها وحدهم بل وعلى البيزنطيّين أيضا. وهذا الافتراض معقول لا سيما أن عددا من العلامات الأخرى تؤكّده. فقد تزوّجت الكاهنة نفسها ــ فيما يبدو ـ يونانيّا. وكان لها بالفعل، كما يؤكّد لنا، ابنان : أحدهما بربريّ النسب، والثاني من أب يوناني. وكانت أيضا، على عكس ما ظنّ، مسيحية العقيدة

لا يهوديتهـا. ومن المؤكد أن قبيلتهـا جـراوة، وهـي فـرع من زناتـة التي ترتبط بدورها بالبُـترذوي المعيشة البدويـة والرعوية خاصة، قد اعتنقت في البداية اليهودية، لكنّها تحوّلت، فيما بعد، مثل قبائل أخرى كثيرة، ومن ضمنها نفـوسة مثلاً، إلى المسيحيـة. وحين دخلت الكاهنـة ركح التاريـخ، كانـــت أرملة ومتقدمـــة في السنّ جـدّا بالتأكيد. و تمنحها الأسطورة 127 سنة من العمـر ،قضت منها 35 ملكة على الأوراس حيث كانـــــت قـــد تأسّست بعـــد مـــــنذ سنة 477 م بفضل ثـورة مظفّرة على الونـــدال، مملكـــة بـربرية مستقلة أولى يحكمهـا يابداس Iabdas . وكانت، مثـل هذه «الملكات العربيات »اللأئي يذكرهن ت . فهد (**الكهانة العربيـة** La Divina-tion arabe، 98) بلا شكّ « مجذوبـة » . وفي وقت الوحي، كـانت تدخل في انفعال كبير، وتنفش شعـرها وتدقّ على صـــدرها. وهكذا كـانت تستخدم أيضا تقنيـات أكثر كـلاسيكية في ميـدان الكهانة، مثـل قراءة المستقبل في الحصى ،ولا شك أنها تدين بقسـم كبير من نفوذها إلى مواهبها التنبّؤية .

وقد رفعت الكاهنة القفّاز الـذي ألقاه كُسَيْلة [انظر الفصل المخصّص له في «دامت]- وكان جنّـد خاصة البرانس الحضريّين. وفي مرحلة أولى تمّ لها النصر. وبعد أن انتزع حسّان بـــن النعمان [انظر الفصل المخصص له] قرطاج ودمّر القوات البيزنطيّة المنظمة، توجّه نحو الأوراس، قلعة المقاومة البربريـة. وبعد أن جمع قواتــه على ضفاف المسكيانـة، انطلق في الهجوم. وفعلت الكـاهنـة مثلـه، بعـد أن دمّـرت بجـايـة، وكـانت حسب المرجح، عاصمتهـا، رغبة في منعها من السقوط المحتمل في أيـدي المعتدين. ودارت الموقعة الحاسمـة على ضفتي وادي نيني، غير بعيد دون شكّ عـن المحطة التي تحمل نفس الاسم والتي تـوجد اليـوم على 16 كلم جنـوبي عين بيدة على السكة الحديـدية المؤدية إلى خنشلة. وكـانت المعركة نكبـة على حسان حتى أن الوادي الذي شـهدها لم يسمّ لدى العرب، ولمدة طويلة سـوى نهر البلاء، أو كذلك، ولأسباب أقل قابلية للتفسير، وادي العذارى. وعرفت هذه الحملة المشؤومة بالنسبة إلى حسّـان نهايتها في أرض قابس خلال معركة أخيرة ألقت بالغازين خارج إفريقية .

وتلقّى حسّـان الأمر بـالتوقّـف عن الانسحاب على أربعـة مـراحل شرقي طرابلس حيـــث أقام معسكـــــره (قصـور حسان) وانتظر ساعته. ووسعـــــت الكاهنـــــة فـــي سيطرتها، لكنّها لم تمدّ نفوذها بلا شكّ مثلما تؤكـّده بعض المصـادر (ابـــن عـــذاري، **البيـــان** ،I، 36، النويـــري، **نهاية**، دي سلان De Slane، **البربر** Berbères ، I، 340) إلى كامل المغرب، ولا

حتى إلى كامل إفريقية . وعاملت الأسرى العرب معاملة حسنة وتبنّت من بينهم، بفضل طقس الإرضاع المصطنع البربري، قائدا ذا نفوذ، هو خالد بن يزيد - ويسمّى كذلك يزيد بن خالد - وينسب إليه دور التجسّس لصالح حسّان. فهل كانت ترغب في إحداث علاقات طيّبة مع العرب ، وحملهم على التخلّي عن مراميهم التي كانت بلا شكّ مطلّعة عليها بوسائل أجدى من الكهانة، و من المرجح أنّ فشل هذه السياسة هو الذي حملها بعد استنفاد جميع الوسائل على اتخاذ قرار جذري ثقيل العواقب : تخريب البلاد، متبعة في الجملة، أمام عدوّ عنيد، طريقة « الأرض المحروقة» وكانت بعد، سنة 539 ، طريقة سليمان في مواجهة الملك يابداس Iabdas المتحصّن في الأوراس (ش .ا . ديفورك Ch.E.Dufourcq، **بلاد البربر وايبريا** ... Berbérie et Ibérie، في المجلّة التاريخية Revue Historique، الكراس 488 ص. 300، وينقل عن بروكوب Procope. وقد سبّب هذا التخريب مناقشات طويلة. وينكره بعض المؤرخين العصريّين. كما أن الإخباريّين العرب بالغوا فيه بلا حدّ. وفي الواقع، يبدو أنه لا يمكننا بصفة معقولة إنكاره، ولا إعطاؤه أبعاد كارثة حقيقية. ولم يكن يتعدّى بلاريب إطار بعض المناطق من إفريقية، لكنّه رغم ذلك كان هاما إلى درجة تكفي لإغضاب أقسام واسعة من السكان الحضريّين، فحين لم يبحث هؤلاء السكان عن ملجإ في الجزرالمتوسطية، وحتى إسبانيا، رضخوا لالتماس تدخّل حسّان . وغزا حسّان الذي كان مطلعا على تطور الوضع وقد تلقّى مددا، من جديد إفريقية، سنة 78 هـ / 697 - 698 م (التاريخ غير ثابت)، وفي هذه المرة دون شكّ بدعم بعض الفرق البربرية الغاضبة من سياسة الكاهنة. ومن ذلك الحين، لم يبق للأهالي قضية مشتركة. وبدأت ريح الهزيمة من ذلك الوقت بالتأكيد تهب على الأوراس، وهذه الريح بلا شكّ عند تخلّلها لشعر الكاهنة المنشور في شطحتها، قد أوحت إليها، وهي فريسة الاضطراب والعصبية تلك التنبّؤات المنذرة التي لم تكن سوى إنذارات يائسة، والتي نقلت لنا باعتبارها من الوحي.ووقع الصدام الأول في جهة قابس، ولم يكن مواتيا للكاهنة. وهنا ينبغي أن نضع منطقيّا الواقعة المأساوية، التي تبدو غير معقولة ولكنّها حقيقية حسب المرجح، وتقدم لنا « الملكة »، وقد أصبحت واثقة من هلاكها، تنصح أبناءها بتغيير المعسكر في الوقت المناسب. وأسرعت، هي نفسها، وقد تعقبها حسّان، للّجوء إلى جبال الأوراس. ودارت المعركة الأخيرة في مكان يسميه المالكي (**رياض**، 36،I) طرفة، وليست طبرقة - ويثبتهاالبكري (**المسالك** ،

57 ، الترجمة 121)، وابن ناجي (**معالم** ، I، 61) وابن أبي دينار (**المؤنس**، 35) – بدون أدنى شكّ سوى تحريف في الرسم. وفي هذا الموضع ، أي على الأرجح في مخرج جبل نشار على بعد ما يقارب 50 كلم شمالي تُبنة، خاضت الكاهنة معركتها الأخيرة في تلاحم ظنّه الطرفان، كما أثبت لنا، تلاحم الإفناء، قبل أن تسقط قتيلة بجانب بئر سُمّيت طويلا باسمها. إنّ عزم الكاهنة وحزمها قدأثرا أيما تأثير،ويرى فيها بعض المؤرّخين المحدثين نوعا من جان دارك Jeanne d'Arc بربرية (دو لارتيغ de Lartigues، دراسة أحادية monographie، 182) .

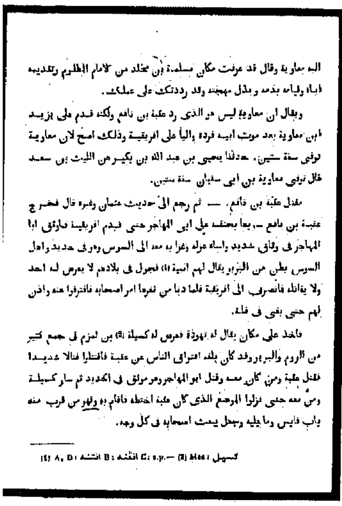
البيبليوغرافيا - المصادر (حسب الترتيب التاريخي) :

ابن عبد الحكم، **فتوح**، تحـ . وترجمة أ. غاتو A.Gateau، الجزائر، 1948، 76– 78 ؛ البلاذري، **فتوح**، تحـ. رضوان محمد رضوان، القاهرة، 1932، 231؛ المالكي **رياض**، تحـ. ح. مؤنس، القاهرة، 1951، I، 32–36؛ البكري **المسالك**، تحـ. وترجمة دي سلان De Slane، باريس 2 1965، النص 87 ، 20 ، 31 ، 57 ، 145 ، 182 ، الترجمة 22، 23– 48، 69، 121، 277، 340: ابن الأثير، **الكامل**، القاهرة، 1357 / 1938– 1939 31– 33 ؛ ياقوت، في نيني ؛ عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، **فتح العرب للمغرب**، تحـ. أليفي بروفنسال E.Levi Provençal ، في مجلة RIEEI، مدريد، 1954، II ، 222– 223(الترجمة في أرابيكا Arabica 40 41؛) ابن الرقيق (منسوب اليه)، **تاريخ**، تحـ. م. الكعبي، تونس 1968 ، 55 – 64 ؛ ابن عذاري، **البيان**، تحـ. ج. س. كولان G.S.Colin و أ. ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal، ليدن Leyde، 1948، I، 35– 38 ؛ التجاني، **الرحلة**، تونس، 1958 ، 58 ؛ النويري، **نهاية** ، ترجمة دي سلان DeSlane في البربر Berbères ، الجزائر، 1852، I، 340 342؛ ابن خلدون، **العبر**، بيروت 1959 ، VI 214، 218 – 219 ، VII، 17–18(ترجمة دي سلان De Slane **البربر** Berbères، I ، 208 209 ، 213– 215؛ ابن ناجي، **معالم**، تونس 1902، I، 55 ؛ ابن أبي دينار، **المؤنس**، تونس، 1967 ، 21 ، 34 – 35 الوزير السرّاج، **الحلل**، تحـم. ح. الهيلة، تونس، 1970، I، 533 – 537 ؛ المولى أحمد، **الرحلة**، فاس د.ت ،. 48 – 51 (ترجمة بربروجر Berbrugger رحلات Voyages، باريس،

1846، 234-241؛ الورثيلاني، نزهــــة، الجزائــــر، 1326/ 1908، 101- 104؛ ابـــن أبي الضيـــــاف، إتحاف، تـونس، 1963، I، 82 - 83؛ النصيري، استقصاء، الرباط، 2/ 1954I، 82-83.

الدراســـات الحديثـة : م ، دلاّركــــي M.Dall'Arche، اختفــــاء المسيحـــية وانتشــار الإســـلام فــــي إفريقيـــا الشماليـــة Scom-parsa del Cristianesmo ed espansione dell Islam nell Africa Settentrionale رومــــا، 1967، 125 - 132؛ س. و. بـــارون S.W.Baron تاريـــخ اجتماعـــي وديني لليهــــــود A Social and religious history of the Jews، الترجمـــة الفرنسيـــة، باريـــس، 1961، III، 107 و 323 - 324؛ ش. ا - ديفـــــوركQ Ch. E. Dufourcq، بــــلاد البربـــر وإيبيريـــا فـــي القــــرون الوسطى : مشكل قطيعـــة Berbérie et Ibérie médiévales : un problème de rupture فــــي المجـــة التاريخيـــة Revue Historique باريس، 1968، الكراس 488، 297 - 302، 311؛ هـــ . فورنــــال H.Fournel، البربـــر Berbers، باريـــس، 1875- 1881، I، 215- 225؛ ماسكـوراي Masqueray، تقاليـد الأوراس Traditions de l'Aurès، في. نشـرة الاتصـال الإفريقـــي Bulletin de Correspondance Africaine، 1885 / 1 -2، 80 - 83؛ ا مرســـيي E.Mercier، تاريـــخ إفريقيـــا الشماليـــة Hist.de l'Afrique Septentrionale باريـــــس، 1888I، 212- 216؛ دو لارتيــــغ de Lartigues، دراسة أحادية للأوراس Monographie de l'Aurès، قسنطينـة، 1904، 182؛ أ. ف . غوتيي E.F.Gautier، ماضي إفريقيا الشماليـة Le passé de l'Afrique du Nord، باريـــس، 1952، 270- 280؛ ج . مارســـي G.Marçais، بـــلاد البربـــر الإسلامـية والمشـــرق في العصر الوسيط La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen -Age، باريس، 1946، 29، 34-35؛ ح. مؤنس، فتـــح العرب للمغرب، القاهرة، 1947، 242 - 259؛ أ. غاتــــو A.Gateau، غـــزو إفريقيـــا الشماليـــة Conquête de l'Afrique du Nord باريـــس، 1948، 161، عــــــدد 106؛ أ.ليفي بروفنسال E.Lévi.Provençal، روايـــة جديـــدة عـن غـــزو العـــرب لإفريقيـــا الشماليـــة Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes، فــــي أرابيكـــا Arabica، I، (1954) 32- 33؛ هــ.ز. هرشبـــوغ Z.Hirschberg. الكاهنـــة البربريـــة Ha-Kahina ha- berberit فــــــي تربيـــز Tarbiz، XXVI، (1957) 370 - 383؛ ت لفيسكي T.Lewicki، الأنبيـــاء والمتكهنون والسحـــرة لـــدى البربر في القـــرون الوسطى Prophètes ,

devins et magiciens chez les berbères médiévaux فـــي الورقـــة الشرقيـــة
Folia Orientalia ، 1965، VII، 4 ، 6 ؛ نفســه، بقـاء العبادات القـديمة
والعقائد الوثنيــة لـدى بربـــر القرون الوسطـــى فـــي العهـد
الإسلامــي-Survivances chez les berbères médiévaux d'ère musulmane de cultes an
ciens et de croyances païennes، فـي الورقـة الشرقـيـة Folia orientalia، 1967،
VIII، 7 ؛ سعـد زغـلـول عبــد الحميد، تاريـخ المغرب
العربي، القاهرة، 1965، 182 - 195؛ م سيمـون M.Simon، التهوّد البربـري
فـي إفريقـيـا القديمـة Le judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne،
في مجلة التاريـخ والفلسفة الدينيتين Rev.d'Hist. et de Phil .religieuses،
ستراسبـورغ، 1946، 6، 8؛ ت، فهـد، الكهانـة العربيـة La Divination
Arabe، ليـدن Leyde، 1966، 92 - 93، 97 - 98، 100؛ م : الطالبـي، قطعة
جديـدة من تاريخ المغـرب الإسلامي (62هـ / 196 - 682 / 812)، ملحمة
الكاهنـة Un nouveau fragment de l'histoire de l'Occident musulman, l'épopée
d'al- Kàhina فـي كرّاسات تونس C.T.، 1971، عـدد 73.



اليه معاوية وقال قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الامام المظلوم وتقديمه اياه وقيامه بدمه وبذل مهجته وقد رددتك على عملك.

ويقال ان معاوية ليس هو الذى رد عقبة بن نافع ولكنه قدم على يزيد ابن معاوية بعد موت ابيه فرده واليا على افريقية وذلك اصح لان معاوية توفى سنة ستين، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد قال توفى معاوية بن ابى سفيان سنة ستين.

مقتل عقبة بن نافع — ثم رجع الى حديث عثمان وغيره قال فخرج عقبة بن نافع ... بعث على ابى المهاجر حتى قدم افريقية فاوثق ابا المهاجر فى وثاق شديد واساء عزله وغزا به معه الى السوس وهو فى حديد واهل السوس بطن من البربر يقال لهم انبية (1) فجول فى بلادهم لا يعرض له احد ولا يقاتله فانصرف الى افريقية فلما دنا من ثغرها امر اصحابه فافترقوا عنه واذن لهم حتى بقى فى قلة.

فاخذ على مكان يقال له تهوذة فعرض له كسيلة (2) بن لمزم فى جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل عقبة ومن كان معه وقتل ابو المهاجر وهو موثق فى الحديد ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا الموضع الذى كان عقبة اختطه فاقام به وظهر من قرب منه وباب فابس وما يليه وجعل يبعث اصحابه فى كل وجه.

(1) A, D: انبتة B: انبثة C: s.p.— (2) Ms.: كسيل

كُسَيْلَة

[القرن الاول هـ / السابع م]

كُسَيْلَة بن لَمْزَم أو كَسِيلَة، هو على آثار مسينيسا ويوغرطة، أحد مشاهير وجوه صراع البربر من أجل استقلالهم. من المؤكد أن كسيلة كان، سنة 55 هـ 674 م، حين قدم المولى أبو المهاجر دينار من مصر لتعويض عقبة بن نافع، حاكما على ولاية المغرب التي وقع غزوها حديثا، ملك الأَوْرَبة، وهو حلف واسع لقبائل البرانس التي كان أغلبها حضرا. وكان لأرض أَوْربة آنذاك مركز هو جهة تلمسان، بوماريا Pomaria القديمة، وكان يمتد دون شكّ من غرب الأوراس إلى وليلة (= فولْيبيليس Volubilis) إلى شمال فاس. ولنذكر بأن إدريس الأول قد رفعه إلى الحكم أوربة وليلة. ولاريب أنه حين تمّ الفتح، كان هؤلاء قد مُسّحُوا بصفة واسعة. وفعلا، فإن عاصمتهم تلمسان قد حافظت، حسب شهادة البكري، إلى القرن الخامس / الحادي عشر، مع ملامح حضارتها العتيقة، على سكّان كثيرين من المسيحيّين. وفي تلمسان، اصطدم أبو المهاجر بكسلية. وعرف الحكم الجديد الذي عوّض سياسة القوّة بسياسة المصالحة، كيف يجد حليفا في ملك الأَوْربة. واعتنق كُسيلة الإسلام، واستقرّ من ذلك الحين مع أبي المهاجر في تكروان، معوّضة العاصمة التي أسسها عقبة بن نافع، والتي يمثل اسمها، بسابقته، برنامجا كاملا للحلف العربي البربري .

وانجرّ عن موت مؤسس الدولة الأموية معاوية تغيير في السياسة. فسلك عقبة، سنة 62 هـ / 681 م، من جديد طريق إفريقية. ولم يكن يحلم إلاّ بالثأر والجهاد الكبير. وفي عهده، عادت سياسة إخضاع البربر بالقوّة، بأعنف

مما كانت عليه. وكان أول أعماله أن ألقى بأبي المهاجر في الأغلال، وسجن كُسَيلة، وأعاد إلى العـاصمة، مع اسمها القديم، المكانـة التي اختارها لها في المنطلق ، خـلال فترة حكمه الأولى. وشرع، وهـو يجرّ في إثره أبـا المهاجـر وكُسيلة، في زحفه الكبير الذي سيوصله ـ ولا سبب جـديًا للشكّ في ذلك ـ إلى المحيـــط الأطلسي. وفي الطريــــق، وعلى الرغم مـــن تحذيــر أبي المهـاجر، تفنّن بصفـة خاصـة في إهانـة « الملك » البربري. ونعلم المشهـد الأنموذجي الذي وصفته كلّ المصادر، حيـث يجعل عقبة كسَيْلة، للإمعان في إهانته، يسلخ كبشا في حضرته .

وفي مرحلـة أولى، يبدو أن الحملة الخاطفة التـي قادها بصفة غير متـوقّعة للغاية، بما أنها عقبت سياسة سلفه في السلم والمصالحة، قد استفادت من مفعول المفـاجأة، مما يفسرّ على الأقل جـزئيا، انتصاراتـه الأولى الخاطفة. لكن سرعان مـا نظمت المقاومـة. وبالفعل، فإن عقبـة لم ينتزع أي حصن كبير. وتحالف البرانس، أكثـر البربر رَوْمَـــنَـــة، مع البيـزنطيّين. واتصل الأوْربة سرّا بـزعيمهم كسيلة. وفـرّ كُسَيلة، ولا نـدري في أي موضـع، من عقبة، وتـزّعم المقاومـة. فهل ارتكب عقبة عمـلا متهوّرا، وقـد وثق بصفة مفرطة في انتصاراته، مثلما تؤكّـد جميع المصادر، حين أعاد أكثر قواته إلى القيروان، ولم يحتفظ معه إلاّ بكمشـة من الرجال تبـــلغ ثلاثمـــائة فـــارس، حســـب ما يـروى ؟ أم أنه كان من الـلأزم إنجاد العـاصمة بصفة عـاجلة وقد هـددها البيزنطيّـون ؟ أم أنّ الأمر يتعلق بأكثربسـاطة بتصرف غير منضبط من الجنود المرهقين بحملة طويلة شاقة ؟ ومهما كان الأمر ، فقد وجد عقبة نفسه جنوبي بسكرة، بتهودا (= تابوديوس Thau-deos) في مـواجهـة كسيلـة وكـــان على رأس جيـوش عتيـدة من البرانس والبيزنطيّين، ولقي بها مع جميع رجـاله، ومن ضمنهم أبو المهاجـر، الميتة الملحمية العظيمة التي كان يحلم بها، والتي جعلـــت أسطورتــــه تخلّد. وتمّ تشييد ضريـــــــح عــــلى موقع المعركة، وهـو ضريح سيدي عقبة الذي تحول إلى محجّ مازال إلى اليوم مقدسا .

وفي القيروان، كان الفـزع، ممّا يدلّ على أهميـة انتصار كسيلة، وخـاصة على كثرة قواته. وتغلّبت في نهاية الأمر، فكرة التخليّ عن البلاد، وهـي فكرة دافع عنها حنش الصنعـاني على فكرة المقاومـة التي دعمها زهير بن قيس البلوي. فانسحب الجيش إذن. لكن القيروان لم تفقـد كامل سكّانها العرب والمسلمين. فإنها لم تعـد بعـــد مجرّد معسكر للجيـــش، وهذا الحدث

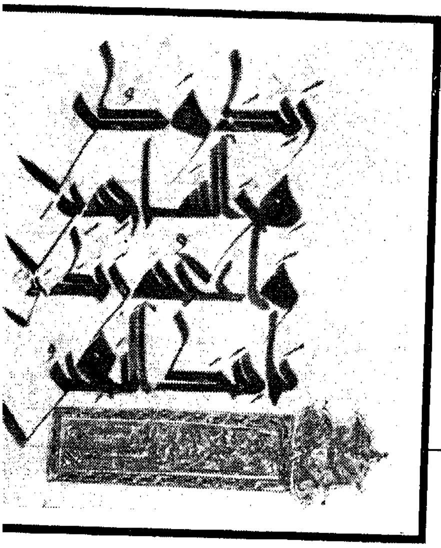
يستحق الملاحظة. ومن سنة 64 إلى 69 هـ / 683 - 688 م، أصبحت عاصمة مملكة بربرية واسعة، يحكمها كسيلة. ويلاحظ ابن عذاري (**البيان** ، I، 31) « أمّن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرا على سائر إفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين » فلا كراهية للأجنبي إذن، ولا اضطهاد، ولا تعصّب دينيا. ولنلح على هذا الحدث الذي نقله شهود لم يكن لهم أي سبب للرفق بخصومهم. فقد أكدّوا لنا أن كسيلة نفسه حرص على ألاّ يرتد بعد انتصاره. ومن البديهي أن هذه الاجراءات تنم، عن برنامج سياسي كامل يهدف بالتأكيد، إلى أن ينتزع من العرب كل تعلة دينية لغزو المغرب من جديد .

لكن موجة الغزوات لم تكن بعد قد انحسرت. فلما هدأت الإزمة التي اندلعت في المشرق بثورة ابن الزبير، اتجه زهير بن قيس البلوي من جديد مع جيش قوي إلى إفريقية. واختار كُسَيلة، الذي لم يكن واثقا من مؤخرته بالقيروان، أن يذهب لانتظار خصمه في ممّس، على بعد 50 كلم غربي العاصمة، أي في منطقة يمكن للجبل أن يكون ملجأ في حالة الهزيمة. وكانت الموقعة، التي قتل فيها، في غير صالحه. لكن ينبغي أن نعتقد أنها لم تكن حاسمة بالقدر الذي تزعمه المصادر. وفعلا، فعلى الرغم من أن زهيرا كان منتصرا، فقد فضّل أن يغادر البلاد من جديد، حتى لا ينهار أمام ملاذّ الدنيا، حسب ما قيل. وذهب بدوره ليلقى حتفه، على طريق العودة، ببرقة حيث كان البيزنطيّون هجموا من البحر. فهل كان الأمر يتعلق بعملية مدبّرة تهدف إلى إيقاع العرب في الفخّ الإفريقي؟، وهي عملية لم تنجح لأنهّا كانت سيئة التنسيق فلو كانت محاولة كُسَيْلة لتكوين امبراطورية كبرى تحكم من المدينة التي أسّسها عقبة بن نافع نجحت، لكان تاريخ المغرب قد أخذ اتجاها آخر بالتأكيد. لكن هل كان البربر ناضجين لتحقيق مثل هذا الهدف ؟ ومع الكاهنة (انظر الفصل المخصص لها في « دامت ») سينتقل مشعل المقاومة إلى البترْ، ولكن بلا نجاح دائم أيضا .

البيبليوغرافيا : المصادر(مرتبة زمنيا) : ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية والأندلس**، نشر وترجمة إلى الفرنسية بصفة جزئية، أ. غاتو A. Gateau، الجزائر 1947، 70 - 77؛

الرقيق (منحول)، **تاريخ** تحـ. م. الكعبي، تونس، 1968، 46 – 52؛ المالكي، **رياض**، تحـ. ح. مؤنس، القاهرة، 195، 21 – 31؛ البكري، **المسالك** نشر وترجمة فرنسية دي سلان De Slane، **باريس**، 1965/1731/4971/1511/7/23و50/ 108؛ ابن الأثير، **الكامل**، ط. بيروت، 1965، III، 467، IV، 107 – 110، 370 – 372؛ عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، **نص جديد عن فتح العرب للمغرب**، تحـ. أ. ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal، في مجلة معهد مصر بمدريد Revue de l'Institut d'Egypte à Madrid، 1954، 220 (الترجمة الفرنسية في أرابيكا. Arabica، I، 39 – 40)؛ ابن عذاري، **البيان**، تحـ. ج. س. كولان G.S.Colin وأ.ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal ليدن Leyde، 1948، I، 28 – 29؛ النويري، **نهاية**، نشر وترجمة إسبانية بصفة جزئية غاسبار ريميرو Gaspar Remiro في مجلة مركز دراسات تاريخ غرناطة ومملكتها Revista del Centro de Estudios Historicos de Grenada y su reino، VI، (1916)، 19 – 21؛ ابن خلدون، **العبر**، بيروت، 1959، VI.، 216 – 218، 297 – 300 ابن تغري بردي، **النجوم**، القاهرة، 1963، I، 158 – 160؛ ابن أبي دينار، **المؤنس**، 1967، 31، 33.

الدراسات (مرتبة ألفبائيا) : أ.ف.غوتيي E.F.Gautier، **ماضي افريقيا الشمالية** Le passé de l'Afrique du Nord، باريس، 1952، 237، 266، 267 – 270؛ ش. أ. جوليان Ch A Julien **تاريخ إفريقيا الشمالية** Histoire de l'Afrique du Nord، باريس، 1956، I، 16 – 20؛ أ . العروي، **تاريخ المغرب** Histoire du Maghreb، باريس، 1970، 78، 81؛ ج. مرسي G.Marçais **سيدي عقبة وأبو المهاجر وكُسَيْلة** Sidi Uqba, Abû-l Muhâjir et Kusayla، في كراسات تونس C.T، I، (1953)، 11 – 17؛ سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، القاهرة، 1965، 152، 166 – 175؛ م. الطالبي، **قطعة جديدة من تاريخ المغرب الإسلامي**، Un nouveau fragment de l'histoire de l'occident musulman. في كراسات تونس C.T، العدد 73، 1974، 19 – 52.



المعزّ بن باديس

[407 ـ 454 هـ / 1016 ـ 1062 م]

المعزّ بن باديس، هو أبو تميم شرف الدولة رابعُ ملوك دولة بني زيري الصنهاجية التي حكمت إفريقية [راجع هذا الاسم فى «دامت»] من سنة 362 هـ ./972م. إلى سنة 543 هـ. / 1148 م. ولم تكن مدّة حكمه تمثّل أوج ازدهار هذه الدولة كما ذهب إلى ذلك الأستاذ هـ . ر. إدريس. فإذا ما سلّمنا بوجود فترة تمثل قمّة هذا الازدهار فإنه ينبغي أن نجعلها في زمن متقدّم، قبل نزول الطاعون بالبلاد وحدوث المجاعة المهولة في سنة 395 هـ. / 1004 ـ 1005 م، وقد كانا سببا في هلاك خلق كثير من أهالي البلاد. ومنذ ذلك التاريخ ، وطوال عهد حكم المعزّ، توالت المصائب والكوارث على إفريقية بدون هوادة ، كاشفة عن نقائص نظام اقتصادي غلب عليه الاضطراب وأنهكه الإجهاد. وقد كانت أعوام 409 هـ / 1018ـ1019 م. و442هـ / 1022ـ1023 م. و425هـ / و 1033ـ1034 م/ 432هـ/ 1040ـ1041 م. و 447 هـ / 1055 ـ 1056 م. جميعُها من السنوات الموسومة بعلامة سوداء. (راجع هـ. ر. إدريس، **بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري** [النصّ الفرنسي] (ج I ص 149، 161، 227، 274، 293)

وقد عمد الرّواة ومدوّنو التاريخ من أهل السنة إلى إدخال كثير من الغموض ومن التزويق على ملامح المعزّ ، وجعلوا منه ، في عصر متأخّر عن زمانه ، رجلا من السنّة كان منذ نعومة أظفاره أسيرا في قبضة

الشيعة. فبقي المعزّ يمثّل في تاريخ إفريقية الرجل الذي حُقّق ردّ الاعتبار إلى المذهب المالكي القويم وأقام صرحه من جديد بهذه الرّبوع ، ممّا أدّى مباشرة إلى حصول « كارثة » زحف بني هلال على البلاد. وقد مات أبوه باديس [راجع هذا الاسم] فجأة ليلة الهجوم النهائي على القلعة التي كان عمّه حمّاد قد ابتناها في سنة 398 هـ / 1007-1008 م. وقد أدى موته المباغت(في 30 ذي القعدة سنة 406 هـ/10-5-1016م)إلى تكريس تقسيم مملكة بني زيري نهائيا لصالح فرع الحمّاديّين (405- 547 هـ / 1015- 1152م) .

وكان الأمير الشاب ـ الذي لم يكن قد بلغ بعد التاسعة من عمره عند موت أبيه ـ يقيم بالمهديّة [راجع هذا الاسم في « دامت ».] . وقد تسبّب ذلك في وضعية دقيقة لم يتمّ التغلّب عليها إلاّ بجهد جهيد وباللجوء إلى الحيلة والمخادعة. (راجع هـ. ر. إدريس، **بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري**، ج I، ص 128 - 130). على أنّ تنصيبه قد تمّ مع ذلك يوم 21 أو 23 من شهر ذي الحجّة سنة 406 هـ / 31 ماي أو 2 جوان سنة 1016 م. بدون حصول منازعة. ويقال إنّه كان أسمر أسفع اللّون. ويجمع الرّواة على اتصافه بذكاء حادّ و بثقافة جيّدة لا يمكن أن يكون قد اكتسبهما الاّ فيما بعد. وفي الشهر الموالي غادر المعزّ مدينة المهديّة وحلّ في أواسط المحرّم من سنة 407 هـ / 24 - 6 - 1016 م. بعاصمته المنصورية [راجع المقال في « دامت »] التي كان أسّسها الخليفة الفاطمي المنصور حوالي سنة 336 -337هـ / 947- 949 م. على مسافة نصف ميل من القيروان قلعة المذهب السنّيّ المشاغبة التي كان ينبغي للأمير الجديد ، من باب حسن السياسة والتدبير، أن يؤدي إليها زيارة.وقد آلت هذه الزيارة، في ظروف لا يزال يكتنفها الغموض والإبهام، إلى نشوب حركة تمرّد شديدة ضدّ الشيعة .

ففي يوم 16 من شهرمحرّم سنة 407 هـ / 25 -6 - 1016 م. كان ركب الأميرفي بادىء الأمر يلقى ما تفرضه المناسبة من ترحيب وهتافات عند اختراقه شوارع المدينة المباركة. وفجأة اندلعت ثورة الجماهير تبعا بالتأكيد لصدور إشارة معلومة أوانطلاق إذن خفيّ متفق عليه لم ينفذ رواة الخبر إلى معناه الحقيقي ، وقد كان الهدف من ذلك القضاء على حياة الأمير الشاب بالذات، ومن خلال شخصه، الإطاحة بالنظامُ الذي كان أهل السّنة يسعون إلى التخلّص منه نهائيا في كامل أرجاء المغرب الاسلامي،

محاولين اغتنام ذلك الظـــرف الذي كان يبدو مؤاتيا جدًا في نظرهم. أفلم يسبق لحمّاد الذي أنقـذته معجـــــزة مـوت باديس المفـاجىء أن ينكر مقولات الشيعة منـذ سنة 405 هـ / 1015 م. وأن يعقد الصّلـة من جـديد بالخلفـاء العباسيّين ببغداد ؟ هـذا وليس من المستبعد أن يكون متـواطئا سرًا مع المتمـرّدين، حتّى ولو لم يكن هـدفه من ذلك سـوى تلهية حكّام القيروان عن مهـاجمة القلعة من جـديد.ويبدو مـن الثابت أيضـا أنّ أتباع المذهب السنّي كـانوا يحظون بمسـاعدة بعض المتـواطئين معهم سرًا حتّى داخل صفوف الجيش الـرسميّ الذي اتّسم موقفه في بـادىء الأمر بفتور غريب يدعـو إلى التسـاؤل. أمّا ما أبـداه عامل القيروان من خمول وتقاعس بمقدار فإنـه يُعزى ، بطبيعـة الحال ،إلى ما قـد يكون استروحـه من أنباء تتعلق بقرب عزله عن خطّته .

ومهما يكن من أمـر فقد تمّ تجاوزطـاقة الحرس الأميري والطغيـان عليه بسرعة. وبمجـرّد نشوب حركـة العصيان الجماهيرية عمـد المتمرّدون إلى تقتيل الناس عن حق أو عن باطل، تـدفعهم إلى ذلك غريزة النّهب والسّلب أكثر ممّا يحفزهم استفظاعهم البـدعة والضلال. « وانبسطت أيدي العامة علـى الشيعة وانتهبت دورهـم وأموالهــــــم . وتفاقم الأمر، وانتهى إلى البلدان، فقُتل منهم خلقٌ كثير. وقُتل من لم يُعرف مذهبه بالشّبهة لهم » ـ (راجع ابن عـذاري، **البيان** ...، ط. ج. س. كـولان و أ.ليفـي بروفنسـال، ليدن، 1948 ، ج I ، ص 268). وقـد ذهب بعض الشيـوخ الأفـاضل الوقوريـن من أهـل القـيروان إلى حثّ العامـة على استعجال أمر القتل « فإذا مـا كان القتيل من أهل السنّـة، عجّل ذلك بدخـوله الجنّـة» (راجع عيـاض **المدارك**، ط. بيروت، 1967، ج IV، ص 625). ولم ينجُ أبو البهار بن خلـوف ـــ الذي كـان مـوضع حقـد الجماهير، والذي سـوف يـرتقي إلى الوزارة بعد بضعـة سنوات ـ من غضب العامـة إلاّ بفضل جند ابن أخيه الـذي تـمّ قتلـه والتمثيل بـه بـدل عمّـه. ثم زحف العامـة بعـد ذلك على المنصوريّة فهدّموها وانتهبوها بدورها. وشهدت عدة مدن أخرى بإفريقية مذابح لاستئصال الشيعة وقطع دابرهم .

ولم تحتفظ لنا المصادر التّي بين أيدينا ـ وجميعُها سُنّية النّزعة ـ عن هذه الأحداث إلاّ بصورة انتصـار عظيم باهر على حركـة الشيعة. على أنّ هذه الانتفاضة، مهما كان اتساع مـداها، لم يكتب لها النجاح والدّوام ولم يكن

لها أثر يذكر. فقد ظلّ حكم الشيعة قائما مع الاتّسام فيما يبدو بمزيد من التسامح . ومن البديهي أنّ المعزّ بن باديس ـ نظرا لصغر سنّه على الأقلّ ـ لم يكن بإمكانه إبّان هذه الأحداث انتهاج أيّة سياسة شخصية خاصّة به. وقد قام رجال والده الذين احتفظوا بمناصبهم، بتسيير العمليات بدون شكّ. وبعد مرور قُرابة شهر على انطلاق حركة التمرّد والعصيان، تمّ في يوم 19 صفر سنة 407 هـ / 28 - 7 - 1016 م. تعيينُ وزير جديد، وهو أبو عبد الله محمد بن الحسن عامل طرابلس سابقا. فهل كان في هذا التغيير تنازل من أجل إعادة الاطمئنان إلى النّفوس ؟

لكنّ حركة أهل السنّة التي وجدت في تسامح السلطة ماشجّعها بدون شكّ على الاقدام والتّمادي، لم تقلع عن المشاغبة والمقاومة. وكاد المعزّ أن يذهب ضحيّة مؤامرة جديدة بعد بضعة أشهر وهو في طريقه إلى مصلّى القيروان بمناسبة عيد الفطر في غرّة شوّال من سنة 407 هـ . / 3- 3 - 1017 م. وفي هذه المرّة عزمت الدّولة على تسديد ضربة قاضية تستهدف رأس الحركة. وقد ذكر عياض (في **المدارك**، جIV، ص 626) أنّ المعزّ داخله فزعٌ شديد من أهل السنّة و أنّه عزم على كسرشوكتهم من سنة 407هـ / 14 -3- 1017 م، جرت مداهمة أبي علي بن خلدون « شيخ الدعوة » في مسجده حيث كان بدون شكّ يدبّر سير العمليات، وتم قتلُه. وسرعان ما اندلع الشغب بالقيروان ، لكنّ السلطة كانت قد أعدّت العدّة لذلك ، فلم تُباغتها الأحداثُ . وقد ذكر عياض (في **المدارك** ج IV، ص 626) أنّ جند المنصوريّة من راجلة وحرس سُود ساروا نحو القيروان وعمدوا إلى نهب كلّ دكاكينها حتى لم يسلم من ذلك دكّان. وأُحرقت شوارع الأسواق وسُلبت أموال التجّار وأرزاقهم. وبذلك كسرت شوكة حركة السنّة نهائيا وتخلّصت الدّولة من ذلك السيف المسلول فوق رأسها. وسوف لن يبقى بعد ذلك أثرٌ يُذكر لأيّة حركة شغب مناهضة للشيعة طوال عهد حكم المعزّ كلّه. وما كاد يمْضي على ذلك ثلاثة أشهر حتّى بعث إليه الخليفة الفاطميّ الحاكم من القاهرة بخلع سَنيّة معبرًا له بذلك عن عرفانه، ومنحه لقب « شرف الدّولة » بخطاب مرسوم. واستأنف المعزّ بن باديس من توّه، ضدّ حمّاد عمّ أبيه تلك الحملة التي انقطعت من جرّاء هلاك أبيه المباغت. وبالرّغم عن تحقيق انتصار سالت فيه الدّماء إلى حدّ مهول (في 30 ربيع الأوّل من سنة 408 هـ ./ 26 - 8 - 1017 م) فقد كانت الحملة ذات تكاليف بشرية باهظة ، وأبرم

اتفاق سلام بين الطّرفين المتحاربين ـ سوف لن ينقضه خليفة حمّاد الملقّب بالقائد إلاّ في سنة 432 هـ / 1040- 1041 م . وهو يترك كامل القلعة بأيدي الحمّاديّين مؤكّدا بذلك إفلات المغرب الأوسط من سلطان دولة بني زيري المرتكزة بالقيروان .

وفي الأثناء استمرت العلاقات على أحسن ما يكون مع الفاطميين . ففي أوائل سنة 411 هـ. (أخر إفريل 1020م) جدّد الخليفة الحاكم بأمر اللّه ثقته للمعزّ بن باديس وحباه جزيل النّعم وأرسل إليه فيما أرسل من هدايا، سيفا مرصّعا بنفائس الفصوص. أمّا الخليفة الظّاهر (411- 427 هـ / 1021- 1036م) الذي آل إليه الحكم اسميا تحت وصاية عمّته ستّ المُلك (المتوفّاة سنة 415 هـ / 1024- 1025 م) وهو في سنّ السادسة عشرة، فقدرفّع في لقبه الشرفيّ وزادهُ فخامة إذ سمّاه « شرف الدّولة وعضدها » مغدقا عليه العطايا بطبيعة الحال. وقد كان يحكم كلاًّ من مصر وإفريقية عندئذ شابّان مراهقان يخضع كلّ واحد منهما لضرب متفاوت من الوصاية .

وقد سبق المعزّ إلى التحرّر من وصاية وزيره أبي عبد اللّه محمّد بن الحسن الغالب على أمره والقليل التورّع عن ركوب المآثم والشبهات فيما يقال عنه. وإذ لم يوفّق في اقناعه بالحسنى وعن طريق الوسائط بالتخلّي عن السلطة، فقد عَمَد إلى عزله و أمر بقتله في السابع من شهر ربيع الثاني سنة 413هـ / 11- 7 - 1022 م. فاتحا بذلك ، وهو في سنّ الخامسة عشرة تقريبا من عمره ، عهد حكمه الشخصي. واتخذ كوزير جديد أبا البهار بن خلوف ، وهو عدوٌّ لأتباع مذهب السنّة ، وقد كادوا أن يقتلوه أثناء الانتفاضة التي حدثت في سنة 407 هـ / 1016 م. وقد كان في تسمية هذا الرجل دلالة سياسية مزدوجة إذ كان فيها إنذارٌ موجّه إلى حركة السنة وعربونُ وفاء نحو الدّولة الفاطمية بالقاهرة. وفي نفس السّنة أقام المعزّ مراسم زواجه في احتفالات فخمة .

واستمرّ حكمه هادئا في الجملة طيلة أكثر من 35 سنة ، أي إلى حدود زحفة بني هلال، بالرّغم عن حدوث بعض الثورات التي لم تكن تكتسي خطورة، خصوصا في جنوب البلاد. وقد كان البناء يبدو شامخا متينا. لكنّ تلك القوّة كانت مجرّد مظهر خارجي. ذلك أنّ أبهّة البلاط التي كانت تزداد ضخامة بمدائح ممتهني التملّق المأجورين، كانت تخفي من ورائها انهيار

الهياكــل الاقتصادية التي كانت تشكو تناقص اليد العاملة من العبيد، مع ما ينجرّ عن ذلك التّـدهور من قحط ومجاعات متكرّرة ــ وقد أشار رواة الأخبـار إلى ما لا يقلّ عن الخمس منهـا ـ ومـا يواكبهـا من اضطرابـات وأوبئة وانهيـار في عدد السكان، ولا سيما في الأريـاف التي كان يهجـرها أهلها إلى المدن. وعندما أصيبت البـلاد في الصميم بغارات زحفة بني هلال فقد كانت بعـدُ مُسْـتنزَفـة القوى إلى حدّ بعيـد حتّى أضحت عاجزة عن تحمّل الصّـدمـة أو التغلّب عليهـا واحتـواء آثـارهـا. هـذا وأن المصـاعب الدّاخلية، الدّينية منها والاقتصادية، هي التي دفعت بالمعزّ شيئا فشيئا إلى قلب ظهـر المجنّ للفاطميّين، مستبـدلا ولاءَهُ لهم ـ الذي لم يكـن يكلّفه في الحقيقة سوى واجبات وأعباء ضرورية لا تستحـقّ الذكر ـ بولاء للخلفاء العباسيّين الأباعـد لم يكن أكثر كُلفة ولا أثقل مؤونـة من الأوّل. وقد كان يسعى بـذلك إلى استمالة نفـوس الحشود الغفيرة من العـامة الـذين غلب عليهم الفقر، والـذين ظلّوا في جمهرتهم أوفياء لمذهب السنّـة المالكية. وقد سـاعـد على هذه القطيعـة مع القـاهـرة، خصـوصـا بعـد موت الـوزيـر الجَرْجَرائي (436هـ / 1045 م)، ما كانت تشهده الدّولة الفاطميّة من تقهقر وتراجع. وحصلت القطيعـة فيما يبدو على دفعات متواليـة وبحسب تطوّر الظروف وتقلّب الأمزجـة والنّفوس. وهـــذا ما يفسرّ اخــتـــلاف الرّواة في تحديد تاريخها على مدّة تتراوح في حدود العشر سنوات بين عام 433 هـ وعام 443 هـ / أي عام 1041 وعام 1051 م. هذا وإنّ دراسـة النقود تسمح لنا بالتأكيـد أنّ هذه القطيعة كانت كاملـة ونهائية في سنة 441 هـ. (راجع هـ.ر.إدريس **بلاد البربر الشرقيـة في عد بني زيري** ، ج I، ص 190) .

وقد تمّ الصّـدام الحاسمُ مع المغيرين الـذين رمى بهم إفـريقية الخليفـة الفاطميّ المنصـورُ بإشـــارة مـــن وزيـــره اليــــازوري عقـــابا على خـــروج تابعــــه السّابـــق عـــن طاعتـه وولائه له، بحيدران من منطقة قابس في يـــوم 1 ذي الحجـة من سنة 443 هـ/ 14 – 4 – 1052 م. وبالـرغم عــن شجاعـــة الأمير الصنهـاجي وعمّاً كان يتميّز بـه الأفارقةُ من تفـوّق في العدد، فقـد تمّ تشتيت شمل هذا الجيش الذي لم يكـن يمتلك خطّة قتـالية ولا انسجـاما في صفـوفه، والـذي كان بمثابـة جبّار قـوائمه من طين، تنخـر كيانـه الصراعات العـرقيّة وغضبُ الكتائب البربرية على فريق الحرس السّـودان الذين كان يبلغ عددُهم فيما

يقالُ الثلاثين ألْفا من العبيد. وسرعان ماانهار صرح الدولة الصنهاجيّة الذى كان قد نخرها السوس من الأعماق تحت ستار المظهر الخارجي الخادع. وقد كان من المفروض أنّ خسارة معركة واحدة لا تعني خسارة الحرب كلّها.ولئن شهدت البلاد مثل هذا الانهيارالمفزع الذي لم تجد بعده إلى النهوض سبيلا فذلك يعني أنها قد كانت فقدتْ كلّ مورد ماديّ وكلّ محرّك معنويّ .

وانتشر بنو هلال بعد ذلك في كلّ مكان مخرّبين وناهبين كلّ ما اعترض سبيلهم ، وهم كأسراب الجراد ، حسب عبارة ابن خلدون. واستقلّت أهمّ مدن البلاد كلٌّ برأسها. أمّا القيروان التي تخلّ عنها المعزّ في آخر الأمر ولجأ إلى المهديّة (في 27 شعبان من سنة 449 هـ / 29 - 10 - 1057 م)، فقد كانت بعد يومين من هروب الأمير منها فريسة للنّهب والتخريب الشاملين في اليوم الأوّل من شهر رمضان / 1 نوفمبر، إلى حدّ أوحى بنغمات حزين تمزّق القلب لشاعرين شهيرين من أبنائها وهما ابن رشيق [راجع هذا الاسم في « دامت »] (المتوفّ سنة 456 هـ / 1063 - 1064 م . أو سنة 463 هـ / 1070- 1071م). وبوجه أخصّ ابن شرف [راجع هذا الاسم] (المتوفّ سنة 460 هـ / 1067 م). ويوجد خلاف حول أهمية هذه « الكارثة » ومداها . فهذا جان بونسي Jean PONCET يذهب إلى حدّ إنكارها تماما . على أننا لا نرى داعيا إلى الشكّ بصورة تلقائية ومطّردة في عديد الشهادات المتطابقة جميعها والتي هي اليوم بأيدينا. هذا وحتّى إذا ما سلّمنا بوجود شيء من المبالغة الشعرية فإنه ليس بإمكاننا أن نعدّ من قبيل الاعتباط شهادة ابن شرف الذي ترك لنا وصفا يحزّ في النفس عن مصائب المشرّدين كما عاينها بنفسه، وهم مشتّتون في كلّ مذهب وقد فقدوا كلّ شيء ـــ وهذا في حالة ظفرهم بالنّجاة بأرواحهم . (راجع ابن بسّام ، **الذخيرة**، ط . القاهرة، 1945، ج IV، كراس I، ص 177- 184). على أنه من الممكن عادة النهوض من أية عملية غزو كهذه مهما كانت شديدة. وإذْ قد تعذّر ذلك ، فإنّ الكارثة الحقيقية والدّائمة كانت تكمن إذن في جانب آخر. وهي تتمثل في الضربة القاضية التي أصيب بها اقتصاد البلاد. فقد كان هذا الاقتصاد يشكو قبل ذلك شيئا من السّقم المزمن ، لكنّه كان لا يزال قابلا للعلاج. وقد قام الهلاليون بتحويل هذا الاقتصاد الذي كان يمرّ فعلا بفترة أزمة ـــ وهو يكتسي غالبا صبغة فلاحيّة وصناعية وحضرية - إلى اقتصاد بدوّي ورَعَويّ إلى أبعد الحدود،

مع كلّ مـا يمثّلـه ذلك التحـوّل من ضروب التعطّل والتـوقّف في الحيـاة السياسيـة والاقتصادية. وقـد تسببوا على نطاق واسع في تقهقهـر الحياة الحضرية المطْمئنـة لتحلّ محلّها حياة البدو المليئـة بالمجازفات والمغـامرات مع مـا يشكّله نـزوعها إلى العنف والحرب من تهديـد مستمرّ لكلّ نشـاط ريفي فلاحي أو حضريّ تجاري، وهي حيـاة البداوة التي أنـاخت بكَلْكَلها بعد ذلك على مصير البلاد السياسي طيلة قرون من الزمن .

وقد ضاقت الحال بـالمعزّ واشتبهت عليه سبلُ الخلاص، فانتهـى به الأمرُ إلى الْتماس النجـاة في المصاهـرات مع الغـزاة الغلاظ الشـداد والمحالفـات المنافية لطبيعة الأشياء والتي لم تكن لتجديه فتيلا.

ثم عاد المعزّ ـ ضمن تصـوّرات أمله الخادع في تحاشي الكارثة ـ إلى ولائه للشيعة الفاطميين. وقد يكـون ذلك حصل منذ أواخر سنة 446 هـ / أوائل سنة 1055 م. لكنّ الأمر أصبح ثابتا لـدينا ابتداء من سنة 449 هـ / 1057 م. كما تشهد بذلك الـدنانير المضروبة بالمهـديّة انطلاقا من هـذا التاريخ. وقد تمّت هذه العودة إلى الولاء الشيعي، الذي بقي المعزّ وفيّاله إلى آخر حياته، وسط جوّ من الـلاّمبالاة الكاملـة التي كانت تشمل البلـد الغارق في غمار الفوضى والمشغول عن قضايا البدع والانحرافات الدّينية بشؤون يتوقف عليها وجوده المباشر.

وقد كانت سياسـة المعزّ المتوسطية وريثة سياسـة الأغالبة والفاطميّين في هذا المجال، إلاّ أنّ بني زيري لم يعودوا في مـوقف قوّة مثل أسلافهم. هذا وانّ ضروبـا من الخلط في تـواريخ الأحداث ومن السهـو ومن التنـاقض تمنعنا من تتبّع هـذه السياسة بدقّـة وثبات. ولنذكر انّ حملـة على إيطاليا الوسطى سنة 1020 م. (411 هـ) آلـت في نهاية الأمر إلى الفشـل إذ أنّ أهالي كلّ من بيزة وجنوة استطاعوا أن يجرّدوا الأسطول الصّنهاجي من غنائمه وهو في طريق العودة. وفي سنة 416 هـ / 1025-1026 م. دمّرت العواصف في عرض جـزيرة قوصرة أسطولا صنهـاجيا عتيدا متّجها نحـو صقليّة قبل بلوغه هدفه. وفي سنة 426هـ / 1034-1035 م. استولى رجال بيزة مؤقتا على مدينة عنابة. وفي سنة 427 هـ / 1035 - 1036 م. قام جيش صنهـاجي يقوده عبد اللّـه بن المعزّ وهو لا يزال مـراهقا في سن الثالثة عشرة، بـالتدخّل في جزيرة صقلية التي كانت الفـوضى تعمّها وهي على وشك السقوط بأيدي النّورمان ، وذلك لمحاربة الأكحل الـذي استأثر هناك بالحكم في محرّم من

سنة 410 هـ /. 9 ماي - 7 جوان سنة 1019 م. وبعد أن فتح عبد اللّه مدينة بالرْمة وبعث برأس الأكحل إلى أبيه، اضطرّ في آخر الأمر إلى التراجع وتَرك الجزيرة خائبا. وكان المعزّ قد استقبل سنة 426 هـ / 1034 - 1035 م. ومباشرة قبل هذه الحملة ، وفدا قدم عليه من بيزنطة محمّلا بهدايا فاخرة. فهل ينبغي أن نجعل علاقة بين هذين الحدثين رغم قلّة ماورد في هذا الشأن بالمصادر ؟

وقد كان المعزّ يعيش حتّى زحفة بني هلال حياة بذخ كبير وينفق الأموال بغير حساب حرصا منه على ذيوع صيته كأمير نيرّ الفكر يرعى أهل العلم والأدب. وقد عُهد بتأديبه في صغره إلى واحد من ألمع رجال الأدب والكتاب بإفريقية، وهو ابن أبي الرجّال [راجع المقال] الشاعر والفلكي الشهير الذي تمت ترجمةُ كتابه **البارع** - زيادة عن اللاّتينيةوالعبريّة - إلى العديد من اللّغات الأوروبية. وأصبح ابن أبي الرّجال فيما بعد ذلك منجّم المعزّ وكبير وزرائه. وقد تألّقت المدرسة الأدبية القيروانية في عهد هذا الأمير تألّقا خاصا بفضل رجال أفذاذ من أمثال القزّاز والحُصَريّين ، إبراهيم (المتوفّ سنة 413 هـ / 1022 م) وقريبه عليّ الذيَ فرّ من القيروان بعد غزوة بني هلال وطاف بكامل بلاد الأندلس قبل أن يموت بها سنة 488 هـ/1095م. لكنّ أفضل من كان يزين بلاط المعزّ همًا بدون منازع الشاعران المتنافسان القديران ابن رشيق وابن شرف [راجع الاسمين]. وقد كان يحلو للمعزّ أن يثير بينهما مساجلات ونقائض شعرية بقيت مشهورة عبر التاريخ. أمّا ابن الرقيق [راجع هذا الاسم] أو الرّقيق (المتوفّ بعد سنة 418هـ / 1027-1028م) والمشهور خصوصا بتدوين التاريخ والأخبار ،فقد اشتغل أيضا ككاتب ديوان وسفير وكان شاعرا مجُيدا. وفي مجال الفقه المالكي كانت هنالك جماعة من مشاهير الفقهاء ، تبرز من بينهم ، وتمتاز عليهم ، شخصيّة أبي عمران الفاسي [راجع هذا الاسم] (المتوفّ سنة 430 هـ / 1039م) ، الذي « كان له دور عظيم في تمخّض حركة المرابطين ونشأتها » (راجع هـ. ر. إدريس، المرجع المذكور سابقا، ج II، ص 727) .

ولقد ورث المعزّ بن باديس وهو لا يزال طفلا مملكة اتّسمت في المجال الاقتصادي بتفكّك هياكلها ووهن قواها، وفي المجال السياسي بفقدان الجانب الغربيّ منها. وفشل في سعيه إلى توحيد

أجزاء هذه المملكة مــن جديد جرياعلى سنة أبيه من قبله. وعندما توفّي في يوم 24 شعبان سنة 454 هـ / 2 - 9 - 1062 م . عن سنّ تنــاهز 56 أو 58 عاما قضّى منها في الحكم فترة طـويلة دامت سبعــة و أربعين عاما، فإنّــه ترك هــذه المملكة لخلفــه تميم وهي تشكــو الإفــلاس الاقتصادي و الانقســام السياسي وتتخبّط في فوضى كاملة .

المراجـــــع : لا يــزال المرجـــــع الأساســـي هــو أطروحة الأستاذ هادي روجي إدريس، **بلاد البربـر الشرقية في عهد دولـة بني زيري** . القرن X الى XII، ط . أدريــان ميزونــوف A. Maisonneuve باريس، 1962.* وعلاوة على قــائمة المراجع التــي يحيل عليها هــذا الكتاب، ينبغي إضــافة المراجع التالية :

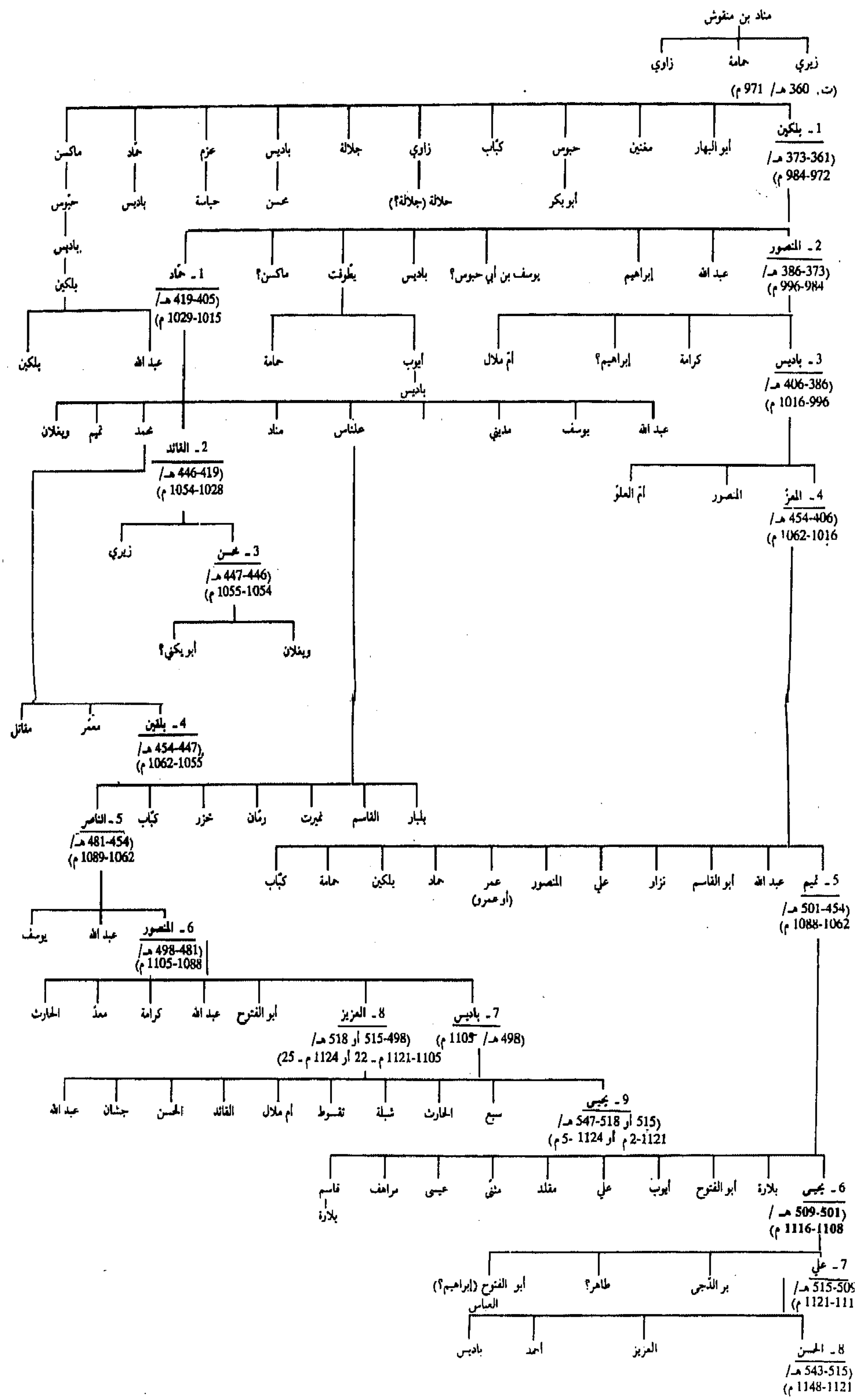
أ : ليـــزين A.Lézine ، **المهديّــة، بحـــوث في الآثار الإســلامية**، نشر كلينكزياك Klincksieck ، باريس، 1965؛ عربي إسماعيل ، **عواصم بني زيري ملوك أشير والقلعة وبجايــه والمهديّة**. نشر دار الرائد العــربي، بيروت 1984؛ عبد الحكيم شوقي، **سيرة بني هلال**، نشر دار التنويــر ، بيروت ، 1983؛ س . د. غــُويتاين S.D.Goitein ، **مجتمع متوسطي**، ج I ، الأسس الاقتصادية A.Mediterranean Society Vol. I.Economic Foundations ، نشر مطابع جامعة كاليفورنيا، 1967، ص 32، 310، 328، 331 ؛ جان بــونسي Jean Poncet **أسطورة الكارثة الهلاليّة** ، ضمـــــن حوليــات E.S.C. ، بــاريس، 1967 ، العدد 5، ص 1099 ـ 1120؛ تــرجمة عــربيــة للمقــال لمنصف الشنــوفي نشر في حوليات الجامعة التونسية، 1968 ، العدد 5 ، ص 133 ـ 141، بعنوان **أسطورة الكارثة الهلالية** ؛ هــ ر. إدريس ، **في حقيقة الكارثــة الهلاليّة**، ضمن حوليات E.S.C. 1968، ص 390 ـ 396؛ نــفـــس المؤلــف، **زحفـــــة بني هلال ونتائجها** ضمن كراسات الحضارة في العصــور الوسطى، بواتيي، 1968، العدد 3، ص 353ـ371؛ إيـــف لاكوست Yves Lacoste ، **ابن خلدون، مولد التاريخ وماضي العالم الثالث** ، نشر فرانسوا ماسبيروF.Maspero ، باريس ،1966، الباب 4 أسطورة « الزحف العربي » ، ص 87- 105؛ كلـــود كاهن Cl. Cahen ؛ **كلمات عـــن الهلاليّيـــن والبـــداوة** ضمـــن مجلة ـ JESHO، مارس، 1968، ص 130ـ132؛ م. برات M.Brett، **إفريقية سوق**

التجارة الصحراوية Ifriqiya as a market for saharian trade ضمن مجلّة التاريخ الإفريقي Journal of African History، 31، ص. 347-364 ؛ جاك بارك، J.Berque **توبة بني هلال أو الجزائر الزراعية في القرن XV حسب مخطوط خاص بفقه القضاء** Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe S. d'après un manuscrit jurisprudentiel ، ضمن حوليّات، E.S.C، باريس ، 1970 ، العدد 5 ، ص 1325 - 1353؛ نفس المؤلف ، **الجديد حول بني هلال**، ضمن مجلة S.I.، باريس ، 1972، ج XXXVI، ص 99-113 ح.ح. عبد الوهاب، **ورقات**، القسم الثالث، طبعة بعد موت المؤلّف، تونس، 1972، ص 56- 58، 445، 474 ؛ ر. دغفوس، **العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقية**، ضمن مجلّة المؤرّخ العربي، 1981، العدد 20، ص13-46 ؛ ممدوح حسين، **العرب الهلالية في إفريقية ودورهم في الحروب الصليبيّة**، ضمن كرّاسات تونس C.T.، 1981، العدد 117 - 118 ، ص 73- 90؛ ج كيوك J.Cuoq **الكنيسة في شمال إفريقيا من القرن الثاني إلى القرن الثاني عشر**، نشر لوسنتوريون Le Centurion ، 1984، ص 164؛ محمد الطالبي، **القانون والاقتصاد بإفريقية في القرن الثالث هـ / الحادي عشر م. الملامح الزراعية ودورالعبيد في اقتصاد البلاد**، ضمن دراسات في تاريخ إفريقية، تونس 1982، ص 204- 207. ترجمة أنكليزية (The Islamic Middle East. 700 - 1900) نشر A .L. Udovitch ، برينستن 1981 ص 222-224؛ نفس المؤلف، **على ذكرابن الرقيق** (ضمن مجلة ARABICA ، 1972، ج XXX، ص 86-96.

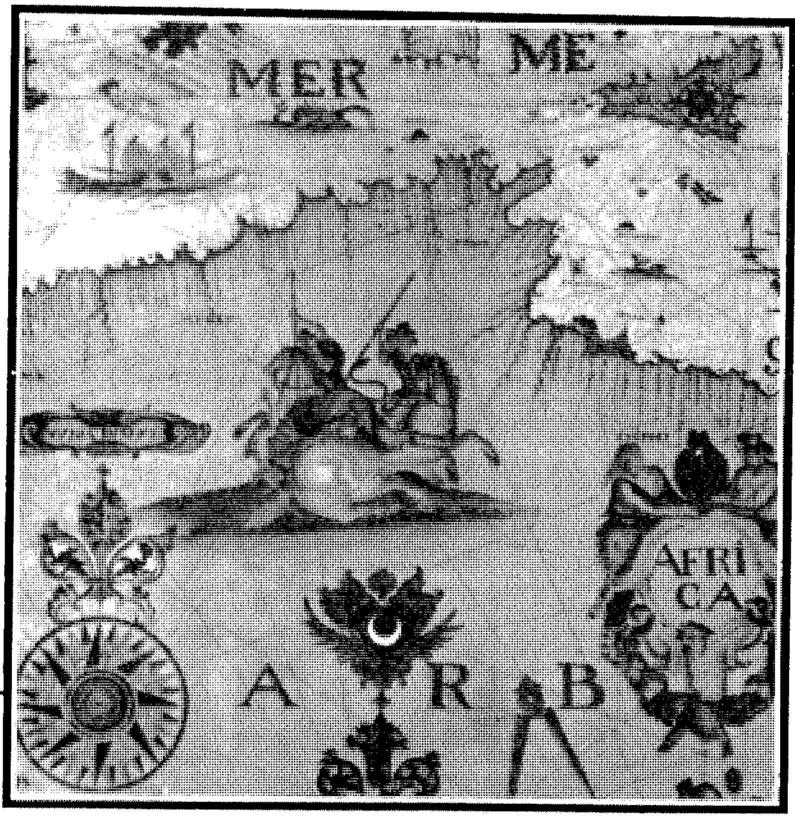
---

* صدرت الترجمة العربيّة لأطروحة هـ. ر. إدريس عن دار الغرب الإسلامي سنة 1992 ترجمة حمادي الساحلي، جزآن : 492-514ص.

جرة نسب الأمراء الصنهاجيين



مواقع



إفـــريقيـــة

إفريقية هي الجزء الشرقي من المغرب العربي الاسلامي، لذلك أطلق عليها عدد من المؤرخين المعاصرين اسم بلاد البربر الشرقية .

ومما لا مجال للشك فيه ــ مهما كان مذهب المؤلفين العرب في هذا الموضوع ــ أن لفظة افريقية مقتبسة من الكلمة اللاتينية **أفريكا**Africa. وإذن، فالكشف عن أصل الكلمة العربية يرجع في نهاية الامر إلى فكّ أسرار اشتقاق اللفظ اللاتيني التي لا تزال تتحدى فطنة الباحثين منذ أقدم العصور إلى يومنا الحاضر. وإنه من الثابت أن لفظة أفريكا وغيرها من الصيغ الأخرى المشتقة من الجذر اللغوي آفر (ج. أفري) Afer, pl. Afri قد وردت في المصادر اللاتينية القديمة قبل سقوط قرطاج بوقت طويل، ونعلم بالخصوص أن شيبيون الأكبر (235 ـ 183 ق.م) قد

نح بعد انتصاره على حنبعل في واقعة زاما (سنة 202) لقب الافريقي Africanı، وقد ورد ذكر صيغة الصفة « افريقي » Africus مرات عديدة في هد سابق لسقوط قرطاج (سنة 146 ق. م)، وقد ألحقت رومة بعد لك أراضي قرطاج بأراضيها وسمتها « المقاطعة الافريقية » Provincia Afri أو «الافريقية» Africa بإضمار الاسم الموصوف (انظر غزال Gsell، **تاريخ القديم** : ج VII ، ص 2) . وهذه المقاطعة الافريقية Provincia Africa انت موطن الأفارقة Afri وهي التسمية التي كانت مقصورة في أول الأمر لى السكان الأصليين الموجودين على أراضي قرطاج — بل وقد حصل حيانا الفصل والمقابلة بين هذه التسمية وبين تسمية البونيين Poeni أو قرطاجيين (Carthaginienses ـ قبل أن تشمل أيضا في خاتمة الأمر هؤلاء قرطاجيين أنفسهم كما نستنتج ذلك من اللقب الممنوح لقاهر حنبعل. هذه هي المعطيات الثابتة التي نملكها بخصوص هذا الموضوع .

ابتداء من هذه النقطة تصبح خطواتنا أقل ثباتا وأرضيتنا كثر اهتزازا. فما هو على وجه التدقيق أصل كلمة أفريكا Africa؟ إننا نملك بهذا الخصوص أية معلومات ثابتة بصورة يقينية مسلم بها بإجماع الباحثين. وقد كان فورنال Fournel سنة 1875 علن في غير مواربة : « لا اتردد في التأكيد أننا نجهل ذلك تماما » (انظر مؤلفه: **البربر**Berbers، ج I ، ص ؛)، وبعد مرور بضعة عقود من السنين يأتي غزال Gsell فيقول صيغة الاعتراف : « من الأفضل الإقرار بجهلنا بخصوص أصل هذه كلمة « (انظر **التاريخ القديم** ، ج II ص ،5)، هذا وإننا لسنا اليوم بأوفر حظا أو أكثر تقدما في هذا الباب مما كنا عليه في الماضي. على أنّ العديد من نظريات والتفسيرات المتفاوتة من حيث البراعة والقدرة على الاقناع قد ت المجازفة بتقديمها طوال الفترة الممتدة من العصور القديمة إلى عصرنا لحاضر. ويمكن تصنيف هذه النظريات في قسمين كبيرين :

ـ **الاشتقاقات الاسطورية** : لقد تم منذ أقدم العصور اقتراح العديد ن النظريات القائمة كلها على أساس أسطورة الانتساب إلى أصل وهر إلاهي أو بطولي خرافي من نوع ما كان سائدا لدى قدمين. وعلى هذا الأساس فإن أفريكا تكون موطن أولاد آفر Afer، هو ابن « الاميرة » ليبيا « Libye التي كانت أصيلة البلاد، أو إحدى

بنات الإله « جوبيتار » أو الإله «نبتون» أو «إيبافوس Epaphu » (انظر دافزاك d'Avezac، **افريقيا**، ج IV) أو هو ابن هرقل ليبيا، او ابن كرونوس وفيليرا Crons et Philyra، أو ابن ابراهيم وستورة، أو حفيد ابراهيم وقائد حملة حربية، بليبيا، الخ (انظر المراجع في كتاب غزال Gscll، **التاريخ القديم**: ج II ص 4) .

أما العرب الذين كانوا بالتأكيد لا يجهلون تماما هذه الأساطير التي كانت شائعة فيما يبدو بالبلاد التي فتحوها ، فانهم لم يكونوا أقل إغراقا في الخيال. لذلك نراهم يتبنون في الغالب نوعا من التفسير متأثرا من ناحية بالأساطير القديمة ومنقولا من ناحية أخرى عن الأنموذج الذي اعتمدوه في تفسير وجود الجنس العربي، أي بالرجوع إلى جد أول يطلق اسمه على بنيه، وهم يدعونه عادة افريقيس Africus أو إفريقيش في بعض الأحيان. وقد يكون هو الذي تسمى باسمه الإفريقيون وبلادهم إفريقية. وهذا التفسير الذي تبناه فيما بعد، مع بعض الفروق في الرواية، غالب رواة الأخبار والجغرافيين العرب يمثل في الواقع رواية واحدة، وهي التي نقلها ونشرها هشام بن محمد الكلبي (المتوفى فيما بين سنتي 204 و206 هـ / 819 و 821 م) .

ولا بد مع ذلك من أن نسجل أن ابن عبد الحكم (187 ـ 257 هـ / 803 ـ 871م) . الذي ينتمي إلى أسرة من الفقهاء والمحدثين الثِّقَاة والذي ندين له بأقدم مصدر مكتوب عن تاريخ فتح إفريقيا قد تعمد فيما يبدو إغفال ذكر هذا التفسير في كتابه . ذلك ان ابن الكلبي لا يعد من أهل الثقة عند كبار الرواة والمحدثين . (انظر ياقوت، **الأدباء**، XIX، ص 287ـ288). أما ابن خلدون المشهور بروحه النقدية فهو لا ينقل لنا هذا التفسير في **مقدمته** (ص 16) إلا كمثال «للأخبار الواهية » التي كانت كتب سابقيه محشوة بها. وعندما يعود ابن خلدون إلى ذكر هذه الرواية (انظر كتاب **العبر**، ج II ، ص 95 ، 100، 107) فهو يكتفي بنقلها دون تحمل مسؤوليتها، أو يبدي بشأنها احترازًا واضحا (كتاب **العبر** ج II، ص 170).

ولا حاجة بنا إلى التأكيد أن إفريقيس أو إفريقيش هذا يقدم إلينا دوما من قبل الإخباريين العرب باعتباره بطلا عربيا محضا. وهم يربطون دائما من قريب أو بعيد تاريخ هذا البطل بجذور البربر وما يحيط بأصلهم من غموض. والعرب في الغالب يعتبرون البربر مشارقة كنعانيين أو حميريين

في الأصل. وهم يذكرون لنا النسب الكامل لإفريقيس مع بعض الفروق في الروايات. ويؤكدون أنه كان من كبار ملوك اليمن في عهد سليمان الحكيم وأنه قام فيما يبدو بفتح بلاد المغرب وأطلق عليها اسمه وركز فيها بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية فاستقرت بها. ويذكر البلاذري (المتوفى حوالي سنة 279 هـ / 892 م) نقلا عن هشام بن محمد الكلبي أن اسمه إفريقيس بن قيس بن صيفي الحميري، ونجد نفس النسب عند ابن خلدون. لكننا نجد له أيضا عدة أنساب أخرى ونرى من بين ذلك من يسميه أحيانا إفريقيس بن أبرهة بن الرائش (انظر المسعودي، **مروج الذهب**، الفهارس؛ البكري، **المسالك** ، ص 21؛ ياقوت، ج I، ص 228) .

ويورد الاخباريون العرب رواية أخرى من النوع الأسطوري أيضا يصبح فيها البطل الذي أطلق اسمه على إفريقية ينحدر من سلالة الأنبياء المذكورين في أسفار التوراة. وتفيد هذه الرواية التي نجد فيها صدى للأسطورة اليونانية اليهودية التي ينقلها جوزافJosèphe (انظر تيسو Tissot **استكشاف علمي للبلاد التونسية**، ج I، ص 389، تعليق 5) أن هذا البطل هو فيما يبدو أفريق Aphera ابن ابراهيم الخليل من زوجه الثانية فاتوراء Cethura (انظر البكري، **المسالك** ص 21) أو انه فارق بن بيصر بن حام بن نوح (ياقوت، ج I، ص 228) ويذكر ابن أبي دينار (انظر**المؤنس** : ص 19) أنسابا أخرى لهذا البطل تعتمد أيضا على سلالات التوراة) .

2 ـ الاشتقاقات اللغوية : أورد كل من البيروني (المتوفى سنة 442هـ / 1050 م) فيما نقل عنه ياقوت (ج I ص 228)، والزبيدي (**تاج العروس** ج VII ص 46)، وابن ابي دينار (**المؤنس**، ص 19) تفسيرات أخرى بالرجوع إلى الجذر اللغوي العربي (ف رق بمعنى فصل) الموجود في لفظة إفريقية. وقد ذكروا لنا أن إفريقية سميت كذلك لأنها « فرقت بين مصر والمغرب » أما بالنسبة إلى الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الافريقي (Léon l'Africain) فقد سميت كذلك لأنها مفصولة عن أروبا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط .

وقد وضعت كثير من الاشتقاقات الأخرى بالرجوع دائما إلى الجذر اللغوي، أورد بعضها المؤلفون القدامى. و اقترح بعضها الباحثون المعاصرون، وهي مستمدة من أصل لاتيني أو يوناني أو سامي . فقد

رجعوا بأصل اسم أفريكا Africa إلى اللفظ اللاتيني aprica (بمعنى الساخنة) وهو الاشتقاق الذي ذكره ايزيدور Isidore:

" Africam quidam inde nominatam existimant, quasi apricam, quod sit aperta vel soli et sine horrore frigoris". وسرفيوس (Sarviys)، (انظر تيسو (Tissot) **استكشاف علمي للبلاد التونسية** ج I، 289، تعليق 2؛ غزال (Gsell)، **افريقيا** ج VII ، ص 3، تعليق 8 . كما أشارإلى ذلك الاشتقاق أيضا المؤرخ ابن أبي دينار الذي اعتبر اللفظ اللاتيني بمثابة جذر لغوي عربي فكتب يقول : « قال ابن الشباط ناقلا عن بعض المصادر إن افريقية كانت تسمى ابريقية Aprica، وهي كلمة مشتقة من البريق، لصفاء سمائها من السحب». [انظر **المؤنس**، ص 19]. كما رجعوا بأصل الاسم إلى الكلمة اليونانية (a- phrike) أي بدون برد [انظر دافزاك d'Avezac **افريقيا**،ص 4]،أوبالخصوص إلى الجذر اللغوي السامي(ف ر ق). فالباحث الأول وهو م. دافزاك M.d'Avezac بدأ بالاشارة إلى أن بعضهم قد سعى إلى أن يجد في كلمة إفريقية معنى «الأرض الخصبة بالسنابل، أو بلاد النخيل، أو المنطقة المغبرة، أو الإقليم المتفرق المشتت. أو أرض برقة » . ثم أضاف يقول : « لكن كم تبدو هذه الافتراضات متكلفة متصنعة بالقياس إلى ما كان أكده سويداس Suidas بكل بساطة عندما أعلن أن إفريقيا هي الاسم القديم لقرطاج نفسها...» أما معنى الاشتقاق الجذري لهذه التسمية القديمة، فهذه لغة قرطاج نفسها تمدنا به بكل بساطة وطبيعية إذ تشير في كلمة افريقية Afryqah إلى مركز منفصل أو مستعمرة لقاعدة صور. وجاء العرب فاستعملوا اشتقاقا قياسيا و سموا الأرض التي تنتسب إلى افريقه العتيقة «إفريقية» .

وهذاالتأويل الذي تبناه دي سلان deSlaneورفضه كل من فورنال Fournel وتيسو Tissot وغزال Gsell ، يصطدم بعقبتين رئيسيتين :

ـ أ ـ فإنه ليس من الثابت مطلقا أن قرطاج قد كانت تسمت باسم «افريقية» في العصور القديمة. فالشهادة المنفردةالتي قدمها سويداس في هذا الباب عندما قال Carthago, quae Africa et Byrsa dicta fint إنما هي شهادة كاتب متأخر (من القرن التاسع والعاشر) لا يثق به العديد من الباحثين . فكلامه إذن لا يمثل دليلا حاسما. [انظر فورنال، **البربر** ج I، ص 24 تعليق 2؛ غزال، **افريقيا** ج VII، ص 3 تعليق 2].

- ب - ومن ناحية أخرى، وبالإضافة إلى عقبات الاشتقاق، فإن كلمة آفر Afer ومشتقاتها - وهي ألفاظ غير لاتينية بدون شك - لم يقع العثور عليها في أي نقش كتابي بوني، لا في عهد غزال [انظر **افريقيا**، ج VII، ص 4]، ولا حتى في أيامنا الحاضرة .

حينئذ تمّ اللجوء بطبيعة الحال إلى التفكير في اشتقاقات أخرى بالاعتماد على اللغة البربرية : انطلاقا من كلمة افري (= مغارة) أو من إفران أو بالخصوص من اسم قبيلة أوريغة. وقد تقدم بفكرة هذا الاشتقاق لاول مرة الباحث كارات Carette مستوحيا إياه من اشتقاق كلمة ليبيا المتداولة عند اليونان والتي أطلقت في بادىء الأمر على بلاد قبائل ليبو Lebou أو اللواتة. وقد كتب بخصوص أصل كلمة أفريكا، ناسجا في تفكيره على منوال المثال السابق فقال : « كانت هذه الكلمة بالنسبة إلى المعمرين الفينيقين بقرطاج مثلما كانت كلمة ليبيا عند المعمرين اليونان بقريني Cy-rène ... أي تسمية مقتبسة من الشعب الذي يحصل أول اتصال به، وهي تسمية يكون قد تم بعد تكريسها في نطاق تقاليد البلاد. بل أن تسمية أفريكا قد سبقت تسمية ليبيا مثلما كان انتصاب القرطاجيين سابقا لارتكاز القرينيين [انظر **بحوث** ... ص 309-310]. وبعد أن أضاف كارات أن «هذا الاشتقاق في تسمية افريقيا لا يقوم على أساس وثائق » وأنه يعتبره مع ذلك اشتقاقا « محتملا » حاول أن يثبت، بواسطة تحميل بعض الدلائل الضعيفة أكثر مما تحمل، أن قبائل أوريغة كانت تسكن حسب المفروض في أقدم العصور، البلاد التي أصبحت تحتلها دولة قرطاج. وفي عهد حكم هذه الدولة « تم القضاء ، فيما يبدو على قبيلة أوريغة هذه (= أوريغة) وتشتيتها، باستثناء الهوارة وهم بطن منها ... » (انظر **بحوث** ... ص 311) .

وقد رجع إلى القول بهذا التفسير وإلى تبنّيه كل من فيفيان دي سان مارتان Vivien de Saint Martin وتيسو Tissot اللذين يريان أن الاوريغة هم نفس الأفارقة الذين ذكرهم الجغرافيون العرب، ونفس « الايفوراكس » ifuraces الذين يتحدث عنهم كوريبوس Corippus ونحن نعلم اليوم أن الجمع بين كل هذه المسميات في هوية واحدة هو من قبيل المجازفة. هذا وإن تأويلات كارات (Carette) ليس لها من أساس سوى بعض الافتراضات الواهية البناء. وإذ لم نظفر بأي تفسير ثابت

يقيني في هذا الباب، وإذا ما أبينا النسج على منوال فورنال Fournel أو غزال Gsell في التزام جانب الحكمة والإقرار بجهلنا، فقد يكون الافتراض الأبعد عن المجازفة والخطأ هو القول بأن لفظ أفريكا (= إفريقية) مشتق من الجذر اللغوي السامي (ف ر ق). وفعلا فبما أنه لا يمكن أن يكون الرومان قد وجدوا هذا اللفظ في لغتهم ذاتها ولا أن يكونوا اقتبسوه عن اليونان ـ الذين كانوا يطلقون على إفريقيا اسم ليبيا ـ فلا يبقى إذن من احتمال آخر سوى أنهم تلقوه من أسلافهم البونيّين الذين أورثوهم البلاد بعد أن دارت عليهم دائرة الحرب والسلاح. وفعلا فإن عبارة البلاد الافريقية Terra Africa أو المقاطعة الافريقية Provincia Africa ـ وهي ما عرف عند العرب بإفريقية ـ أطلقت في أول الامر على الأرض التي وقع انتزاعها من قرطاج وإدخالها في حكم رومة. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي تم إثباتها بصورة لا تدع مجالا للشك أو النزاع.

ويوجد بعض التردد في النطق بكلمة إفريقية. وهو ناشيء عن عدم ضبط الحركات في الكتابة العربية. فبعض أصحاب المعاجم يوردون اللفظة بدون حركات ولا يضبطون طريقة نطقها للقارىء [انظر **القاموس**، III، ص 275، **الصحاح**، ج IV. ص 1543]. أما عند ابن دريد [انظر **الجمهرة**. ج I ص 126] فإن الكلمة قد ضبطت بصيغة: «إفريقيّة» بتشديد الياء. ولا ندري هل أن القائم بضبط حركات هذه الصيغة هو مؤلف الكتاب أو ناشره. ويؤكد ابن منظور (انظر **لسان العرب**، ج. X، ص 307) أنه ينبغي أن ننطقها «مخففة الياء»، ويذهب الزبيدي (انظر **تاج العروس**، ج VII، ص 46) نفس المذهب فيذكر لنا أنه يجب قراءتها «بالكسر... وهي مخففة». ويضيف هذان المؤلفان أن جمع إفريقية هو أفاريق ويستهديان ببيتين للشاعر الأحوص لا نرى فيهما دليلا قاطعا. أما ابن أبي دينار فهو يرسم الكلمة بصيغة إفريقيا تارة (كما ورد في العنوان مثلا) وبصيغة إفريقية طورا. (انظر **المؤنس**، ص 19).

أما اليوم فإن الاستعمال الغالب شيئا فشيئا هو أن يطلق اسم إفريقيا على القارة بأكملها، وتخصص صيغة إفريقية لتسمية المنطقة الترابية العربية الاسلامية التي كانت تحمل هذا الاسم في العصر الوسيط.

حدود افريقية : يكتنف حدود هذه المنطقة الترابية غموض كبير.

فالمعطيات التي يوردها مختلف الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين ليست دائما متطابقة، ومن المؤكد أنّ الحدود الثابتة لافريقية لم تكن في أذهانهم واضحة تمام الوضوح. وبوجه عام فإن إفريقية كانت بالنسبة إلى مؤرخي الفتح الأول تطابق المنطقة التي كان يحكمها البطريق غريغوريوس (أو جرجير) وكانت سلطته تمتد من طرابلس إلى طنجة (انظر ابن عبد الحكم (المتوفى سنة 257 هـ / 871 م)، **فتوح إفريقية** ... ص 42-43، البلاذري (المتوفى سنة 279هـ/ 892م)، **فتوح البلدان**، ج I، ص 267 على أننا نرى نفس البلاذري، قبل ذلك بصفحة ينقل قول عمرو بن العاص من كتاب له موجه إلى عمر بن الخطاب : « بلغنا طرابلس وهي مدينة بينها وبين إفريقيامسيرة عشرة أيام». أما في رأي الورّاق (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) وهو أحد مصادر البكري (انظر **المسالك**، ص 21) فإن « حدود إفريقية تمتد طولا من برقة في الشرق إلى طنجة الخضراء المسماة أيضا موريتانيا في الغرب. أما عرضا فإن هذه الحدود تمتد من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان. » (انظر أيضا ياقوت ج I، ص 228؛ الحميري، **الروض**، الورقة 75؛ ابن أبي دينار ، **المؤنس** ص 20). وهكذا فإن إفريقية كانت في نظر كل هؤلاء المؤلفين تشمل كامل المغرب الاسلامي تقريبا. وقد طرأ على هذا المفهوم تدريجيا شيء من التعديل والدقة عند بعض المؤرخين الآخرين بصورة مواكبة للتقلبات السياسية التي شهدتها البلاد على وجه الخصوص .

فالجغرافي ابن خرداذبه (المتوفى سنة 272 هـ / 885 م) الذي يقسم العالم المعمور إلى أربعة اقسام ، يختار استعمال الاسم الذي اصطلح عليه اليونان في تسمية القارة الافريقية فيسميها لوبية (= ليبيا) ويدخل في نطاقها مصر والحبشة وبلاد البربر وغيرها (انظر **المسالك**، ص 24-25). وهو يخصص لفظ افريقية ليطلقها على إمارة الأغالبة ويذكر أهم المدن فيها (**المسالك**، ص 6-7). وإنا لنشاهد هذه النزعة في حصر إفريقية ذاتها، على أقصى ما بلغته من اتساع، في المملكة التي حكمها الأغالبة، عند معظم الجغرافيين الآخرين (ابن الفقيه (المتوفى حوالي سنة 290هـ/ 903م)؛ **البلدان** ص 30-31: الاصطخري (المتوفى حوالي سنة 350 هـ/ 961م)، **المسالك**، ص 33؛ ياقوت (المتوفى سنة 626هـ/

1229 م)، ج I ، ص 228 ؛ المراكشي (المتوفى حوالي سنة 647 هـ/ 1249 م) **المعجب**، ص 273، 433، 442). وقد كانت هذه المملكة تبدأ من شرقي بجاية وتمتد حتى تقف على بعض فراسخ من برقة . (انظر اليعقوبي، **البلدان**، ص 215) .

هذا في حين يرى سحنون (المتوفى سنة 240 هـ / 855 م) أن حدود إفريقية كانت تمتد من طرابلس إلى تبنة » (حسب الداودي، **الاموال**، ضمن **مزائج** Mélanges **ليفي بروغنصال**، جII ص 409) . أما بالنسبة إلى المقدسي (المتوفى سنة 375هـ/ 985م) فإن « أول ما يعترضك عند خروجك من مصر كورة برقة، تليها إفريقية، ثم كورتاهرت وسجلماسة وفاس، ثم السوس الأقصى » (انظر **أحسن التقاسيم** : ص 4-5). وهو يذكر من بين مدن إفريقية جزيرة بني زغناية (أو بني مزغناي أي الجزائر) وما تيجة أي (المتيجة) وآشير، وهذه مناطق لم تكن في أي يوم من الأيام خاضعة لسلطان الأغالبة . ولنذكر في آخر هذا الاستعراض أن ياقوت يحدّها غربا - حسب ما يراه البعض - ببجاية أو بمليانة، في حين يذكر ابن أبي دينار أن كلمة إفريقية لم تعد تطلق في عصره (أي في أواخر القرن السابع عشر) إلا على سهل مجردة حتى مدينة باجة (**المؤنس** ص 20). ولا يزال هذا المعنى مستعملا إلى اليوم في لغة أهل البادية بالبلاد التونسية .

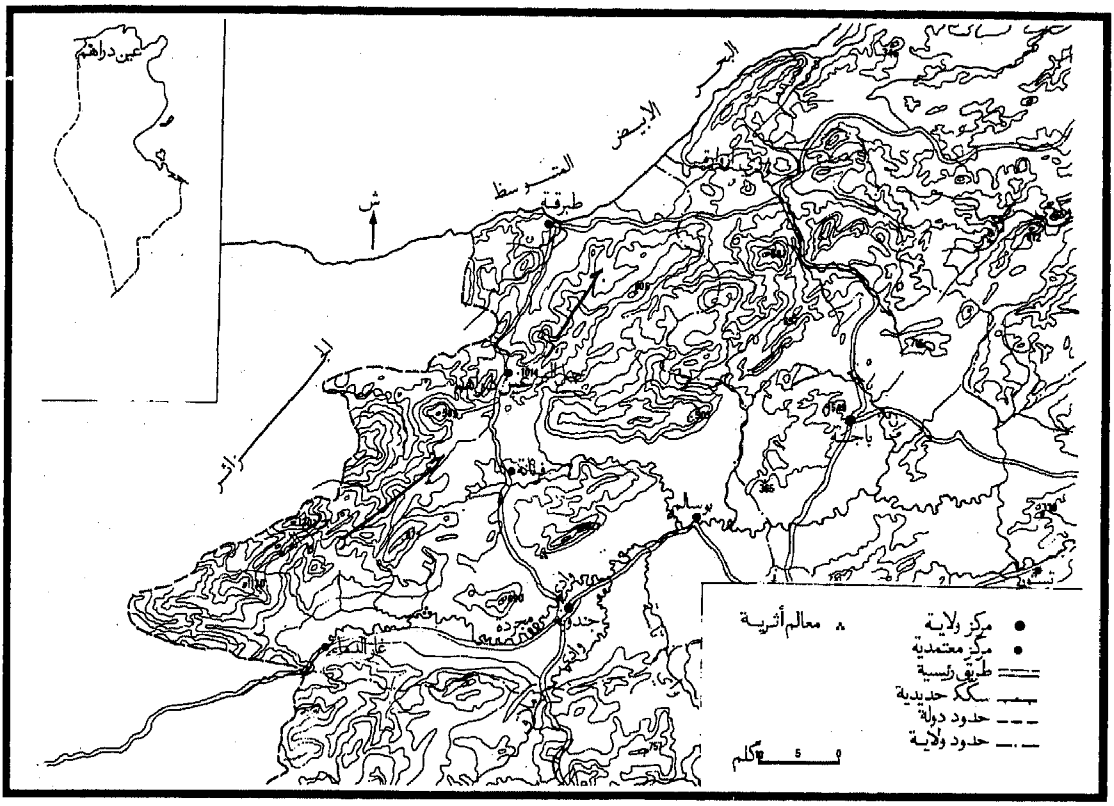
وجملة القول أنه قد تم التوسع أحيانا بمعنى إفريقية حتى شملت كامل بلاد المغرب كما جرى اعتبارها في بعض الأحيان الأخرى منطقة جغرافية قائمة بذاتها. ويمكن أن نقول إن الرقعة الجغرافية لإفريقية كانت تشمل أساسا رقعتي البروقنصلية والمزاق Byzacène اللتين تكونان النواة الأصلية فيها. وتضاف إليهما عرضا واستطرادا مقاطعات طرابلس، ونوميديا الأوراس بل وجزء من نوميديا السطيفية أحيانا. وقد كان يركّب على هذا المفهوم الجغرافي مفهوم آخر إداري. وبهذا الوجه فإن الاخباريين كانوا يذهبون في كتاباتهم إلى إطلاق اسم افريقية على الرقعة الترابية التي كان مرجع حكمها في العصر الوسيط مركزا بالتداول وفي قاعدة القيروان ثم المهدية ثم تونس، وقد كانت هذه الرقعة تتسع وتضيق بحسب ظروف التاريخ وتقلباته. لذلك كان استعمال لفظ إفريقية محاطا في غالب الأحيان بقدر كبير من الغموض، فلم يكن معناه يتضح ويستقيم إلا في ضوء السياق المقصود والفترة التاريخية المعنية .

ثبت المراجع

المؤرخون والجغرافيون العرب : ابن عبد الحكم، **الفتوح**، تحـ. مع ترجمة جزئية لـ أ. غاطو A.Gateau، الجزائر 1948، ص 34 ـ 35 ، 40 ـ 42 ؛ اليعقوبي ـ فيات Wict، ص 215؛ الطبري، **التاريخ**، القاهرة 1939، جIII، ص 254 ابن خرداذبه، **المسالك**، تحـ. مع ترجمة جزئية لحاج صادق، الجزائر 1949، ص 30- 31، 38-39؛ البلاذري، **الفتوح**، تحـ. المنجّد : القاهرة 1956، ج I، ص 266 ـ 275 المسعودي، تحـ. وترجمة بلا Pellat ، الفقرات 1002، 1027، 1086؛ الداودي، **الاموال**، تحـ. مع ترجمة جزئية لحسن حسني عبد الوهاب وفرحات الدشراوي **في دراسات في الاستشراق مهداة الى روح ليفي - بروفنصال**، باريس 1962، ج II، ص 409 - 428؛ المقدسي، **أحسن التقاسيم**، تحـ. مع ترجمة جزئية لشارل بلا Ch.Pellat، الجزائر 1950، ص 4ـ 5، 12- 13؛ الاصطخري، **المسالك**، تحـ. حيني وغربال، القاهرة 1961، ص 33؛ ابن حزم، **الجمهرة**، تحـ. ليفي ـ بروفنصال E.Lévi-Provençal، القاهرة 1948، ص 410 ـ 411؛ البكري، **المسالك**، تحـ. مع ترجمة لدي سلان de Slane، باريس 1965، ص 21 ؛ ياقوت، ط. بيروت 1955، جI، ص 228ـ 231؛ المراكشي، **المعجب**، تحـ. محمد سعيد العريان القاهرة 1963 ، ص 273 ، 433 ـ 442؛ أبو الفداء، **التاريخ**، ج I ، ص 102؛ ابن عبد المنعم الحميري، **الروض**، مخطوط بمعهد الدراسات الاسلامية بباريس، الورقة 75؛ ابن خلدون، **كتاب العبر** ، بيروت 1956، ج I ص 16ـ 17، ج II ، ص 95ـ96 ـ 108 ،109، 170ـ 171؛ ليون الافريقي Léon l'Africain، **وصف افريقيا**، ترجمة ايبولار A.Epaulard، باريس 1956، جI، ص 3ـ 4؛ ابن ابي دينار، **المؤنس** تحـ. م.شمام، تونس 1967، ص 19ـ 21.

الدراسات الحديثة (هذه القائمة تستعرض (بصورة تقارب الشمول) المصادر اليونانية واللاتينية، بصرف النظر عن المصادر العربية :

M.d'Avezac , **Afrique, esquisse générale de l'Afrique et Afrique Ancienne**, Paris 1844,4-5 ; E.Carette , **Recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique Septentrionale** ,Paris 1853 , 306 - 12 ; M.G.de Slane, **Histoire des Berbères**, Alger 1956, IV, 564 - 5 , 571 - 2 ; M. Vivien de Saint-Martin , **le Nord de l'Afrique...**, Paris 1863, 149 - 152 ; H.Fournel, **les Berbers,** Paris 1875 - 81 , I , 23 - 32 ; Ch.Tissot , **Exploration scientifique de la Tunisie,** Paris 1981, I, 388 - 91 ; St.Gsell, **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, Paris 1930 , VII, 2 - 8 (exposé le plus clair sur la question) . E.F.Gautier, **le passé de l'Afrique du Nord,** Paris 1952, 125 - 6. M.Talbi, **L'Emirat Aghlabide,** Paris 1966, 122 - 9; H.Djaït, **la Wilaya d'Ifriqiya au II / VIIIe siècle) dans S.I.** 1967, XXVII, 88-94; voir aussi: **Algérie, Berbères, Libye, Maroc, Tunisie** (in E.I).



خــمــيــر

خُــمَــيِر (أو خمْير، كما ينطقها الأهالي باللّهجــة المحلية) هو عنصر من سكّان تـونس سمّيت باسمــه السلسلة الجبليــة الممتدة على ســاحل البحر بــالشمال الغــربي من البلاد. وجبــل خمير ومنطقته هما جــزء من ولايــة جندوبة التي تســاوي مساحتها 3000 كلم مربع وتــؤوي من السكّان عددا يســاوي 255000 نسمة، منهم225000 من الريفيّين (إحصاء ماى 1966). وكتلة جبال خمير، التي هي امتداد بالبلاد التونسية لسلسلة الأطلس التليّ مكوّنة من تجاعيد من الحتّ كبيرة التفاوت والفــروق بين جبال وأهواد، ومتجهة من الجنــوب الغربي إلى الشمال الشرقــي. وتوجـد بين طــرفي هذه الكتلــة الجبليّة، الفاصل بينهما منخفض غزوان الكلسي التربــة والمفتوح للزّراعات،

فروق محسوسة رغم وحدة هذه المجموعة . فمنطقة خمير الغربية يبلغ أقصى ارتفاعها بجبل الغرة علو 1202من الأمتار. أمّا المنطقة الشرقية وهي عسيرة المدخل وعرة المسلك رغم تواضع ارتفاعها فإنها تبلغ 1014 مترا في أعلى جبالها ، وهو جبل البير الذي يشرف على مدينة عين دراهم. وإنّك لترى حيثما توجّهت جبالا عميقة الأخاديد ووهادا وعرة المنحدرات تضفي مظهرا بريّاعلى كامل هذه الجهة المكسوّة بغابة تمسح 47000 هكتار، سبعة أعشارها من شجر بلّوط الفلين، وعُشُران منها من شجر الزّان، والعُشرُ الأخير أشجار متنوعة منها الزيتون البرّي. وأمّا نبت الحراج تحت الأشجار فيتكون غالبا من السرّخس. وقد وقع منذ عهد قريب إدخال أنواع أخرى من الأشجار إلى المنطقة مثل شجر صنوبر البندق. ومعدّل نزول الأمطار بمنطقة جبل خمير هو أعلى معّدل بالبلاد التونسية (إذ يبلغ مترا كاملا في السنة، مع حد أقصى بعين دراهم في مستوى 1,575مترا) .

ورغم وفرة الأمطار و أهمية نزول الثلوج نسبيا فإنّ هذه المنطقة الجبلية تشكو نقصا في المياه. فالعيون كثيرة لامحالة لكنّها شديدة التشتت وقليلة الغزارة في الغالب، بل أنّ بعض العيون يغور ماؤها تماما في فصل الصيف .

وفي العهود القديمة لم تبق منطقة جبل خمير بمعزل عن توغّل الرومان ونفوذهم. وكانت تشقّها ثلاث طرق. ففي اتجاه الطول الطريق الرابطة بين قرطاج وهيبورجيوس Hippo Regius التي أصبحت تسمّى بونة ثم عنّابة حاليا، مرورا بهيبود ياريتوس Hippo Diarhytus وهي بنزرت حاليا. وفي اتجاه العرض الطريق التي تصل بين سيميتو Simittu، وهي شمتو الحالية وطبراقة Thabraca أو طبرقة وقد اكتشفت عدّة بقايا من هذه الطريق. ثم الطريق التي تخرج من فاجة Vaga أو باجة الحالية لتوافي نفس مدينة طبرقة عبر تريسيبه. وقد كانت طبرقة في أول عهدها مصرفا تجاريا ساحليا للقرطاجيّين ثم أصبحت ابتداء من القرن الرابع واحدة من أغنى أسقفيات إفريقيا وكانت تزوّد رومة بمنتجات المنطقة مثل خشب البناء والوحوش وكذلك الزيت والقمح والمواد المنجمية. كانت « مدينة ترف للفن فيها منزلته إلى جانب الأعمال التجارية » (كما يقول عنها ب، غوكلار في كتابه **فسيفساء**، ص P.Gaukler, Mosaïque ،:155) وقد قدمّت الينا لوحات فسيفساء زاخرة بالفن والجمال .

ومن الغريب أن منطقة جبال خمير لم يكن لها ذكر في أحداث التاريخ ولم تلفت الانتباه طوال العصر الوسيط كلّه، إذ أنّ صمت مصادرنا عنها كامل. وعلينا أن ننتظر العصور المتأخّرة وخاصة منها العهد المعاصر لنرى هذه المنطقة تدخل في التاريخ، فتبرز لنا كموطن هروب واختباء ومركز مقاومة في نفس الوقت، خارج بصورة كاملة أو تكاد عن سلطة حكّام تونس.

وكان لأهالي خمير علاقات وديّة ومثمرة مع الصيّادين الجنويّين المستقرّين منذ سنة 947 هـ / 1540 م. بجزيرة صغيرة مساحتها 40 هكتارا يفصلها عن طبرقة مضيق بحري عرضه 500متر. لذلك تأثّروا بشدّة عندما قام علي باشا سنة 1153 هـ / 1740 م. باسترجاع هذه الجزيرة عنوة (انظر ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ج 2 ، ص 124)، وفي سنة 1183 هـ / 1769 ـ 1770 م. التفّ أهالي خمير حول الدعي عثمان الحدّاد، الذي وقعت بعد ذلك مباغتته وأسره ثم قتله (انظر نفس المصدر، ج 2، ص 165) وفي سنة 1260 هـ / 1844م. ساندوا دعيا آخر كان يزعم أنّه من ذريّة عثمان باي. وقد وقع هو الآخر في الأسر بالحيلة وضربت عنقه، (نفس المصدر، ج 4، ص 78ـ79 نشر أحمد عبد السلام، ص 116 ـ 117) . وفي سنة 1282 هـ / 1865 م، قام علي باي، على رأس «المحلّة » المكلّفة بجمع الجبايات، باستنزاف كلّ ما يملكه أهالي منطقة باجة، لكنّه لم يجرؤ على الإقدام على دخول منطقة جبل خمير التي لم يدفع أهاليها « المجبى » إلاّ في حدود ما ارتضوه ووافقوا عليه (انظر ابن أبي الضّياف، المصدر المذكور، ج 4، ص 55، 65) لكنّ جبل خمير لم يشارك في انتفاضة سنة 1864 ـ إذ لم تشعر المنطقة أنّها معنيّة بهذا الأمر- ولا في اضطرابات سنة 1867 ـ 1868

ولم تحتلّ المنطقة فجأة مقدّمة الأحداث إلاّ في سنة 1881. فقد كان من عادة أبناء خمير نهب أملاك أجوارهم بما في ذلك أهالي الجزائر. ونظرا إلى أنّ عامل طبرقة ـ الراجع إليه أمرهم مبدئيا ـ لم يكن له عليهم أي نفوذ حقيقي، فقد قررت السلطات الفرنسية ،في نطاق سياسة شديدة التشعّب كانت تشهد تنافس العديد من الدول الكبرى، أن تقوم بردّ الفعل. وشرع الفرنسيّون في شنّ العملية التي آلت إلى انتصاب حمايتهم على البلاد التونسية. ففي 24 أفريل 1881 اقتحمت الجيوش الفرنسية التراب التونسي، وبعد يومين احتلّت هذه الجيوش مدينة الكاف

بدون قتال، وفي 13 ماي جاء دور عين دراهم، ثم قام الجيش الفرنسي في اليوم الموالي بتشتيت جموع بني خمير بموقع ابن مطير إثر معارك شديدة.

أمّا عن أصل سكّان جبل خمير فإنا لا نملك أية معلومات دقيقة أو ثابتة. وإنّا لا نعثر على لفظة خمير في أيّ نصّ من كتابات العصر الوسيط، وفي العهد الذي ألّف فيه ابن خلدون ـ أي القرن الثامن هـ / الرابع عشر م ـ كانت المنطقة الممتدة بين باجة والبحر آهلة بالبربر من قبيلة هوارة، وقد تعرّبوا تماما، وبمن اختلط بهم من العناصر العربية الأصلية، ولاسيما بعض بني هذيل (انظر **كتاب العبر** 6ـ 288ـ289، ترجمة دي سلان ، **البربر**، ج 1 ص 279) .

وبنو خمير يشكّلون بالنسبة للمؤرخ لغزا مبهما يتعذّر حلّه، فهم لا يظهرون إلاّ في القرن التاسع عشر، ولا نكاد نجد عنهم مع ذلك في الوثائق الرسمية سوى بعض الإشارات العابرة بمناسبة قيامهم بنهب أجوارهم في السهول أو عند محاولة « محال » الجيش إرغامهم على دفع الجبايات، لكن بدون جدوى . فمن هم هؤلاء الناس ؟ أماهم أنفسهم فينتسبون إلى العرب . وإنّه يوجد فعلا باليمن منبع ماء يسمّى خميرا (انظر ياقوت ، **البلدان** ، ج 2، ص 390، ج 3 ، ص 406) كما توجد قبيلة قحطانية تدعى بني خمر (انظر القلقشندي، **النهاية** ص 247) وقد يكون خمير تصغيرا لها. وتقول الأسطورة أيضا إنهّم ينحدرون من رجل يدعى خميرا بن عمر ، وهو أحد مشاهير أصحاب عقبة بن نافع فاتح المغرب، ويقال إنّ أحد أولاد خمير هذا، وهو سيدي عبد الله أبو الجمال، قد أنهكه الجهاد في سبيل الله فاعتزل بقلب منطقة الجبال فوق نجد عال يبعد حوالي 5 كيلومترات في اتجّاه الجنوب الغربي من عين دراهم، وانتظر حتى أدركه الموت هناك. وقد أقيمت « زاوية » بذلك المكان مازالت تخلّد تلك الأسطورة وتقوّي اللّحمة بين بني خمير في إكبارهم وإجلالهم شبه الكامل لوليّهم الصالح وجدّهم المفترض. وفي رواية أخرى يكون بنو خمير قد أقاموا أول الأمر بجنوب البلاد التونسية حيث كانوا أتباعا لشابيّة القيروان، وأثناء القرن الثامن عشر اضطروا للهجرة إلى الشمال والنزول بالمنطقة الجبلية التي أصبحت تتسمى باسمهم .

وينقسم بنو خمير إلى عدة عروش وبطون أهمّها بالجهة الشرقيّة من

منطقة جبل خمير : أولاد عمر والحوامديّة وأولاد بن سعيد والسعاديّة والوراهنيّة والطواجنيّة بجهة طبرقة. وسلول وهذيل وأولاد مسلم والخرايصيّة والجدايديّة والجوابليّة والملايكيّة وأولاد موسى وأولاد هلال والحمران والدبابسة وخصوصا العطاطفة بجهة عين دراهم. والقواديّة والتباينيّة والشيحيّة بجهة فرنانة. أما بالجهة الغربيّة من المنطقة فيوجد من البطون بنومازن و أولاد علي والخزارة والمراسن و وشتاتة. ومن العبث أن نحاول التمييز بين العرب والبربر في هذه القبائل. وفعلا فإنّ سكّان هذه المنطقة الجبليّة هم خلاصة تمازج طويل وعميق بين أجناس وعناصر مختلفة،يرجع إلى أوّل العهد الوسيط أو إلى ماقبل ذلك. وقد عجل في حصول هذا التمازج بدون شكّ زحف بني هلال في أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. ثمّ بني سليم في أوائل القرن السابع هـ/ الثالث عشر م. وتجدر الإشارة إلى أن لهجة التخاطب العربيّة الحاليّة لا تشتمل على أي أثر من اللّغة البربريّة و إنّنا نعثر أحيانا على خيمة من خيام الرّحل منصوبة في قلب الجبال، وفي ذلك ما فيه من الغرابة .

أمّا الرحّالون والمهتمّون بوصف البلدان والأقاليم من كتّاب العصور الوسطى فإنهّم لو يولوا جبل خمير في حد ذاته كبير اهتمام، وإنّما تحدّثوا خصوصا عن الطرقات والمسالك. أمّا الأول، وهو ابن حوقل، وقد زار المغرب في آخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، فهو يذكر أنّ « الجادّة » بين تونس وطبرقة تمرّ بباجة (انظركتاب **صورة الأرض**. ص 76) ويذكر البكري، الذي كان يكتب في أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م، أن الطريق بين باجة وطبرقة مقسّمة على ثلاث مراحل مرورا بباسلي ودرنة (انظر **المسالك** 86 ــ87 / 120ــ 121). ويشير الإدريسي (أواسط القرن السادس هـ/ الثاني عشر م) إلى وجود طريقين بين تونس وطبرقة، الأولى تمر ببنزرت والثانية تنفرع عند باجة (انظر **النزهة**84ـ85). ومن البديهي أن هذه الشبكة تتبع من قريب الطرقات والمسالك الموروثة عن العصورالقديمة .

ونحن لا نملك أية معلومات مدقّقة عن المدن أو القرى بجبل خمير طوال العصر الوسيط بأكمله. وأقصى ماهو بالإمكان متابعة تطور مدينة طبرقة. وقد سبق أن رأينا أنهّا شهدت ازدهارا كبيرا في العصور القديمة. وفي القرن الرابع هـ / العاشر م. لم تعد طبرقة ـ حسب ما يرويه ابن حوقل ـ

ســـوى « قريـــة وبيئة » تعشّش فيهـا العقـارب، ليس لها من أهمية سوى مـا تجلبـــه لها حركة السفن بينهــا وبين الأنـدلس ووظيفتها كمركز جمركي (انظر المصـــدر المذكـــور، ص76) .وفـــي القـــرن الخامس هـ / الحادي عشر م. يشير البكري إلى وجـود آثار ضخمـة من معالم تعود إلى العصور القديمة مازالت ماثلة بالمدينة التي احتفظت ببعض الازدهار الناتج عن نشاط مينائها. أمّا في القرن السادس هـ /الثاني عشر م.فإنّ الإدريسي يؤكد لنا أنها لم تعـد سوى حصن قليل الساكن يحيط به أعراب لا عهد لهم ولاذمّة يعيشون على النهب والسلب. وفي خاتمة المطاف أصبحـــت المدينـــــة فـــــي أوائل القرن السادس عشر مجرّد « ميناء مقفر » (حسبما يذكره الحسن بن محمدالفـاسي المعروف بليون الإفريقي في كتاب **وصف إفريقيا** ص 549، Jean-Léon l'Africain, Description de l'Afrique
أمّا اليوم فإنّ طبرقة (وعدد سكانها4000شخص) ** ميناء متواضع يصدّر بالخصـوص إنتاج منطقة جبل خمير من الفلين (من 3إلى4000طن سنويا). وتعيش المدينـة كذلك من الصيـد البحري ومن استغـلال المرجان ــ ولو بصورة محدودة ــ كما أنهّا استفادت، في حدود أكثر تـواضعا من بعض الجهات الأخرى، من النهضة السياحية التي شهدتها البلاد التونسية .

وأهمّ التجمّعات السكنيّـــة بمنطقة جبال خمير هي مـدينة عين دراهم على ارتفاع 800 متر، وهي محطة اصطياف ومركز لصيـد الخنزير الوحشي. أمّا فرنانة وارتفاعها 275 مترا - فهـي بالخصـوص مركـز لسوق أسبـوعيّة. وببّوش ليست سوى قرية حدوديّة على طريق المرور إلى البلاد الجزائرية.

أمّا ابن مطير فهي قرية صغيرة متواضعـة وقع بالقرب منها بناء سدّ على وادي اللّيل سنة 1955 طاقته 73مليون متر مكعب لتوليد الطـاقة الكهربائية وتزويـد مدينـة تونس بـالماء. ويوجد سـدّ آخر بصـدد البناء على مجرى الوادي الكبير.(***)

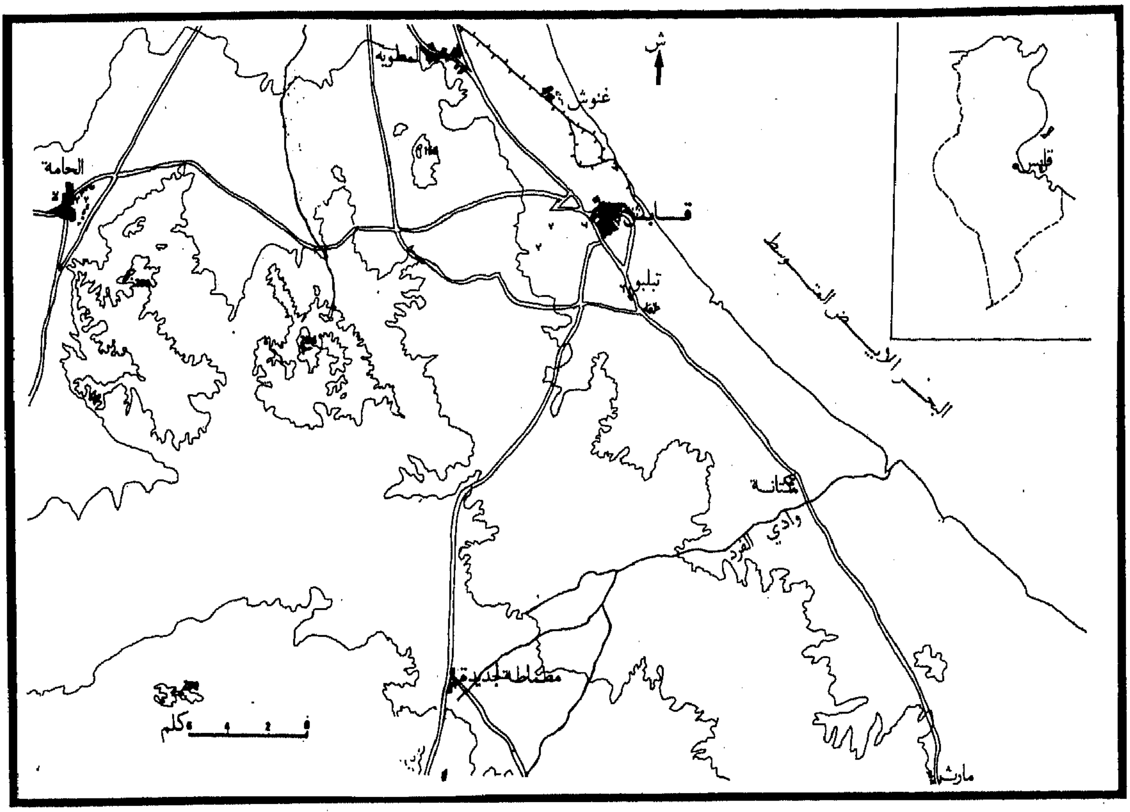
وبالرغم عن الجهود المبـذولة في سبيل التجميع فإن السكن بقي في الغالب متّسما بالتشتّت بحسب عيون المياه ومـواقع الضيعات الزراعية الصغيرة. ولم يقع القضاء تمامـا على الأكواخ المطيّنة أو المتّخذة من أغصـان الشجر ونبت الحراج .

وفي الحقيقة فإنّ منطقـــة جبـال خمير منطقـة فقيرة تقتصر على تعـاطي اقتصـاد أساســه الغابات والمراعي. ومستوى العيش بهذه المنطقـة هو من

أشدّ المستويات انخفاضا بالبلاد التونسية. وأهمّ مورد لهذه الجهة ناتج عن تسويق الفلين. كما توفّر زراعة التبغ أيضا موارد لا بأس بها. أمّا تربية الماشية (من بقر وغنم وماعز) فهي لم تشهد أي تطور ، ولا توفّر سوى دخل ضعيف. هذا وإنّ الجهود المبذولة لتحسين غراسة الأشجار المثمرة بجعل أشجار التفّاح والإجّاص والكرز تتأقلم مع مناخ المنطقة لم تؤدّ إلاّ إلى نتائج محدودة جدّا. أمّا إنتاج الصناعات التقليديّة المحليّة ـ مثل زربية خمير ذات اللون الأبيض والأسود والرملي، وبعض الأدوات من الخشب لوضع الأطعمة وتناولها، والتطريز الخاص بالمنطقة ـ فإنه غير مرغوب فيه خارج الجهة ولا يشغّل إلاّ يدا عاملة قليلة. ولا بدّ من الإشارة أخيرا إلى أنّ المياه المعدنيّة الساخنة الكبريتيّة النابعة ببرج الحمّام والمشهورة منذ العصور القديمة بخصائصها العلاجية الطبيّة، قد كانت منطلقا إلى إقامة محطة معدنية عصريّة بجانب آثار (حمامات ؟) عتيقة، أطلق عليها اسم حمّام بورقيبة. وهذه المحطة التي وقع توسيعها سنة 1973 أصبحت تجلب عددا متزايدا من الزوّار والروّاد التونسيينّ .

المصادر (مرتّبة حسب التسلسل الزمني) : ابن حوقل، **صورة الأرض**، بدون تاريخ، ص 76؛ البكري، **المسالك**، تحـ . وترجمة . دي سلان de Slane باريس ، 1965، ص55 58 / 118 123 ، 83 / 169 ؛ الإدريسي، **النزهة** تحـ. جزئي لهنري بيريس (H.Perès) ، ص 84 9186؛ ياقوت، ط ، بيروت، 1956، ج 2 ص 390 ج 3 ، ص 406؛ ابن خلدون، **العبر**، ط ، بيروت، 1959، ج 6 ص 288 ـ 289؛ (ترجمة دي سلان de Slane ، **البربر**، ط، باريس، 1925، ج 1، ص 279)؛ القلقشندي، **النهاية** ، ط. القاهرة، ص 247؛ محمد بن الحسن الفاسي، **وصف إفريقيا** Jean -Léon l'Africain , Description de l'Afrique ترجمة فرنسية، أ. إيبولار A.Epaulard ، ط. باريس، 1956، ص 549 محمد الصغيّر بن يوسف، **المشرع الملكي**. ترجمة ف. سار V.Serres وم. الأصرم، ط. تونس؛ ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ط. تونس، 1963، ج 2، ص 124، ج 6 ص 55 ، 65 (نشر أحمد عبد السلام، الباب السادس، تونس، 1971 ، ص 116- 117) .

الدراسات : ح. عطية : **التوزيـــع الجغرافـــي لسكّان البلاد التونسية انطلاقا من إحصاء سنة** 1966، بالمجلّة التونسية للعلوم الاجتماعية، العدد 17 ـ 18 ص 505 ـ 524 ؛ أ. دي لابرج (A. de la Berge)، **قصة الحملة الفرنسية بالبلاد التونسية** ، ط ، باريس،1881؛ ف . بـونيـــار F.Bonniard **تونس الشمالية**، ط. بـــاريس ، 1934، ص 101 ـــ 112؛ ر. بـرانشفيك، **الدولـة الحفصيّـة**، ج 1 ص 299؛ ج 2 ، ص 229 ، ج . ديبـوا J.Despois، **إفريقـيا البيضاء**، ج 1، إفريقيا الشمالية ،ط. باريس ، 1958 ص 16، 51، 275-278 ؛ ج. ديبواو ر.راينالR.Raynal **جغرافيا إفريقيـا الشماليـــة الغربيّـة**، ط. باريس، 1967، ص 16، 237؛ ج . غانيـــاج J.Ganiage **أصول الحمايـــة الفرنسيّـــة بتونس**، ط. بـاريس، 1959، ص 175؛ ب. غوكلارP.Gaukler **فسيفساء قبور بمصلّ شهداء بطبراقـــة**، طبعة معـــادة بمجلـــة C.T العدد 77-78 (سنة 1972) ، ص 153 - 201 ؛ ش. غوطـيس ور.سـتـرولCh. Gottis et R. Strohl **السدود الكبرى بالبلاد التونسية**، ط. تونس 1952 ؛ م . ن . الأجري **الإحصاء العـام للسكّان** (مـاى 1966)، في المجلّة التـونسية للعلوم الاجتماعيـة، العدد 17 ـــ 18 (1969)، ص 127 ـــ 170؛ أ.مارتال A.Martel **التخوم الصحراويّة الطرابلسيّة للبلاد التونسية**، ط. باريس، 1965، ص 413-414، 226 &228، 432؛ ب . مارتلوP.Marthelot **الانجـراف في جبل خمير**، في مجلّة جغرافيـة جبال الألب R.G.A، سنـــــة 1957ص 273 ـــ 287؛ نفــــس المؤلّـــف، **مشاكـل غـابية بالبلاد التونسيـــة**، فـي مجلـة كراريس الإعلام الجغرافي ط. باريـــــس، 1954ج 2 ص 35 ـ 47 ؛ أ. بليســــــي دي رينـوE.Pélissier de Reynaud **وصف الإيالة التونسيّة**، ط.باريس. 1853؛ت.ج. بنشون Th.G.Penchoen **اللّغة البربريّة بـالبلاد التونسيّة وتعليم الأولاد الناطقين بالبربرية**، فـي المجلّة التونسيّة للعلـــوم الاجتماعيـة، العدد 13 (سنـة 1966) ص 173 ـ 195؛ ع. السعيـدي، **تعمير المنطقـة العليـا من مجـــرى وادي مجـــردة** في نفس المجلّـة التونسيـة للعلوم الاجتماعيـة، العدد 40 ـ 43 (سنة 1975) ص 185 ـ 233 ؛ ب . سـلامـة P.Salama **المسالك الرومانيّة بإفريقيا الشمالية**، ط. الجزائر1951؛ الكتابة العامة للحكومـــة التونسيـــــة، **أسمـــاء القبائل التـونسيّة وتوزيعها**، ط. شالـــــون سيرصــــــون، 1900. ص 214 ـــ 224 ؛ م. صوليـنيـاك M.Solignac **دراسـة جيولـوجيّة لشمـــال البـلاد التـونسيّة**، ط. تـــونس 1927؛ ل.فـالنسي L.Valensi؛ **الفلاّحون التونسيّون**، ط. ليل، 1975، ص 282؛ أ. فيولارE.Violard. **تونس الشماليّة**. ط. تونس 1906، ص 5 ـ 79، (ز*** / Z***) **تقييـــدات عن قبائل الإيالـــة التونسيّة** في المجلّة التونسيّة: R.T. العدد 9 (السنة 1902) ص 5.



قابس

قابس مدينـــــة بالبلاد التونسية تقـــع على ساحــــل الخليــــج المسمّى بنفس الاســـم (وهوالمعـــروف في العصور القديمـــة بسيرتا الصغرى)، على مسافة404 كلم جنوبي مدينة تونس، وعلى بعد 150 كلم من مدينة قفصة. وهي تعد 40 ألف ساكن، منهم 1200 من الأوروبيين، وتمثل القاعدة الإدارية لولاية تضم 204 آلاف نسمة ـ حسب إحصاء سنة 1966). (*) وتتكون قابس المدينـــة ـ التي تم تقسيمها منـــذ سنـة 1957 إلى أربـــــع دوائر ـ من البلدتين القديمتين المعروفتين بـ « المنزل » في عالية وادي قابس، و«جارة» بسافلة هـذا الوادي. وقد كانت تـوجد بين هذين الربضين عـداوات قديمة وأحقاد متأصلـة ومنازعـات ضاربـة في أعماق التاريخ، وقـد انضاف إلى

هذين التجمّعين، منذ انتصاب الحماية الفرنسية، حيّ عصري جديد أطلق عليه اسم باب البحر أو قابس الميناء، ويقع في أدنى المدينة، ومبان أخرى أحدث عهدا تمتد في اتجاه الجنوب. وقد حلّ الدمار بكلّ من المنزل وجارة في سنتي 1959 و 1962 من جراء الفيضانات الجارفة بوادي قابس. وقد تم اليوم كبح جماح هذا الوادي بواسطة قناة تحويلية متفرعة عن مجراه تجرف مازاد عن الحدّ الطبيعي من مياهه وتصُبّها مباشرة في البحر، ذلك أن مدينة قابس تقع بأسفل منخفض يحدق به شمالا أحد منعطفات الوادي وتحدّه جنوبا مرتفعات سيدي أبي لبابة - حيث يوجدمقام الرجل الصالح شفيع المدينة وحاميها، الذي يقال إنّه من صحابة الرسول -، ومشارف «المنارة » ذات المشهد الشامل البديع، حيث كان ينتصب في العصر الوسيط برج بأعلاه منارة، وحيث أقيم بعد سنة 1962 حيّ شعبي يؤوي المتضرّرين من الفيضانات السابقة.

ويوجد بواحة قابس، حسب ما يؤكده ع. البشراوي الذي خصّها بدراسة حديثة العهد، عدد من الأشجار يساوي 1.400.000 أصل، منها 650.000 من النخيل (وهي ذات تمور غير جيدة)، أي ما يعادل نسبة 47% من المجموع.وتأتي بعد ذلك 107.000 من أصول الرمان من النوع الممتاز تحتلّ بها قابس المرتبة الثانية في الانتاج التونسي، ثم أشجار الخوخ وكروم العنب وأشجارالمشمش، ولا يصلح الزيتون ولا تكون زراعته ناجحة إلّأبجهات كتّانة وطبلبو ووذرف والمطويّة. وتبلغ أشجار الموز مرحلة الإثمار والنضج، لكنّ عددها قليل. أمّا الزراعات على وجه الأرض فهي تتمثل في الحبوب، بمقدار قليل، والأعلاف وخاصّة البرسيم، ثم التبغ والحناء والخضر والبقول، ومنها « السّكوم » أو الهليون، الذي دخل المنطقة حديثا. وأما الماشية فعددها قليل إذ أنّ تربية الحيوان تكتسي في الغالب طابعا عائليا وصبغة تكميلية من حيث القيمة. والبحر على سواحل قابس - على قلة عمقه وكثرة أسماكه - يكاد يكون غير مستغلّ. هذا وقد بلغ توسّع الواحة أقصى حدوده بحكم ارتباطه بطاقة الرّي، ذلك أن الطبقة المائية الجوفية المستغلة فوق طاقتها وإمكاناتها (قرابة 60 بئرا عميقة من 1890 إلى اليوم، قد قاربت حدّ النّفاد).

وقد تمّ منذ مدة اختيار مدينة قابس لتكون مركزا لتنمية الجنوب التونسي، فوقع في هذا الاطار بناء ميناء يتسع لايواء سفن تبلغ

حمولتها 50.000 طنّ، وتركيز معامل الصناعات الكيميائية المغربية I.C.M، وهي شركة مختصة في صناعة الأسمدة الأزوتية، وينقل إليها الغاز أنبوب يربط بينها وبين حقل البرمة ويزوّد بالطاقة معمل الآجر والمولّد الكهربائي المركزي. هذا وتوفر الصناعات التقليدية والسياحة لمدينة قابس نشاطا إضافيا قابلا لأن يزداد توسعا ونموّا .

التاريخ : قابس هي التسمية العربيّة للمدينة التي كان يطلق عليها في العصور القديمة اسم تاكاب Tacap أو تاكابا Tacapa أو تاكابي Tacapae بصيغة الجمع. واللفظة العربية مستمدّة من الصيغة المتداولة للكلمة في حالة المفعولية، وهي تاكابس Tacapas، مع إسقاط أداة التعريف اللوبية البربرية (تا) . وقد كان موقع قابس معمورا بالتأكيد منذ العهد الحجري الجديد، كما نتبين ذلك من الآثار المتعددة. وبعد ذلك كان الفينيقيون، على أقرب الظنّ، هم أوّل من أسس بذلك الموقع وكالة تجارية مختصة في المبادلات مع بلاد نوميديا وفي التجارة عبرالصحراء. وقد تحول هذا المصرف التجاري إلى مرفإ قرطاجي ثمّ أصبح فيما بعد مستعمرة رومانية. وقد توفرت لدينا منذ ذلك الحين بعض المعلومات المدققة عن المدينة.

ومنذ عهد الامبراطور الروماني تيبريوس (14-37 للميلاد) بدأت أشغال إحياء المنطقة بصورة شاملة ومنظمة كما تشهد بذلك عملية التقسيم المئوي. وقدتم ربط تاكابس بقرطاج بواسطة الدرب الساحلي الكبير. وفي سنة 14 فتحت طريق استراتيجية جديدة تصلها — عن طريق قفصة — بتلابت وحيدرة حيث كان يرابط الفيلق الثالث « أوغسطا » . وبفضل ما كان البونيون قد بذلوه من جهود تمهيدية، ولكن أيضا بفضل هذه الشبكة من الطرقات التي نشّطت حركة الميناء، وأخيرا بفضل مياه وادي قابس الغزيرة ومحاسن السلم الرومانية الشاملة، شهدت المدينة ازدهارا كبيرا يختلف الباحثون في تقدير مداه الحقيقي. وكان محورها يوجد بدون شك فوق الهضبة التي يحتلها اليوم مقام سيدي أبي لبابة. ثم أصبحت خلال الفترة المسيحية مركزا لأسقفية. لكنه لم يتمّ تحصينها إلاّ في زمن متأخرّ جدّا. ويقول ش. ديل Ch.Diehl في كتابه **إفريقيا البيزنطية**، ج I، ص 229 ، ما يلي: « كانت قابس إلى أواسط القرن السادس على الأقل لا تزال بدون أسوار». وقد كانت حمايتها تقتصر على وجود

قلعة Castellum تسد الطريق في وجه الزحف والهجوم عليها ، وهي طريق البرزخ أو المعبر الذي يربط ليبيا بالمزاق ويمرّ بين ساحل البحر وشط الفجاج. وفي هذا الموقع بالذات أصيبت الجيوش البيزنطية بهزيمة مرّة سنة 547 م في مجابهة مع قبيلة الأشتريكس Astrices . ولا شك أنّ مدينة قابس القديمة Tacapas قد تمّ تحصينها على إثر هذه الهزيمة بسور بقي قائما إلى القرن السادس عشر على أقلّ تقدير. هذا ولا تحتفظ قابس اليوم بأي معلم من معالم ماضيها القديم ... وقصارى ما يمكن ذكره في هذا الباب بقايا «السدّ الروماني» على وادي قابس، وبعض الاساطين والتيجان المعاد استعمالها في جامع سيدي إدريس أو في مقام سيدي أبي لبابة، وبعض مواد أخرى أقل أهمية من ذلك استعملت في عدد من مباني الأحياء القديمة .

أما الظروف التي تم فيها دخول قابس في حظيرة الاسلام فهي محفوفة بالغموض. لكنه من الثابت مع ذلك، ورغم تأكيدات الوزير السراج المتأخرة العهد (انظر **الحلل** ج I ، ص 344)، ان عبد اللّه بن سعد لم يحاصرها أثناء غزوته ببلاد المزاق سنة 27 هـ 648/647 م... فلم يتم فتحها إلاّ بعد ذلك بزمان، خلال الحملات التي قادها معاوية بن حديج أو خلفه عقبة بن نافع بين سنتي 34و 50 هـ650/ و670 م. ثم تمّ الجلاء عنها بعد انهزام عقبة وموته بتهودة (حوالي سنة 64 هـ/684 م) فاستقر كسيلة القائد البربري المنتصر بالقيروان. ومن هناك بسط نفوذه، حسبما يذكره ابن عبد الحكم (انظر **الفتوح**، ص 71/70) على المناطق المجاورة ومنها منطقة « باب قابس »، ومن هذا الباب قامت جيوش الكاهنة حوالي سنة74 هـ / 693 ـ 694 م بطرد حسان بن النّعمان خارج البلاد التي جاء بنيّة استرجاعها. لكنّه عاد فدخل هذه البلاد من نفس الباب بعد مرور بضع سنوات .

ومنذ ذلك الوقت دخلت قابس نهائيا في نطاق الاسلام وأصبحت حياتهاجزءا لا يتجزّأ من حياته. ولم تسلم بالخصوص من الزوبعة الخارجية العنيفة التي هزّت أركان افريقية بأكملها بين سنتي 122 و 155 هـ 740/772 م. ففي سنة 123 هـ 741 م. قام عكاشة بن أيوب الفزاري، وهو من قبيلة زناتة ومن أتباع مذهب الصفرية، بالاستيلاء على قابس، وأصبح خطره يهدّد القيروان حتى هزم وقُتل (سنة 125 هـ 743 م). وبعد ذلك ببعض سنوات، وفي ولاية

عبدالـرحمان بن حبيب، سقطت المدينـة من جديد في قبضـة الخوارج، من أتباع الأباضية في هذه المرّة. وقد جَرَى استرجاعها مرّة أخرى وتمّ التغلّب على الثائر اسماعيل بن زياد النفوسي وقتله حوالي سنة 131هـ749/748م وكان اغتيال عبد الرحمان بن حبيب (سنة 137 هـ/ 755 م) مؤذنا باندلاع قلاقـل أخرى واشتعـال نـار ثورة خارجية جديدة بقيت المدينة خلالهـا في أخذ ورد بين ممثلي الاتجاهات والمذاهب المتقابلة المتصـارعة. فقد استولى عليها أبو الخطاب الاباضي في أوائل سنة 141 هـ / وسط سنـة 758 م. وقـام ابن الاشعث بتخليصها سنة 144هـ/ 761م. قبل أن تفلت من يده مرّة أخرى. وفي خاتمة المطاف دخل المدينة يوم 20 جمادى الأولى من سنة 155هـ / 28 أفريل 772م. يزيد بن حاتم المهلبي مؤسس الدولة المهلبيّة واضعا بذلك حدّا، طيلة ربع قـرن، للاضطـرابات الـداميـة التي عمّت المنطقة على امتـداد عشرات السنين .

وفـي عهـد الدولة الأغلبية أصبحت قابـس مركـزا لمقاطعة كاملة ومقرّا لواليهـا، وقـد ذهب الظنّ ببعضهـم - بنـاء على قـول الشماخـي (في السّير، ص 203) الذي يشير إلى أنـه كان يوجد بـالمدينة «عامل» للإمـام عبد الوهاب (168- 208 هـ / 784- 823 م) - أن قـابس كانت تابعـة للدولة الرستميـة. وفي حقيقة الأمر فإن هـذا « العامل » لم يكن إلا جابيا كان يجمع الصدقات من الاباضيين المستقرين بمنطقة تلك «العمالة» ويوجّهها بطريقة تغلُب عليهـا السرّيّة والكتمانُ إلى تاهرت. ذلك لأننا نعلم بصـورة قطعية أن المدينـة لم تخرج قطّ طـوال القـرن الثالث الهجـري / التـاسع الميلادي، عن سلطـة القيروان السيـاسيـة. وقد كـانت تلك الفترة بالنسبـة إلى قابس عهد سـلام شامل لم يكد يكـدّر صفوه سوى المعـركة التي قام أثناءها الأمير ابراهيم الثاني في سنة 283هـ/ 896 م - غير بعيد عن أسوار المدينـة - بسحق ثـورة الاباضيين من قبيلـة نفوسـة الذين تفـاقم خطرهم على الـدولة. وفي القرن الـرابع هـ / العاشر م. انتقلـت المدينة إلى سلطةالفـاطميين الذين ولّـوا عليها بني لقمان من قبيلة كتـامة، وقـد خلد الشعراء ما كانوا يمتازون به من جود وكرم .

أمّا فـي عهد الـدولة الصنهاجية فقـد كانت قابس أقلّ سكينـة وهدوءا وافُتتح هذا العهد بثورة قـام بها الخوارج اكتُسحت فيهـا المدينـة وألحقت بأربـاضها وضـواحيها أضرار جسيمـة. وسـعى الخليفـة

الفاطمي الحاكـم (386- 411 هـ / 996- 1021م) بعد ذلك إلى فصلها، بمعية طرابـلس، عـن الدولـة الصنهاجية، لكنه لـم ينجـح فـي ذلـك فـي نهاية الأمـر. وقد حكم المدينة بـاسم الصنهاجيين بنو عامر، ثم ابراهيـم احد أشقاء باديس (386 - 406 هـ / 996 - 1016م)، وخلفه عليهامنصور بن مواس. وآخر من حكمها من ولاة المعزّ الصنهاجي (407- 454 هـ / 1016 - 1062 م) كـان ابن ولميّـة، ثم أفلتت المدينـة من حكم الصنهاجيين .

وفعلا، ففي منطقة قابس وبموقع حيدران مُني الصنهاجيون بالهزيمة الكبرى التي ألقت بقيادة إفريقيّة بأسرها في قبضة بني هـلال. وينبغي الاعتراف بأن الهلاليين لم يلحقوا أي ضرر بالمدينة- التي كانت محاطة بأسوار حصينة - ولا بواحاتها ، رغم فقدانها كلّ حماية. وقد تمّ بدون شك الاهتداء إلى نوع من الاتفاق على التعايش بين الغزاة ووالي المدينة مقابل دفع مبلغ من المال في شكل جزية، بطبيعة الحال . ومنذ سنة 445 هـ / 1053 - 1054 م. أصبحنـا نـلاحظ لجوء عـدد من أفـراد الأسرة المالكة الصنهاجيـة إلى قابس وقد جـاءوا يطلبون لانفسهم النجـاة في تلك المدينة التي أصبحت بمثابة واحة أمن واطمئنان. ولم تبادر قابس إلى قطع صلتها فورا بعاصمة المهدية. ذلك أنّ واليها المعزّ بن محمد بن ولميّـة لم يتخاصم مع الأمير الصنهاجي، الذي أغضبه سـوء معاملته لأخويـه ابراهيـم وقاضي، ولم يعلن استقلاله بأمر المدينة تحت حماية مؤنس بن يحيى، إلا حوالي سنة 454هـ / 1062 - 1063 م. وقد كان ذلك - فيما يـذكر التجاني (انظر **الرحلة**، ص 96) - «أوّل عهد المدينة باحتـلال الأعـراب من بني هلال». وقـد خلـف إبراهيم أخاه، ثم جاء دور قاضي الـذي ضج أهل قابس بظلمه وطغيانه فانتفضـوا عليه وقتلوه (سنة 489 هـ / 1096 م). وقـد أدّى هـذا الاغتيال ببني جامع - المنتسبين إلـى قبيلة ريـاح الهلالية عن طريق بني دهمان - إلى الارتقـاء إلى الحكم. أجل، إن بعض المؤرخين يؤكد لنا أنّ الخليفة الفاطمي المستنصر (427- 487 هـ / 1036 - 1094 م)، حين رمى إفريقيـة بجموع بني هـلال، قد كـان جعل كلا من طرابلس وقـابس من نصيب بطن « زغبـة ». لكن هـؤلاء الـزغبيين اكتفوا في الـواقع بطـرابلس فحسب، في حين قام رجل دهماني من رياح يدعى مكّي بن كامل بن جامع (انظر التجاني **الرحلة**، من ص 71، 97) بتأسيس دولة بقابس، بعد القضاء على أحد أشقاء الأمير الصنهاجي تميم (454- 501 هـ / 1062 - 1108 م)، وهو

عمر بن المعزّ الذي كان أهل قابس المتمردون قد عهدوا إليه بمقاليد الحكم في بادىء الأمر. وقد خلف مكّيا هذا ابنه رافع، وخلف رافعا عمّه رشيد بن كامل بن جامع، (حوالي 515_541هـ / 1121_ 1147 م) ثم خلف رشيدا - بعد فترة خاطفة من حكم المولى المغتصب يوسف ــ ابنه محمّد بن رشيد ، ثمّ مدافع بن رشيد .

ومنذ منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. إلى منتصف القرن السادس هـ / الثاني عشر م. ــ وسواء تعلق الأمر بعهد الولاة المستقلين تحت إشراف بني رياح، أو بفترة الحكم المباشر للأمراء من بني جامع - كان تاريخ قابس متميّزا بالاضطراب الشديد. وقد اتسم في الداخل بسلسلة الاجهاضات والخيبات المتمثّلة في حلقات الصراع العقيم من أجل الاستئثار بالحكم، كما غلبت عليه في الخارج السياسة التوسعية التي سلكها ملوك النورمان الحاكمين بصقلية، وقد كانوا يسعون إلى السيطرة على سواحل إفريقية.

وبالرغم من عمليات حصار متعددة وغير مثمرة (في سنوات 474هـ / 1081 -1082م، 479هـ / 1086_ 1087م، و 486 هـ / 1093_ 1094 م . وحوالي سنة 511هـ / 1117 _ 1118 م) فانه لم يتم استرجاع المدينة من قبل اخلاف المعزّ (سنة 489 هـ / 1096 م، ثم سنة 542 هـ / 1147 م) إلا بشكل عابر وقصير جدا. وقد توخّت قابس في مواجهة هؤلاء الحكام الصنهاجيين سياسة تتسم بالعداوة الصريحة، ففتحت أبوابها لإيواء أعدائهم، ودفعت بجيوشها المنفردة أو المتكتّلة مع غيرها من الحلفاء، في مهاجمة عاصمتهم (سنة 476هـ / 1083_ 1084م. وسنة 493 هـ / 1099_1100م. وحوالي سنة 511 هـ/ 1117_ 1118م)، ولم تكتف بالتحالف ضدهم مع بني هلال بل وتحالفت أيضا مع نصارى النورمان من رعايا روجار الثاني الذي وجّه إلى الدعيّ المغتصب يوسف ــ بطلب منه - رسما بالتّولية مطابقا للتراتيب الجارية بمملكته وعددا من الأوسمة النصرانية، ثم سمى محمد بن رشيد خلفا له بعد أن تمّ احتلال المهدية (سنة 543 هـ / 1148 م) وكامل منطقة الساحل.

ورغم كل هذه الصراعات فان المدينة لم تتعرض إلى أضرار كبيرة فيما يبدو، بل إنها ازدانت بقصر فخم هو قصر العروسين الذي شرع في إقامته، على أقرب تقدير، الوالي ابن ولميّة، وأتمّ بناءه رافع بن جامع الذي استأثر

بشرف تشييده، ولنذكر أيضا أن رشيدا قد قام في قابس بضرب السكة باسمه إمعانا منه في تأكيد استقلاله .

ثم جاء الموحدون فوضعوا حدا لذلك الاستقلال. هذا وكانت قابس قد فقدت بعد حريتها عمليا منذ سنة 541هـ / 1146ـ1147م، بدخولها تحت حكم النورمان بما فيه من سيطرة فعلية رغم ما كان يتسم به في الظاهر من السعة والتسامح. وقد ثارت المدينة على النرمان في سنة 553هـ / 1158 ـ 1159م. ثم افتتحها أبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن بن علي سنة 554 هـ / 1160م. ولم تدم فترة السلام التي شهدتها إلا بضعة عقود من السنين. فسرعان ما نازع الموحدين عليها خصمان كانا يتحالفان تارة ويتعاديان طورا، وهما قراقوش صاحب طرابلس آنذاك وبنوغانية. وقد اضطر المنصور (580ـ 596 هـ / 1184 ـ 1199 م) إلى القدوم بنفسه إلى إفريقية التي كانت على وشك الإفلات منه، فانتصر على أعدائه بالحامة (سنة 583 هـ/ 1187 ـ 1188م). وتمكن من استرجاع مدينة قابس التي كان قراقوش حليف بني غانية قد اتخذ منها قاعدة محصنة. ولم يلبث قراقوش أن عاد إلى الانتصاب بها، لكنه دخل إثر ذلك في نزاع مع حلفائه السابقين فأضاع المدينة من جديد، فعاد إليها الموحدون الذين اغتنموا تلك الفرصة السانحة. ثم عمد يحيى بن غانية ـ الذي قد كان خلف في الأثناء أخاه عليّا ـ إلى محاصرة قابس (سنة 591 هـ / 1195 م) بعد أن تمكن من القضاء على قراقوش واغتصب طرابلس من يده. وقام يحيى بإتلاف واحة قابس لحمل أهلها على الخضوع، فلم يترك بها ـ فيما ذكر لنا ـ سوى نخلة وحيدة قائمة، بقيت بمثابة الشاهد. وغلب عليها يحيى فاتخذها عاصمة لملكه وبسط نفوذه على كامل افريقية بما في ذلك مدينة تونس التي تمّ له الاستيلاء عليها عنوة سنة 600 هـ / 1203م. واضطر الناصر(596 ـ 609 هـ/ 1199ـ 1213 م) إلى افتتاح كامل الجزء الشرقي من مملكته من جديد ، وأنزل بيحيى بن غانية هزيمة قاضية بالقرب من قابس (في ربيع الأول من سنة 602 هـ / أكتوبر 1205 م)، واسترجع المدينة التي بقيت منذ ذلك العهد على وفائها لدولة الموحّدين .

لكن عهد هذه الدولة بافريقية كان قد أشرف على النهاية. فقد كان أبو زكريا يحيى (625ـ 647 هـ/ 1228 ـ 1249 م) مؤسّس الدولة الحفصية واليا على قابس عندما سمّاه الخليفة الموحدي المأمون (624 ـ 629 هـ / 1227 ـ

1232) أميرا على كامل إفريقية. وقد نجح في افتكاك مدينة تونس من يد أخيه المخلوع، بمساعدة عبد الملك بن مكّي، وهو صاحب ضياع وأراض وأكبر أعيان مدينة قابس تأثيرا ونفوذا. ومنذ ذلك الحين بدأ نجم مكّي في الصعود. وقد أصبحوا من سنة 681 إلى 796 هـ / 1282 ـ 1394 م. يمثلون دويلة بأتمّ معنى الكلمة بتلك الجهة، كانت تتمتع بحكم ذاتي واسع، بل وباستقلال كامل وحقيقي. وقد كان أبعد رجال هذه الأسرة الحاكمة صيتا وأقواهم شخصية وأثرا عبد الملك بن مكّي وأخوه أحمد الذي حكم بالخصوص جزيرة جربة بل واستطاع أن يبسط نفوذه مدة من الزمن على طرابلس. وقد كان هذان الرجلان الشقيقان، المنتسبان إلى قبيلة لواتة ، على جانب من العلم والثقافة، فكانا يحبّان تكلّف هيئة الفقهاء وتصنّع سلوكهم. وكانا أيضا من ذوي الفطنة والحكمة في التصرف،فاستطاعا في كثير من الأحيان أن يوجّها سياسة الحفصيين إلى ما يخدم مصالحهم وأغراضهم الذاتية، وكان لهما في تحديد هذه السياسة مساهمة نشيطة ودور فعال .

وفي شهر رجب من سنة 681 هـ / أكتوبر 1282 م، فتح عبد الملك أبواب مدينة قابس للدعيّ المغتصب ابن أبي عمارة.(1282 - 1284)، وأعانه على الاستيلاء على الحكم بتونس. ومن باب ردّ الجميل أهدى إليه ابن أبي عمارة « جميع الجواري الموجودات في قصر السلطان الهالك » (راجع برنشفيك، **الدولة الحفصية**، [النص الفرنسي] ج II ص 106) واتخذه وزيرا وخوّله بالخصوص سلطات مالية واسعة. لكن حكم ابن أبي عمارة لم يدم طويلا، فرجع عبد الملك إلى منطقة نفوذه بقابس. وفي سنة 1286 م قام الأمير أبو زكرياء بمحاصرة المدينة وبإتلاف واحتها ونخيلها. ولم يبق عبد الملك قاعدا مكتوف الأيدي خلال الاضطرابات التي تلت ذلك ـ فساند سنة 1287 ـ 1288 م. لكن بدون جدوى في هذه المرة ـ الدعيّ ابن أبي دبّوس القائم ضدّ الأمير إبي حفص (683ـ 692 هـ / 1284ـ 1293 م). وفي سنة 693 هـ / 1294 م. أعلن الخروج عن طاعة حكّام تونس والولاء لحكم بجاية، حيث عمد أحدُ أحفاد أبي زكرياء الأول الذي كان حاصر قابس سنة 1286م، إلى المطالبة بميراث جده في الحكم. وفي سنة 732 هـ / 1332م. وجد لديه عبد الواحد اللحياني، وهو أحد المطالبين بالحكم أيضا، العون والمؤازرة ضدّ الأمير أبي بكر (718ـ 747 هـ / 1318 ـ 1346 م). وقد شهدت السنوات التالية بلوغ بني مكّي أوج قوّتهم. وقد نجحوا انطلاقا

من سنة 751هـ / 1350 م.، بما كانوا يتميزون به من مناهضة للحاجب ابن تفراجين المشهور بقوّته وبشدّة مكره ودهائه، في توسيع منطقة نفوذهم وترسيخ دعائم سلطانهم وقد بلغوا من المكانة وبُعد الصيت حدّا دفع بدولة البندقية حوالي سنة 1355 م إلى إبرام معاهدة منفصلة معهم كان لهم فيها غُنم كبير. وفي نطاق عدائهم المتواصل لحكام تونس قام بنو مكّي بمؤازرة بني مرين في زحفتهم الثانية على البلاد (سنوات 752 ـ 757 هـ / 1352 ـ 1356م) بقيادة السلطان أبي عنان .

وبعد بضع عقود من السنين كان حلول عهد حكم الأمير أبي العبّاس (772 ـ 796هـ / 1371 ـ 1394م) مؤذنا بالنسبة إلى كل مدن الجنوب بنهاية استقلالها. ولم يتيسر مع ذلك استرجاع مدينة قابس بصورة هيّنة. وفي شهر ذي القعدة من سنة 781هـ / فيفري ـ مارس 1380م. تم الاستيلاء على المدينة وسمّي يوسف بن الأبّار واليا عليها لبني حفص. وبمجرد حلول السنة الموالية استولى أحد أحفاد عبد الملك بن مكّي ـ ويدعى عبد الوهاب ـ على كامل المدينة وقتل واليها. فاضطر أبو العباس إلى محاصرتها بنفسه سنة 789 هـ / 1387 م. وقام بقطع نخيلها لحملها على الاستسلام ، مما أدّى ـ حسب قول ابن خلدون ـ الى تطهير مناخها وصحة هوائها « بعد أن كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر وفي متكاتف الظلال وما يلحقه بذلك من التعفن». عند ذلك أعلن عبد الوهاب الطاعة وقدم أحد أبنائه رهينة في يد السلطان الحفصي ودفع إليه غرامة كبرى. لكن عبد الوهاب قُتل في سنة 792هـ / 1390 م. على يد عمه يحيى بن عبد الملك ابن مكي الذي استبد بأمر قابس. وفي سنة 796هـ / 1393 ـ 1394 م، ظفر الأمير عمر ابن السلطان أبي حفص بيحيى فضرب عُنقَه. وانقرض أمر بني مكّي وانتهت فترة استقلال قابس وانفرادها بأمرها .

ومنذ ذلك العهد لم تلفت المدينة الانتباه إليها إلا نادرا. وقد أفلتت من جديد ، مثل كامل جنوب البلاد ، من يد آخر ملوك بني حفص الذين دخلوا في حماية الإسبان، قبل أن تنضوي مع كامل البلاد التونسية ـ التي منحت نظام ولاية «باشاليك» (سنة 1574) ـ تحت حكم الأتراك. وقام عثمان داي، الذي بذل جهودا كبرى من أجل إعادة السلم إلى ربوع البلاد، بتركيز جالية من «الكُولُغْليّة » ـ أي من الخلاّسيّين المولّدين من آباء أتراك وأمهات من أهل البلد ـ بناحية « جارة » من مدينة قابس .

هذا وبحكم عمران المدينة بالحضر من السكان مع وجودها على مشارف الصحراء ، فقدتضررت أكثر من غيرها من المدن الأخرى من جراء حالة الفوضى التي سادت البلاد قبيل الاحتلال الفرنسي. وكان يتلاقى على استنزافها كلٌ من أعراب البادية- الذين كانوا يغورون في رمال الصحراء أو يلوذون بالأراضي الليبية عند اقتراب العساكر النظامية - والأعوان التابعين لسلطة البايات . لذلك لم تسلم المدينة من ويلات ثورة علي بن غذاهم (1864 م)، رغم أنها لم تكن في قلب ذلك الصراع. وفي سنة 1870 م. قام الخازندار بنهب المدينة بأتم معنى الكلمة .

وإبّان انتصاب الحماية الفرنسية حدث نزاع بين البلدتين المتنافستين اللتين تتألف منهما المدينة بخصوص الموقف الذي ينبغي اتخاذه.فاختار ربض « جارة » الخضوع، ومال ربض « المنزل » إلى المقاومة، مما جعل احتلاله يستوجب شيئا من المشقة، إذ بدأ يوم 24 جويلية 1881 م ولم يقع استكماله إلا في آخر شهر نوفمبر وبعد تدمير التحصينات تدميرا كاملا .

وأثناء الحرب العالمية الثانية تمت إقامة خطّ دفاعي بمارث (جنوبي مدينة قابس)، مما عرّض المدينة إلى القذف العنيف بالقنابل وألحق بها جسيم الأضرار، دون أن يجنبها كلّ ذلك السقوط في قبضة المحتلين الألمان (19 نوفمبر 1942). ثم استرجعتها القوات البريطانية والفرنسية يوم 29 مارس 1943.

الجغرافيا التاريخية : عرّفت قابس بأنّها «واحة بحرية »، وهو تعريف صادق. وقد اقترن ازدهارها على اختلاف العهود بخصب زراعاتها الغزيرة النموّ وبنشاط مرفئها كمنفذ طبيعي للتجارة الصحراوية. وقد كان المؤرخ سترابن Strabon (الذي عاش من حوالي سنة 58 ق، م، إلى حوالي سنة 25 بعد الميلاد) يصفها بعد بأنها « سوق عظيمة » يتبادل الناس فيها البضائع الواردة من المناطق الصحراوية والسلع الموجهة نحو نوميديا. ويتحدث المؤرخ بلين الأكبر Pline l'Ancien (23 ـ 79 بعد الميلاد) عن اقتسام مياه الرّيّ بالعدل بين السكان على أساس نسبة محددة - وهو نظام مازال قائما إلى اليوم — وعن ازدهار الزراعات المصنفة إلى ثلاث درجات من الارتفاع : أشجار النخيل ، ثم أشجار الزيتون والتين والرمان وكروم العنب، ثم زراعة الحبوب والبقول والخضر.

ويجب بعد ذلك انتظار حلول القرن الثالث هـ / التاسع م. للحصول على

معلومات جغرافيــة أخرى مدققة عن مدينة قــابس بعد أن دخلت الإسلام.
فهذا ابن خرداذبه (المتوفى سنة 272 هـ / 885-886 م) يكتفي بالاشارة إلى أنها « مدينة الأفارقــة الاعاجم » (انظر **المسالك** ، ص 6 / 7). وفي هــذه العبارة مــا يوحي بأن «الأفــارقة » ـ أي الأعقــاب المنحدرين من اليــونان والــرومــان وكــذلك من البربــر ، غلب عليهم الطــابع الــلاتيني والعقيــدة المسيحية ـــ كانــوا يشكلون العنصر الأســاسي الغالب من سكــان المدينة.
وهــؤلاء « الأفــارقة » هم بــالتأكيــد أولائك الــذين يطلق عليهم اليعقــوبي (المتوفى حوالي سنة 282ـ292هـ / 895ـ905 م). اسم « العجم » ، مضيفــا أن سكان المدينــة كانــوا «كثيري الاختلاط» وأنه قــد كان فيهم أيضــا العرب والبربر. ويذكر اليعقوبي أيضا أن قابس كانت «مدينة ذات شأن وازدهار» وأنها «كثيرة الأشجار والثمار» .

وفي منتصف القرن الرابع هـ / العاشر م. يذكر ابن حوقل أن أكثرية أهلها من البربر ويشير إلى وجود جالية من اليهــود بها كانوا يخضعون لضريبة خاصة، ويــلاحظ ابن حوقل ان الطبيعة لم تميّز سكــان المدينة بقدر كبير من الجمال والنظافــة (راجع **صورة الأرض**، ص 72 ترجمة كــرامرز ـ فيات Kramers-Wiet، ص 66). كما يذكر لنا بــالخصوص، من بين منتجاتها الكثيرة المتنوعة، الزيت والصوف، وكميات كبيرة من الحرير الجيد الممتاز، والجلود الناعمة اللمس الزكيّة الرائحة التي تصدّر إلى كافّة أنحاء المغرب. لكنّ المناطق الخلفيــة للمدينــة كانت ـــ مع الأسف ـ تعجّ بــاللصوص من الخوارج الذين عمدوا إلى نهب الربض وإحراقه، مركّزين هجوماتهم بشكل خاص على ممتلكات الباعة وأهل الذمّة .

وفي نهاية القرن الســادس هـ / العاشر م. يقول عنها المقــدسي إنها مدينة «أصغــر من طــرابلس »، وإنها « مبنيّــة بــالحجــارة واللبن، كثيرة النخيل والعنب والتفــاح» (راجع **أحسن التقاسيم**، 12 / 13). وإن «أراضيها الخلفية آهلة بالبربر» وإن بسورها « ثلاثة أبواب » .

أما الوصف الــذي يقــدمــه لنــا البكــري عن المدينــة ـــ وقــد أخــذه عنــه الجغرافيــون اللاحقون في الغــالب ـ فهــو الأكثر تفصيلا . وهــو يعود إلى وسط القرن الخامــس هـ / الحادي عشر م.، أي إلى العهــد الـــذي كــان يحكمها فيــه ابن ولمية بحمايــة مؤنس بن يحيى من شيــوخ بني هلال. كانــت المدينة آنذاك لا تــزال قائمــة داخل سورهــا العتيق المبني بــالحجر

المنحوت والذي يحدق به خندق تتدفق فيه المياه عند الإنذار بالخطر. لكن المدينة قد شهدت تطورا كبيرا منذ عهد ابن حوقل. فقد أحاط بها بالخصوص عدة أرباض بالجنوب والشرق — بدل الربض الوحيد - وعدد من الأسواق والفنادق ، مما يدلّ على نشاط تجاري واسع. وقد ازدانت بجامع فخم وأصبح بها عديد الحمّامات .

أما النقص الوحيد الذي كان بها، فهو الفساد الذي طرأ على مناخها - وهو فساد حادث لم يعهد فيها من قبل — بسبب إتلاف طلسم تم العثور عليه أثناء التنقيب عن بعض الكنوز. وأسطورة الطلسم هذه تشير بالتأكيد إلى تهديم معالم قديمة عتيقة كانت تقع داخل المدينة على مرتفعات سيدي أبي لبابة المشهورة بطيب هوائها وسلامة مناخها، ثم إلى بناء الأرباض ابتداء من منتصف القرن الرابع هـ / العاشر م في المنخفض الذي يحدق به منعطف الوادي. وفي نهاية القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. كان أبعدُ الأرباض عن السور القديم — وهو الذي كان يحتل موقع حيّ «جارة» الحالي - قد تمّ تمصيرُه وتمدينه تماما كما تشهد بذلك مساجد سيدي ادريس وسيدي الحاج عمر وسيدي ابن عيسى، التي ينسب ج. مارسي G.Marçais بناءها إلى أسرة بني جامع (انظر **الهندسة المعمارية**، ص 77 — 78)، والتي نجدها متجمّعة كلها في هذا الحي.وقد لاحظنا إعادة استعمال بقايا من معالم الماضي في بناء هذه المساجد وغيرها من المباني القديمة. وهكذا فمنذ منتصف القرن الخامس هـ / العاشر م. بدأت المدينة العتيقة تخلو من السكان لتزول نهائيا فيما بعد، تاركة المجال للأرباض. وقد أدّى ذلك إلى فساد الهواء ورداءة مناخ حياة السكان ، وهو الأمر الذي شهر به كل الرحالة والجغرافيين انطلاقا من البكري في حين لم يذكره أحد من قبل .

وكان سكان المدينة - فيما يذكره البكري - ينقسمون إذ ذاك إلى عرب و«أفارقة». مما يشير إلى أن عملية امتزاج الأجناس والعناصر لم تبلغ بعد حدّها النهائي. وقد كان هؤلاء السكان موضع تلميحات ساخرة- ينقلها لنا مؤلف **المسالك** في شيء من مجاراة أصحابها وتزكية أقوالهم - بسبب خلوّ مساكن المدينة من المراحيض واستعمال أهلها السماد البشريّ لإخصاب الحقول والأجنّة، وهي عادات لا تزال كلّها قائمة إلى اليوم (انظر ع. البشراوي، **الحياة الريفية في واحات قابس**، ص 317). وقد

كان البربر يسكنون الأخصاص ويقيمون في الأكثر بالمناطق الخلفية من ضواحي المدينة. وهم يتكونون أساسا من قبائل لُواته ولماية ونفوسه ومزاتة وزُواغة وزُوارة وبعض مجموعات أخرى أقل أهمية وشهرة. وكانت واحة قابس تنتج كميات كبيرة من الموز ومن قصب السكر وكل أصناف الثمار التي كانت تزود بها مدينة القيروان. وكانت تنفرد في بلاد إفريقية بغابة واسعة من شجر التوت تسمح لها بإنتاج كميات وافرة من الحرير الجيد الممتاز. ولنذكر في هذا الصدد أن وثائق « الجنيزة » Geniza تثبت أن إفريقية كانت في القرن الخامس هـ ./ الحادي عشر م. من أكبر مصدّري الحرير.لكنّ س. د. غُويتاين S.D. Goitein لم يعثر بها على أيّة إشارة واضحة محددة إلى مدينة قابس. ويشير البكري في خاتمة كلامه إلى أنّ مرسى المدينة كان مُعْلَما عليه بمنارة طالما تغنّى الشعراء بروعتها ـ وهي منارة لم يبق منها اليوم سوى الموقع فوق مرتفع لا يزال يُطلق عليه اسم المنارة ــ وأن هذا المرسى يستقبل السفن والمراكب «من كل أنحاء الدنيا» .

وفي منتصف القرن السادس هـ./ الثاني عشر م. يتحدث الإدريسي كذلك عن «الأفارقة »، لكن بصورة عارضة. وليس هناك من شك في أن أولائك الافارقة لم يعودوا يشكلون في ذلك العهد مجموعة هامة فعلا ومتميزة عن بقية سكان المدينة. ويضيف الإدريسي أن أهل المدينة «ينقصهم اللطف والرقة لكن لباسهم مقبول ونظيف » (راجع **النزهة**، ص 77). وقد كانت المدينة لا تزال آنذاك في أوج ازدهارها ونهضتها.ويمدح الإدريسي بالخصوص إنتاجها من الرّطب، وهو ضرب من التمور المعسّلة يتمّ ادّخاره في جرار ضخمة. وكانت لا تزال تنتج الزيت «وتُصدره بوفرة في كلّ صوب». إلاّ أنها قد كانت شهدت بعض التغيير: فقد أصبح ميناؤها صعب الإرساء بسبب ارتفاع الرواسب وقلّة عمق المياه وشدة الرياح بعد أن كان من قبلُ، حسب ما يرويه البكري، مزدحما بالمراكب. ولم نعد نجد ذكرا للمنارة البحرية. أما صناعة الحرير المتدهورة فقد لجأت الى قرية « قصر سجّة » بمنبع الوادي. وعلى عكس ذلك فقد احتلّت صناعة الجلد المكانة الأولى. وقد كان ابن حوقل نوّه بها من قبل في حين سكت البكري عن ذكرها .

أما ياقوت، الذي كان يؤلّف في أوائل القرن السابع هـ/ الثالث عشر م.

فهـــو لا يفيـدنا بجديـــد، مكتفيـا بنقـل ما كتبه البكـري حرفيّا. ويصف ابن الشباط (618 – 681 هــ / 1221 ـ 1282 م) قابس ـــ فيما نقله عنه الـوزير السراج ـ بأنها «مـدينة كبيرة» ويـؤكّد أنـه يمكن تصنيف أهلها إلى ثـلاثة عناصر : عرب وبربر و« عجم » أي « أفارقـة ». وهذه آخر مرة نجد فيها إشـارة إلى انقسام سكـانها إلى هـذه العناصر الثـلاثـة. وفي أواخر القـرن السـابع هــ/ الثالث عشر م. خرج العبدري من عبـوره المدينة في طريقه إلى الحجّ بارتسام سيّء جدا، فقال عنها انها مدينة قذرة كريهة الروائح، وإن غرور أهلها على قدر جهلهم وفجورهم .

أما ما يـذكره عنها التجاني ـ الذي أقـام بها أربعة أيام في أواسط جمادى الأولى من سنة 706هــ / أواخر نوفمبر 1306 م. فهو من طراز مغاير تماما. فهو ينادي بإعجابه قائلا : « هي مـدينة جميلة بحرية وصحراوية ، وهي جنة على الأرض، وهي بعبارة أوجز دمشق الصغرى » إلا أن تحولا عميقا كان بصدد الحدوث. فقد كان السور القديم لا يزال قائما بدون شك، لكن محور النشـاط انتقل نحـو «الأرباض الـواسعـة التي كانـت تُؤوي أكثـر الأسواق» (راجع **الرحلة**، ص 86ـ87). وفي قلب المدينة كانت مئذنة المسجد الجامع قد فقـدت توازنها ومالت ميـلا منذرا بـالخطر. أما قصبـة المدينة وقصـر بني جامع وهو « قصر العروسيـــن العجيب الـذي لا مثيل له في الدنيا» فقد أصبحا خرابا (**الرّحلة**، 94ـ95). وكان هواء المدينة أوخم ما يكـــون، ووجوه الناس مصفّرة، والأوبئة متفشّيــــة متواترة بسبب نبـــــات الدّفلــــة الـــــذي يلـوّث المياه ـــ فيما يذكـره التجاني ـ باستثناء منبعي « عين الأمير» و « عين سلام » .

ثم يجب بعد ذلك انتظـار أول القرن السـادس عشر ـ أي مـا ذكره الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الافريقي : Jean-Léon l'Africain ـ الذي زار البلاد التونسية في سنة 1517 (**الوصف**،ج II، ص 398) للاستفادة بتفاصيل أخرى حـــول تـطـــور مدينـة قابس. فـقد كانت لا تـزال، فيما يبدو، «مدينة عظمى»، وكانت « الأسوار العاليـة القديمة » لا تزال تحيط بالمدينة العتيقة. لكنّ «إقدام الأعراب على نهبها وإتـلاف ما فيها قد أدى إلى نزولها وانحطاطهـا » . فتشتت سكانها في أنحـاء الواحـة. «وكانـوا سُود البشرة، بائسين فقراء، يشتغلون بفلاحـة الأرض أو بصيد السمك. وقد تلاقـى على استنزاف مـا بيدهـم من النّزر القليل كلّ من أعـراب البادية وملك مـدينة

تونس » (راجع **الوصف**، جII ، ص 398). وبعبارة أوجز فقد بلغت المدينة إذ ذاك حدّ الانهيار الكامل والافلاس التام ، فلم نعُد نسمع شيئا عن ثمارها الوفيرة ولا عن صناعاتها وصادراتها نحو كلّ الجهات. ولم نعُدْ نأنس كلمة عن نشاط مرفئها ولا عن حركة أسواقها. فقد قضى اختلال الأمن وانعدامه على حركة البيع والشراء والمبادلات بما في ذلك التجارة عبر الصحراء التي كان لها ذلك الأثر العميق - عن طريق التزاوج مع الجواري السود من الرقيق - في لون بشرة سكان المدينة الذين أصبحوا يشكلون في آخر الأمر مجموعة منسجمة من العناصر وحد صفوفها الشقاء والبؤس .

وفي منتصف القرن التاسع عشر لم يتمكن ف. غيران V.Guérin من العثور على أي أثر للسور العتيق، ولم تبق سوى تلك المساكن المتداعية بمنطقتي «المنزل» و « جارة » والتي لا تكاد تستحق اسم البيوت، حسب رأي لافيت وسرفوني F.Laffite et I. Servonnet وكانت « المنزل » تعدّ عندئذ 3,500 ساكن في حين تعد « جارة » 4,000 ساكن، وذلك من عدد جملي لكامل سكان الواحة كان يقدر بـ10,000 نسمة تقريبا. وفي سنة 1873 خطرت ببال القبطان رودار Roudaire فكرة إيجاد بحر داخلي بإغراق منطقة «الشطوط» بواسطة قنال يربط بينها وبين خليج قابس. لكن الدراسات كشفت عن استحالة تطبيق هذا المشروع بصورة عملية .

ثبت المراجع

- **المصادر الجغرافية** (مرتبة حسب التسلسل الزمني) :ابن خرداذبه **المسالك**، وابن الفقيه، **البلدان** ، تحقيق وترجمة جزئية لحاج صادق بعنوان **وصف المغرب** ... Description du Maghreb، الجزائر 1949 ، ص 6 / 7 مع التعليق 57 ص 30 / 31 ؛ اليعقوبي، **البلدان**، ترجمة ج فيات G. Wiet، القاهرة 1937، ص 208 : ابن حوقل، **صورة الأرض**، ط. بيروت، بدون تاريخ ص 72 - 73 ترجمة كرامرز - فيات Kramers - Wiet، ص 66 ـ 67 ؛ المقدسي **أحسن التقاسيم**، تحقيق وترجمة جزئية لشارل بيلاّ Ch. Pellat بعنوان **وصف المغرب** Description de l'Occident، الجزائر 1950، ص 4 / 5، 12 / 13 / 64 / 65 و66 / 67؛ البكري، **المسالك**، تحقيق وترجمة دي سلان de Slane باريس 1965،ص7/ 22 ، 17 ـ 19/ 41 ـ 44 ،19/ 45 ،47/ 102، 85 / 172 ؛ الادريسي، **النزهة** تحقيق جزئي لهنري بيراس H. Pérès، الجزائر 1957 ص 76ـ 77، 89، 94؛

ياقوت، **البلدان**، بيروت 1957، ج IV، ص 289-290؛ العبدري، **الرحلة**، تحقيق ابن جدّو، قسنطينة بدون تاريخ، ص 68-69 : التجاني، **الرحلة**، ط. تونس 1958، ص 58، 68، 71، 86 ـــ 117؛ صفي الديـن البغدادي، **المراصد** تحقيق علي محمد البجاوي، القـاهرة 1954، ج III ص 1054 ؛ ليون الافـريقي Jean Léon l'Africain **وصف افريقيا** Description de l'Afrique، تـرجمة عن اللاتينيـة لإيبولار A. Epaulard، باريس 1956، ج II، ص 398، 549؛ الوزيـر الـسرّاج، **الحلل**، تحقيق م.ح. الهيلة، تـونس 1970 ج I ص 342 ـــ 373، 847 ـــ 848، 962؛ ف.غيران V.Guérin **رحلة أثريـــة فـــي الايالـــــة التونسـية** Voyage archéologique dans la Régence de Tunis ، باريس 1862، ج I ص 190 ـ 197؛ زاكون Zaccone **تقييدات عن الإيالة التونسية** Notes sur la Régence de Tunis باريس 1875، ص 152 ـ 162؛ ريبيّي Rebillet، **جنوب الـبلاد التونسـيـة** Le Sud de la Tunisie، ط. سوسة 1886، ص 15 ـ 101 ؛ ف. لافيت و ج. سرفوني Laffite et J. Servonnet **خليج قابس في سنة** 1888 (Le golfe Gabes en 1888) (ط. باريس 1888، ص 216 240 ـ 315 ـ 332؛ مونوار Maunoir، **يوميات الطريق** Journal de route باريس 1905، ص 67 ـ 71.

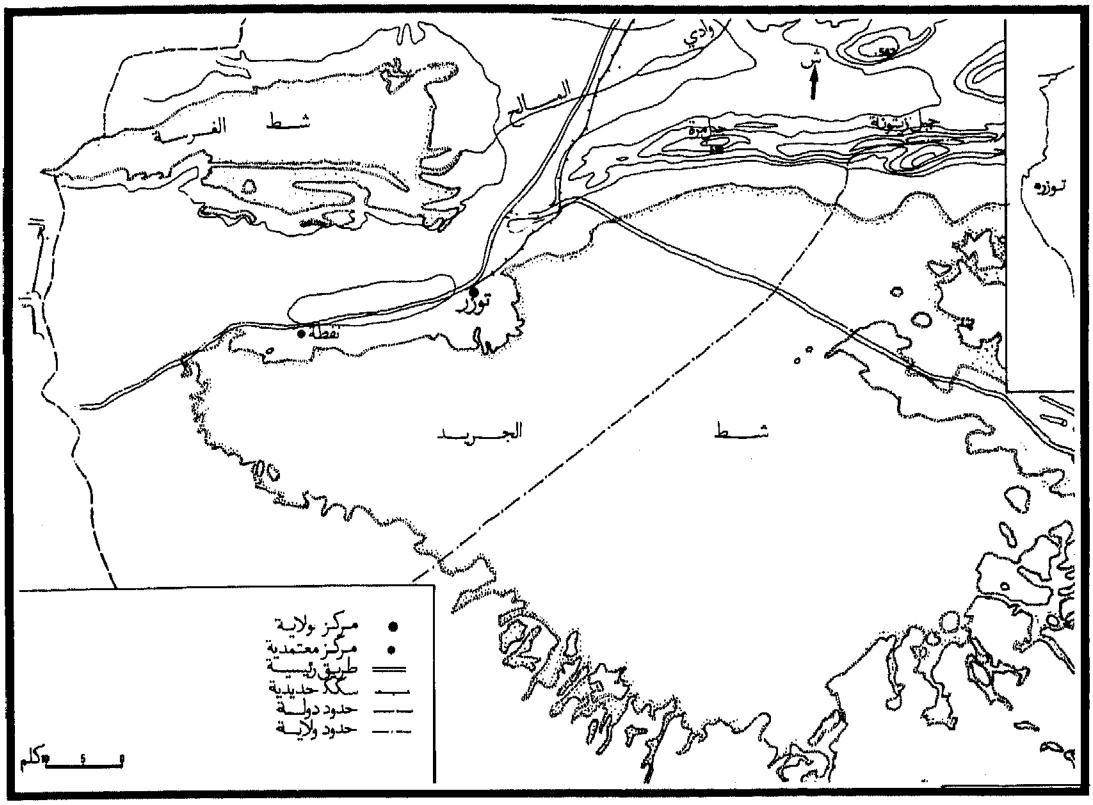
ـ **الدراسات** :ع. البشراوي، **الحياة الريفية في واحات قابس** La vie rurale dans les Oasis de Gabès (أطروحة دكتوراه مرحلـة ثالثة قدمت سنة 1970)؛ ر.برنشفيك R. Brunschvig **الدولة الحفصية** Hafsides، الفهارس؛ ل.كارطون L.Carton) **رسالة في أشغال الري الرومانيـة بجنوب الايالة التونسية** Essai sur les travaux hydrauliques des Romains dans le Sud de la Régence de Tunis في مجلة Bull-Arch، تونس 1888، ص 438ـــ 465 ؛ ج ديبوا J.Despois **افريقيا الشمالية** ،باريس 1958، الفهارس؛ ش. ديل Ch. Diehl **افريقيا البيزنطية**، باريس 1896، ج I، ص 228 ـ 233؛ ج II، ص 414 ـــ 535 ؛ ل. فوشي L.Foucher **حضر موت** Hadrumetum، باريس 1964، ص 321-322؛ ج. غانياج J.Ganiage **أصول الحماية الفرنسية بالبلادالتونسية** (1861 ـ 1881) بـاريس 1959، ص 36، 138، 145، 146، 219 ـ 236، 467؛ س.د. غويتاين S.D.Goitein، **مجتمع متوسطي** A.Mediterranean لوس انجلس 1967، ج I، ص 102، 278، 279، 469؛ س. غـزال S.Gsell **التاريخ القديم لافريقيا الشمالية**، باريس 1913ـ 1928، ج I، ص 64، 65، 203ـ204 ج II، ص 125 ـ 126، ج V، ص 247؛ ج. هيلار J.Hilaire **خلاصة عن**

الحفريات التي تمت سنة 1898 **بموقع قابس القديمة**، بمجلة Bull.Arch، تونس 1900، ص 115 - 125؛ هـ. ر. إدريس H.R Idris **الدولة الصنهاجية** Zi-rides الفهارس؛ ش. أ. جوليان ch.A.Julien ، **تاريخ افريقيا الشمالية**، باريس 1956، الفهارس؛ ع. العروي، **تاريخ المغرب العربي**، باريس 1970، الفهارس؛ ج. مارسي G.Marçais **المعمار الاسلامي بالمغرب العربي**، باريس 1954، ص 77 - 87؛ أ.مارتال A.Martel **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** (1881 - 1911)، باريس 1965، الفهارس؛ المرزوقي، **قابس جنة الدنيا**، تونس 1962 ، 310 صفحات؛ ج. ف. موليزان J.F.Molezum **آثار تاكابس**، مجلة Bull.Arch، تونس 1885، ص 126 - 131؛ ب، رومانلي P.Romanelli **تاريخ المقاطعات بافريقيا الرومانية بافريقية** Storia delle province romane dell'Africa' (رومة 1959 (انظر الفهرس)؛ محمد الطالبي **الدولة الأغلبية**، باريس 1966، الفهارس؛ ش. تيسو "Ch.Tissot"، **جغرافيا للمقاطعة الرومانية بإفريقيا**، باريس 1884، ج II، ص 31، 196؛ ب. التركي، **التخلص من الصحراء نوويا، ارجاع البحر الداخلي بالمغرب الأوسط**

La dessaharation nucléaire = rétablissement de la mer intérieure au Maghreb central

التقرير الفني رقم 23 (1968) بمندوبية الطاقة الذرية، تونس؛ أ.س. زغلول - **تاريخ المغرب العربي**، القاهرة 1965، الفهارس؛ ب. أورجلس B.Orgels **واحة قابس**، ضمن مراسلة الشرق Correspondance d'orient، 1968 ، ص. 3- 89 .

(*) 92258ساكن (حسب التعداد السكاني بقابس سنة 1984).



قَسْطِيلِيّة

قسطيليّة أو قصطيليّة أو قسطيلَة اسم لموقع بالبلاد التونسية، أطلق في العصر الوسيط تارة على مدينة (وهي تَوْزر أو تُوزر)، أو في الأغلب على كامل المقاطعة التي كانت هذه المدينة قاعدتها ومركزها، وهي بلاد الجريد الحالية التي تكوّن اليوم جزءا من ولاية قفصة (*) (321000 نسمة، 17,45 كلم مربّع حسب إحصاء سنة 1966)، والتي تشمل منطقة الشطوط. والثروة الرئيسية لمنطقة الجريد لا تزال كما كانت في الماضي تتمثل في أشجار النخيل المثمرة، وعددها مليون شجرة تقريبا، منها نسبة 31٪ من صنف نخيل «الدقلة» التي يتهافت الناس على طلبها، (استطلاع سنة 1962). وتوفّر السياحة الصحراوية ـ المدعّمة بتجهيزات فندقية من الصنف

الممتاز جدا أحيانا ــ موارد تكميلية ذات قيمة بالنسبـة إلى هذه الجهة التي تعتبر اليوم من المناطق المحرومة (**)

التاريخ : إن قسطيلية التي سبــــق إخضاعهــــا مـرّة أولى على يد عقبة بن نافع فيما يظهر، قدتمّ فتحها نهائيا للإسلام صلحا وبدون قتال على يد حسّـان بن النعمان. وهـذا مـا يفسرّ مـا كان يلقـاه سكّـان هـذه المنطقـة المسيحيّون، نسبيا، من حسن معاملة وطيب عيش. ومنذ ذلك العهد لم يبق تـاريخ هذه المنطقـة بطبيعة الحال، بمعـزل عن الاضطرابـات والفتن التي هزّت سـائر أنحاء إفريقية ولا سيّما تلك التي تـرتبت عن ثورات الخوارج في أواسط القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وعن تمرّد الجند في عهد الدولـة الأغلبية والحرب ضدّ داعي الفـاطميّين وثورة أبي يزيـد النكّاري. ووجد المذهب الإباضي في خضمّ هذه الفتن فرصة لكسب العديدمن الأتباع بـالمنطقـة. كما لاقى المذهب الشيعـي بعض النجـاح لاسيّما بنفطـة. وقـد ساعدت زحفة بني هـلال في منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشرم. هي الأخرى، على ظهور مملكة صغيرة بالمنطقـة، سرعان ما احتوتها مملكة بني الـرّنْـد بقفصـة. وقـد نازع الموحّـدين بعـد ذلك على قسطيليـة أحـد المغامرين، ويدعى قراقوش، ثم أمراء بني غانية. وفي عهد الدولة الحفصية، في أوائل القرن الثـامن هـ/ الرابع عشر م.، قـامت بالمنطقـة مملكة صغيرة أخرى يحكمها بنـو يملول بمساعدة «مشيخـة» أو مجلس أعيان. وعاشت هذه المملكة حياة شديدة الاضطراب حتى تمّ القضاء عليها ـ مع الدويلات المحلية الأخرى ـ على يد الأمير أبي فارس (سنة 802هـ/1400م). وفي آخر الأمر تفاقم البؤس بصورة خطيرة أثناء فترة الفوضى التي شهدتها البلاد في القرن التـاسع عشر وأصبحت المنطقة عمليًا بـدون حماية ووقعت تحت ضربات البدو النّاهبين المبتزين من جهة ، وتحت وطأة الجبايات والضرائب المرهقة التي كانت تفرضها السلطة المركزية من جهة أخرى .

الجغرافية التاريخية : إن لفظ قسطيليّة لا يقتصر استعماله كاسم موقع على البلاد التـونسية فحسـب. فهذا يـاقوت (ج، IV، ص347 ــ 348) يذكر قسطلّة بـالأندلس، وقسطيلية بجهة البيرة. وهـو يشير أيضا إلى القسطل، اسم موضع بين حلب ودمشق. وقـد كانت قلعة «ميزارفلتـا » العتيقة بين تبنة وبسكرة سمّيت أيضا بقسطيليّـة. وممّا لا شكّ فيه أن هذا الاسم من أصل لاتيني، وهو مشتقّ من « كاستلاّ » جمع « كاستلّوم » :Castellum, Pl)

Castella) بمعنى القلعة. وقد أطلقه الفاتحون العرب أوّل الأمر على توزر(Thusuros) أهمّ قلاع المنطقة الحدودية المستندة إلى الواحات، ثم عمّموا هذا الاسم على كامل المنطقة الراجعة اليها بالنظر. ويقول اليعقوبي (المتوفى حوالي سنة 282 ـ 292 هـ / 895 - 905 م) إن هذه المنطقة تشمل أربع واحات « أولاها وأهمّها تسمّى توزر، وبها مقرّ الولاة، والثانية هي الحامّة، والثالثة تقيوس، والرابعة نفطة » (انظر **البلدان**، ص 212). وقد زالت منها اليوم تقيوس(Thiges) التي حلّت محلّها دقاش. ونفس هذا التحديد للمنطقة يرد أيضا عند معظم الجغرافيّين العرب اللاّحقين، ولاسيّما عند البكري وياقوت. أمّا ابن حوقل والمقدسي والإدريسي فإنهّم يوردون وصفا للمدينة فقط دون ذكر لحدود المنطقة. لكنّنا قد نشاهد أحيانا بعض المؤلفين المتأخرين يتوسّعون كثيرا بحدود منطقة قسطيلية ـ التي اصبحت تدعى بلاد الجريد ـ ويجعلونها تشمل قفصة شمالا وبلاد نفزاوة في جنوب الشطوط (انظر ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج VI، 199)، بل ويقحمون فيها حتى بسكرة وقابس وجزيرة جربة (انظر الحسن بن محمد الفاسي **وصف إفريقيا**، ج II، ص 442-443). أمّا تسمية « بلاد الجريد » أو « الجريد » بعبارة أوجز، فقد ظهرت لأوّل مرة في منتصف القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م. في كتابات ابن خلدون الذي كان يستعملها بقدر ما يستعمل كلمة قسطيليّة ـ أو أكثر ـ للدّلالة على نفس المنطقة. ثم زال اسم قسطيلية القديم شيئا فشيئا حتى نسي اليوم تماما فلم يعد يعرفه من أحد سوى بعض أهل الاختصاص، حتى أنّ التجاني الذي كان يكتب في سنة 706 هـ/ 1306 م، وابن أبي دينار (حوالي1110هـ / 1698م) والوزير السرّاج (1149هـ / 1736- 1737م) قد أصبحوا بعدُ لا يستخدمون الاسم القديم إلاّ في حال نقلهم عن مؤلفين سابقين. أمّا الحسن بن محمد الفاسي (= Jean-Léon l'Africain) الذي زار البلاد التونسية في سنة 1515 م. فإنه يجهل هذه التسمية تماما .

وحتى أواخر القرن الثالث هـ/ التاسع م. لم يكن العنصر العربي بعد ممثلا ببلاد قسطيلية، أو لم يكن على الأقلّ موجودا بصورة محسوسة. وفعلا فقد كتب اليعقوبي يقول : « ...السكّان من غير العرب ينحدرون من الروم القدامى ومن البربر والأفارقة » (انظر **البلدان**، ص 212)، أي البربر الذين غلبت عليهم اللّغة اللاّتينيّة والدين المسيحي. ويشير ابن خلدون من جهته، في معرض الحديث عن وقائع سنة 224هـ/ 839م ، إلى وجود بربر

من قبائل زواغة ولواتة ومكناسة بتلك المنطقة (انظر **كتاب العبر**، ج.IV، ص428). ولا نعتقد أن خارطة السكّان هناك قد تغيّرت كثيرا حتى منتصف القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م.، أي إلى زمن زحفة بني هلال التي أدخلت الى الجهة عناصر قبائل بني سليم وخاصّة منهم بطن كعوب. وقد تغيّرت ملامح المنطقة بدون شكّ تغيرًا عميقا منذ ذلك الحين، وأخذت العقيدة المسيحية التي ثبتت حتى ذلك الوقت تزول شيئا فشيئا. وقد أمكن التجاني في سنة 706 هـ / 1306 م. أن يشاهد عددا كبيرا من الكنائس المهجورة الخربة هناك (انظر **الرحلة**، ص 162). كما لاحظ أيضا باستنكار شديد تعاطي أهل الجهة أكل لحم الكلاب، وهي عادة عندهم مألوفة إلى اليوم .

ويجمع المؤلّفون العرب في العصر الوسيط على اعتبار قسطيليّة بلادا ذات ثراء وازدهار. ويقول البكري إن مجموع خراجها كان يبلغ في منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. 200,000 دينار مقابل 50,000 دينار فقط بالنسبة إلى قفصة. أمّا ابن خلدون فكان لا يملك دهشته وإعجابه في القرن الثامن هـ / الرابع عشرم. أمام كثافة سكّان هذه البلاد «المستبحرة العمران » (**كتاب العبر**، ج VI، ص 199) .

وقد كانت هذه البلاد، التي بهر نظام توزيع مياه الريّ بها كلّ الملاحظين تنتج كميات وفيرة من التمور. وفي القرن الثالث هـ/ التاسع م. يشير اليعقوبي الى وجود حقول زيتون هامة بها، لم يبق منها بعد ذلك أثر. أمّا قصب السكّر الذي كان من أهمّ ثروات المنطقة في القرن الرابع هـ/ العاشر م. حسب قول ابن حوقل، فقد أصبح مردوده هزيلا في القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. فيما يذكره البكري ، وكذلك الموز الذي كانت غروسه تجد صعوبة في الثبات والنموّ هناك. وعلى خلاف ذلك فإنّ الحوامض التي تنتج بالجهة - وخاصة منها الأترجّ - لم يكن لها مثيل. وكان أهل المنطقة يتعاطون أيضا زراعة الكتّان والحنّاء والكمّون والكرويّاء، ويصطادون بها الفنك الذي كان الناس يتهافتون على اقتناءفروته.

وكانت قسطيليّة أيضا في القرن الرابع هـ / العاشر م.، حسب ما يؤكده ابن حوقل، ملتقى هاما للطّرق التجارية يزدحم فيه التجّار القادمون من كل بلاد. وكانت المنطقة تورّد على وجه الخصوص القموح التي كانت أثمانها

مرتفعة في العادة، وتصدّر التّمور (بثمن يساوي درهمين مقابل حمل جمل كامل كما يدقّقه لنا المقدّسي)، وكذلك الصوف (وهذا يقتضي وجود ماشية عديدة من الأغنام)، والمصنوعات الصوفيّة. وقد كانت التجارة عبر الصحراء مع بلاد السودان، بكلّ تأكيد، أحد أسرار ازدهار الجهة طوال العصور الوسيطة. ونحن نعلم أنّ والد أبي يزيد النكاري، الذي كان أصيل تقْيُوس أو توزر، كان من المشتغلين بتعاطي هذه التجارة (انظر ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج IV، ص 84).

ثبت المراجع

مصادر (مرتبة ترتيبا زمنيا) ابن عبد الحكم ، **الفتوح** ، تحـ. مع ترجمة جزئية لـ أ. غاطو A. Gateau بعنوان Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne ، الجزائر، 1942، ص 65/64، والتعليق 66 ص 156 ؛ ابن خرداذبه، **المسالك**، وابن الفقيه، **البلدان**، تحـ، مع ترجمة جزئية لحاج صادق Description du Maghreb... ، الجزائر، 1949 ، ص 6/7، 31؛ اليعقوبي، **البلدان**، ترجمة ج. فيات G. Wiet بعنوان Les pays، القاهرة، 1937، ص 212 ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت بدون تاريخ، ص 92؛ المقدّسي، **أحسن التقاسيم**، تحـ، مع ترجمة جزئية لشارل بلا Ch. Pellat بعنوان Description de l'Occident... ، **الجزائر** 1950 ص4 / 5 ، 26 / 27/ ، 60 / 61 ، 64 / 65؛ البكري، تحـ. مع ترجمة لدي سلان (De slane بعنوان Description de l'Afrique Septentrionale، باريس ، 1965 ، ص14/ 35 ،48 - 49 / 102 - 105، 71 - 74146 /75 452 /153 /148 /284؛ الإدريسي، **النزهة** ، تحـ . جزئي لهنري بيراس H. Pérès، الجزائر، 1957، ص. 75؛ ياقوت ،**البلدان**، بيروت، 1957 ج ، II، ص 57 ـ 58، ج VI، ص 347 ـ 348 التجاني، **الرحلة**، تونس، 1958، الفهرس، مادة الجريد؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، بيروت 1956 ـ 1959، فهارس المجلّدات IV و V و VI و VII تحت موادّ قسطيليّة وبلاد الجريد والجريد؛ جان ليون الإفريقي Jean-Léon l'Africain (= الحسن بن محمد الفاسي) **وصف إفريقيا**، ترجمة فرنسية عن اللاّتينية لـ أ .ايبولار A Epaulard، باريس ، 1956 ، ج II، ص 442 - 443 ، 470 ؛ ابن أبي دينار، **المؤنس** ، تحـ. م. شمّام، تونس ، 1967، الفهارس في مادة قسطيلية والجريد؛ الوزير السرّاج، **الحلل**، تحـ. م.ح. الهيلة ، تونس، 1970، الفهارس

في مادة الجريد؛ ف. غيران V. Guérin **رحلة أثرية في الإيالة التونسية** Voyage archéologique dans la Régence de Tunis، باريس، 1862، ج. I، ص 250-270؛ ف. مايي V.Mayet **رحلة في جنوب البلاد التونسية** Voyage dans le Sud de la Tunisie، باريس، 1887، ص187- 243.

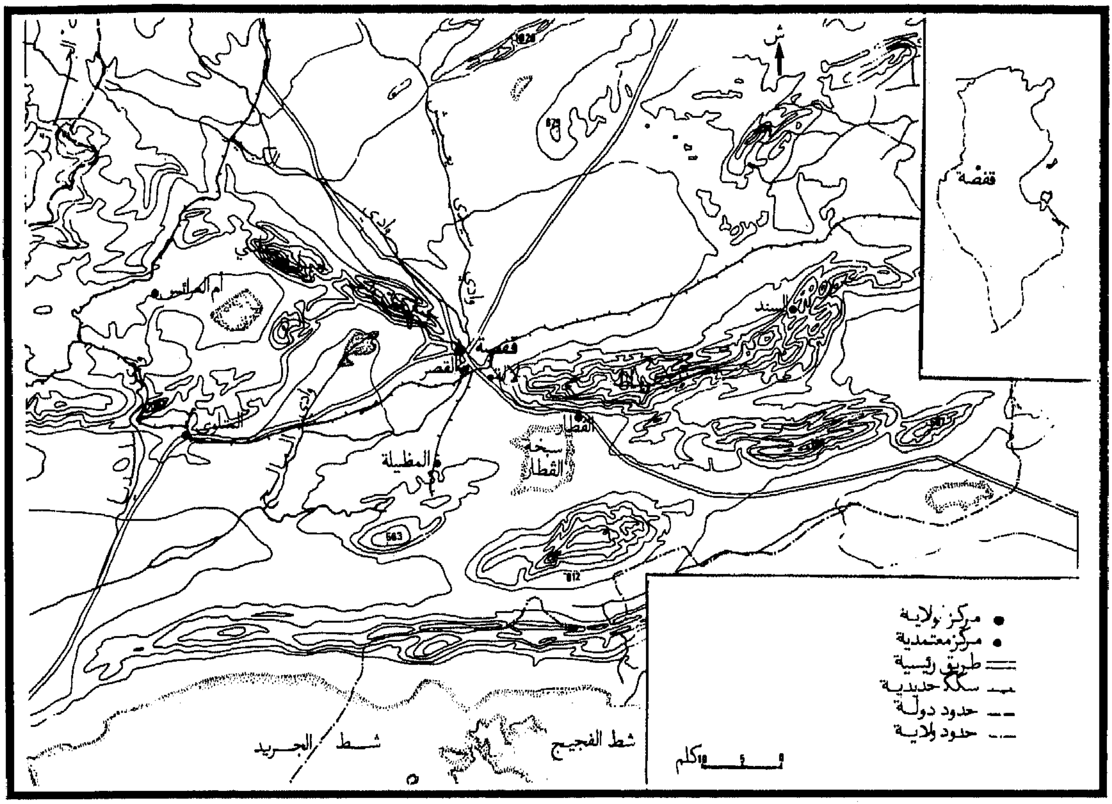
- **دراسات :** ح. عطية، **التعصير الفلاحي والهياكل الاجتماعية : أمثلة من واحات الجريد**، في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد 2 (فيفري 1965)، ص 59-93؛ ر. برانشفيك R. Brunschvig، **الدولة الحفصية**. الفهارس في مواد قسطيلية والجريد وتوزر؛ ص. فرشيو، **التفريق الجنسي في التغذية بالجريد** في منشور L'homme 1968؛ ج. غانياج J. Ganiage، **أصول الحماية الفرنسية بتونس** (1861 — 1881). باريس، 1959، الفهارس في مادة الجريد؛ هـ.ر. إدريس H.R. Idris، **الدولة الصنهاجية**، الفهارس، في مادة الجريد وقسطيلية؛ ع. العروي، **تاريخ المغرب العربي**، باريس، 1970، ص 117، 125، 135، 136، 216؛ م.ن. الآجري، **الإحصاء العام للسكّان** (ماي 1966)، بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية. العدد 17 و18 (جوان 1969)، ص 127 - 171؛ أ. مارتال A. Martel، **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** - 1881 - 1911، باريس 1965، الفهارس في مادة الشط والجريد؛ م. الرويسي، **ظاهرة النزوح بالجريد** في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية. عدد 17 — 18 (جوان 1969)، ص 567 — 586. م. السكلاني، **الحركة الداخلية بالجنوب التونسي** بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية (ديسمبر 1970) ص 163 - 174؛ س.م. شتارن، **ثلاث ملحوظات موقعية شمال إفريقية** Thre North African Topographical Notes في مجلة ARABICA، ج I (1954)، ص 343 - 345؛ محمد الطالبي، **الإمارة الأغلبية**، الفهارس؛ ش؛ تيسو Ch. Tissot، **جغرافيا مقارنة للمقاطعة الرومانية بإفريقيا**، باريس، 1881، ج II، 30-31، 682-684.

(*) توزر ولاية منذ سنوات عديدة

(**) تطوّرت النّهضة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية في ولاية توزر تطوّرا ملحوظا منذ سنة 1966.

أما التعداد السكاني لمدينة توزر (حسب إحصاء سنة 1984) فهو: 604 21 ساكن

[المرجع : « هذه تونس ». نشر وزارة الإعلام - تونس 1990 - التّحرير -].



قفصة

قفصة مدينة بالبلاد التونسية تقع في الجنوب الغربي على بعد 360 كيلومتر من مدينة تونس، وعلى 200 كيلومتر من القيروان وعلى 100 كيلومتر من قابس، وتعدّ قفصة 30,000 ساكن. (*) وهي مركز ولاية تشمل 300,000 نسمة، (* *) أهمّ ما يوجد داخل أرضها من الثروات مناجم الفسفاط بالمظيلة والمتلوّي والرديّف وأمّ العرائس، وقد تمّ اكتشاف مدّخراتها في سنة 1885. وتحتوي واحة قفصة على قرابة 100,000 شجرة من النخيل تمورها ضعيفة الجودة، تضاف إليها بساتين البرتقال واللّيمون والمشمش والتين وكروم العنب، وما زرع حديثا من الزيتون وبعض غروس الفستق على سبيل التجربة. والريّ بها مضمون بفضل عيون المياه الغزيرة المتدفّقة داخل

المدينة نفسها وبفضل الآبار الأرتوازية الفوّارة. هذا وإنّ قفصة - باعتبارها أولى الواحات على الطريق الرابطة بين القيروان ومنطقة الشطوط، وباشتمالها على آثار من العصور القديمة والغابرة من شأنها أن تشدّ إليها الزوّار - قد آنستْ في نفسها استعدادا لاقتحام مجال السياحة. وقد استطاعت بفضل هذه الميزة أن تستفيد ببعض الخدمات والمرافق الحديثة، مثل تحسين شبكة الطرقات والتجهيزات الفندقية، وإنشاء الحدائق العمومية، وترميم « المسابح الرومانية » وإصلاح قصبة المدينة وجامعها الكبير، وإعادة بناء جزء من الأسوار البيزنطية على الشكل القديم، وغير ذلك. كما شهدت الصناعات التقليديّة بها شيئا من النهضة والانطلاق ، وهي تتمثل بالخصوص في نسج الأغطية والبسط ذات الزخارف الساذجة والألوان الزاهية .

تاريخ المدينة : كلمة قفصة هي الصيغة العربية للتسميّة القديمة وهي « كبصة » Capsa. وانطلاقا من هذا الاسم عمد، الباحث ج. مورغان J. Morgan منذ سنة 1909 إلى ابتكار لفظة « كبصي » Capsien لتسمية الحضارة المنتسبة إلى العهد الحجري القديم أو إلى العهد الحجري الأوسط، والتي كانت هذه المنطقة من أهمّ مراكزها، كما تشهد بذلك « حقول الحلزون » العديدة و غيرها من آثار الأنشطة التي ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ .

هذا وإن ماضي مدينة قفصة يبقى متسما دائما بالغموض حتّى عندما ندخل العصور التاريخية. من ذلك بالخصوص إنّنا لانعلم بدقّة متى تمّ تأسيس المدينة ومن الذي قام بذلك. والرأي السائد قديما إنهّا من تأسيس أحد الآلهة وهو الهرقل الليبي أو الفينيقي. وإذا ضممنا هذا القول إلى بعض الدلائل الأخرى كان في ذلك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن هذه المدينة بونيقيّة الأصل. على أنّنا لم نظفر بعد بأي اكتشاف أثري من شأنه أن يدعم هذا الافتراض. أمّا العرب فإنهّم يرون أنّ مؤسس المدينة هو شنتيان غلام النمرود ملك الكلدانيّين الأسطوري العجيب (انظر البكري، **المسالك**، ص 47 / 100). وفي الحقيقة فإن الباعث على إقامة المدينة- وإن بقيت أصولها غامضة - هو ما يتسم به موقعها من ميزات جغرافية. وكما يقول غزال Gsell (**التاريخ**، ج IV، ص 279) «فقد كان يوجد هناك ملتقى عدد من الطرقات الطبيعية المؤدية إلى كلّ من واحات الشطّوط، وقابس، ومقاطعة المزاق ومكثر وتبسّة ». ومن الجائز أن

يكـون البونيقيّـون قد استقـرّوا بهذا الموقع الذي ليس فيـه إلاّ الخير لهم والغنم لما كانوا يتعاطونه من التجارة .

وفـي فترة لاحقـة أصبحت المدينة جـزءا من مملكة يوغـرطة الـذي كان يسعى إلى إبقائهـا دومًا تحت حكمه بمعـاملتها معـاملة خاصّـة ومحاباة أهلهـا، ويذهـب فـي ذلك إلى حدّ إعفـائها مـن دفع الضرائب والجبايات. وقـد دفـعت المدينة بعد ذلك ثمنا غـاليا عن هذه الحظوة بسبب ما كان فيها من معنى الإخلاص والـوفاء للملك النوميدي. فقد قام كايوس ماريوسCaïus Marius، الـذي أوكلت إليـه رومة مهمـة إخضاع يوغرطة، بحملة تتّسم بالجرأة والإقدام، أخـذ خلالهـا المدينة بغتـة ثم جعلها فريسة للنّيران (سنة 107 ق . م). لكنّها استطاعت أن تنهض من تحت الرماد وأن تعـود إلـى سالـف حياتهـا. فأصبحـت في عهـد الأمبراطور تراجانـوس (98ـ 117) مدينة ذات نظام بلدي يسهر على إدارتها قضاة على الطريقة القرطاجيّـة، وفـي هذا دليل على وجود تنظيم بونيقي قديم تمّ الاحتفـاظ به في الإمبراطـورية. ثمّ حـلّ عهـد الإمبراطور ديوقليسيا نوس Diocletien (284 ـ 305)، فعمـد البربر إلى ركـوب المزيد مـن مظـاهر العـدوان والتحـرّش. ولم يكن بوسع رومـة إلاّ أنّ تجلي رجالها وتتخلىّ تدريجيا عن المنطقة. وتواصل تراجع الدخلاء وانحسـارهم في عهـد الـوندال، وبمجـرد مـوت ملكهم جنسريق (428 ـ 477) أصبحت «كبصة» عاصمة لإمـارة بربريّة .ثم عادت إلى حظيرة بيـزنطة فاحتضنتها من جديد في عهد الإمبراطور يوسطينيانوس Justinien (527- 565) الذي كان قـد أعـاد بناء وحـدة الإمبراطـوريـة وأرجع إليها سـالف مجدهـا. بل أنّ «كبصـة» أصبحت عندئذ عـاصمة لمقـاطعة المزاق. وفي سنـة 540 حصّنها الإمبراطور صالومـون بسور جديـد وأطلق عليها اسم «كبصـة اليوسطينيانيّة» Capsa Justiniana

ولم يبق اليوم بقفصة من معالم ماضيها القديم الفخم سوى بعض الآثار القليلة النادرة، مثل « الأحواض الرومـانية » وبعض الأساطين والسواري وتيجـان الأعمدة، وموادّ أخـرى أقلّ قيمة من ذلك أعيد استعمالها في بنـاء المسجـد الجامع بوجـه خاصّ، وكـذلك في غيره من مباني المدينـة القديمة. علـى أن قفصة قـد كانـت حافظت حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، على مـلامحها وطابعها كمـدينة عتيقة، بل وعلى استعمال لغـة مشتقّـة مـن اللاّتينية للتخاطب ـ وقـد انفردت بذلك

بين مدن إفريقيّة كلّها ـ كما حافظت أيضا على الدّين المسيحي الذي كان معتقد قسم كبير من سكّانها. ويقول البكري (في **المسالك**، ص 47 / 100)، وقد كان يكتب في أواسط القرن الخامس هـ . / الحادي عشر م.، إنّ « المدينة كانت كلّها مبنيّة على أساطين وطيقان من رخام » وإنّ سورها القديم كان من السلامة والكمال بحيث « تخال أنّه قد فرغ من بنائه بالأمس القريب ». وبعد مرور قرن على ذلك يأتي الإدريسي ليؤكد أيضا (انظر **النزهة**، ص 75)، إنّ معظم سكّانها من البربر وانّ الأغلبية منهم تتخاطب «باللّسان اللاّطيني الإفريقي ». (راجع أيضا ليفيسكي T.Lewicki **لغة رومانية الأصل منسية من لغات إفريقيا الشمالية** بمجلة Rocznik Orient، ج XVII (السنة 1953، في مواضع مختلفة).

وقد لامست الموجات الأولى من الفتوحات الإسلامية أسوار مدينة قفصة منذ سنة 27 هـ / 647 م، أي بعد الانتصار في سبيطلة وموت البطريق جرجير Grégoire. وبعد مرور عقدين من السنين استولى عقبة بن نافع على المدينة عنوة. ثم خرجت بعد ذلك من يد المسلمين مع كامل إفريقية حتى جاء حسّان بن النعمان فاسترجعها نهائيا حوالي سنة 78 هـ / 697- 698 م .)

وفي أواخر القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، وأوائل القرن الثالث / التاسع م. كانت منطقة قفصة عامرة بالخصوص بالخوارج من قبائل لواتة وزواغة ومكناسة. وقد اشتركوا سنة 224 هـ / 839 م. في الثورة التي هزّت منطقة قسطيليّة، فعاقبهم الأمير الأغلبيّ أبو عقال على ذلك عقابا شديدا، هذا ويذكر الشمّاخي (في **السّيَر**، 203) أنّ الإمام عبد الوهاب (168- 208 هـ / 784- 823 م). كان له بقفصة « عامل». وينبغي أن ندرك أنّ المقصود بذلك هو الجابي الذي كان يجمع الصدقات الشرعية من أتباع المذهب الإباضي ويوجّه بها إلى تاهرت بقدر متفاوت من السريّة والكتمان، وذلك لأنّ مدينة قفصة لم تكن يوما داخلة في حكم الدولة الرّستميّة .

وبعد أن خضعت قفصة لسلطان الفاطميّين، ثم الصنهاجيّين من بعدهم، أصبحت طيلة أكثر من قرن (445- 554 هـ / 1053 ـ 1159 م) عاصمة لدويلة مستقلّة بذاتها تشمل كامل بلاد قسطيلية، أي منطقة الجريد الحالي. فقد كانت زحفة بني هلال غيّرت فعلا وبصورة

عميقة المحيط السياسي والتوازن بين مختلف الأجناس والعناصر بالمنطقة كلّها، فانهارت أركان السلطة المركزية وعمّت الفوضى والاضطرابات كلّ الجهات. فعمد عند ذلك عبد اللّه بن محمد بن الرّند عامل المدينة من قبل الصنهاجيّين إلى إعلان استقلاله واستئثاره بالحكم (445- 465 هـ / 1053 ـ 1073 م) .، كما فعل كثير غيره ، ودفع الجزية للأعراب البدو (ولاسيما منهم قبيلة رياح)، وتحالف معهم فرسّخ بذلك أسس نفوذه وضمن الأمن والطمأنينة في أرجاء مملكته. وقد ساعده كلّ ذلك على استجلاب الشعراء والفقهاء إلى بلاطه .

ثم جاء عهد الموحّدين الذين جمعوا في حكمهم بين كامل أنحاء المغرب، واضعين بذلك حدّا لانفراد قفصة بأمرها. وقد قام عبد المؤمن بن علي سنة 554 هـ/ 1159 م. بافتتاح المدينة عنوة بعد حصار شديد. ومنذ ذلك الحين شهدت قفصة حياة مضطربة مثل كامل مناطق الجنوب من إفريقيّة. ونازع الموحّدين عليها أحد المغامرين من أصل أرمني يدعى قراقوش، كما نازعتهم بالخصوص دولة بني غانية. هذا ولم يذعن بنو الرند لما حلّ بهم ولم يقبلوا بتنحيتهم عن السلطة، فأعاد الأمير ابن المعزّ هذه الدولة إلى الحكم من جديد استجابة لرغبة أهالي المدينة الذين أغضبهم عامل الموحّدين فوثبوا عليه وقتلوه. فخرج الخليفة أبو يعقوب يوسف من مرّاكش وجاء بنفسه سنة 575 هـ / 1180م. لمحاصرة المدينة ، التي لم يدم خضوعها زمنا طويلا. فلم تلبث أن سقطت في قبضة بني غانية. فاضطرّ المنصور، هو الآخر، إلى محاصرتها على رأس جيش عتيد (سنة 583 هـ / 1187 ـ 1188م)، وفي هذه المرّة أنزل بقفصة شديد العقاب فدكّت أسوارها من الأساس، ولم يسمح لسكّانها بالاحتفاظ بأراضيهم إلاّ على أساس اعتبارهم مزارعين بالشرّاكة .

ولم تكن حياة المدينة أقلّ اضطرابا من ذلك في عهد الدولة الحفصية. فقد غلب عليها في سنة 681 هـ/1282م. الدعيّ ابن أبي عمارة (681 - 683 هـ / 1282 - 1284 م). ثم استرجعت بعد ذلك استقلاليتها المعهودة في ظلّ حكم دويلة محلية، وهي دولة بني العبيد الذين كانوا يدّعون النسب العربي. أمّا الأمير الحفصي أبو بكر الذي تميّز أوّل عهده - المتّسم بشدة التمزّق والاضطراب - بفقدان مقاطعات الجنوب، فقد حاصر قفصة في سنة 735 هـ / 1335 م.، واسترجعها ثمّ عهد بولايتها إلى ابنه أبي العبّاس. وقد سعى في

نفس الـوقت، بواسطـة التنـازل عن بعض الأراضي لفائدة الفقـراء وذوي الحاجة من سكّـان المدينة، إلى تمتين الـروابط بينها وبين دولتـه. لكنّها لم تلبث مع ذلك، بعد فترة قصيرة من السيطـرة المرينية عليها (748-750هـ / 1348-1350م)، أن استعادت حرّيتها من جديد تحت سلطة أحمد بن عمر بن العبيد ، ثمّ ابنه محمد من بعده. وقـد اضطرّ السلطان الحفصي أبو العباس (772-796 هـ / 1370-1394 م) إلـى استرجـــاع ملكـــه بحدّ الســلاح. فضرب الحصار على قفصة في سنة 780هـ / 1378م.، وقام بتدمير واحتها لإرغـام أهلهـا على الاستســلام، ثمّ ولّى عليها ابنـه أبـا بكـر. وبعـد ذلك، وفـــي خضمّ الاضطرابات التي أعقبت مـــوت الوالـــي التركـــي (سنة 793هـ / 1391 م)، قـــام شخـص يدعى الدُنَـيْـدن بإعادة الحكم من جديد إلى دولة بني العبيـد، مستأثرابه لنفسـه. فاضطَرّ أبو العبـاس إلى التدخّل مرّة أخرى. وفي أواسط سنة 795هـ / ربيع سنة 1393 م. حاصر المدينة من جـديد وعـاد فخرّب واحـة نخيلهـا. ومني ببعض الهزائم. ولم يتمكّن من السيطرة نهائيا على هذا الأمر- قبيل موتـه بأشـهر - إلاّ بمشقّة وعناء. ولم يدم ذلك طـويلا، إذ نجم بنو العبيد بـالمدينة من جديد في عهـد خلفه أبي فارس (796 ـ 837 هـ / 1394 ـ 1434 م، الذي أجبـر هو الآخـر على محاصرة المدينة وافتتاحها عنوةً (سنة 802هـ /1400 م) ثم قام بتهديـم أسوارهـــا من الأســاس فقضى بذلك نهائيـا على دولـــة المتمرّديـــــن. وبعـــد انقضاء بضعة عقود من السنين، قام السلطـان ابو عبد الله محمد المنتصر (837-839 هـ / 1434 ـ1435 م) بزيارة المدينة وتـرميم القصبة التي أقام بها سلفه .

ومنـذ ذلك الـوقت لم يرد ذكـر قفصـة كثيرا في معـرض الأحداث. فبعـد محاولة غير ناجحة سنة 1530 م، أمكن للقائد التركي درغـوث - الذي أوكل إليه السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566 م) حكم طرابلس - أن يفتتح المدينـة عنوة يـوم 20 ديسمبر 1556 م. لكنّ الاحتـلال التركي لم يـرجع إليها ســالف ازدهارهـا. فقد اجتمع على استنـزاف خيراتها كلّ من أعراب البـادية الرّحّل والحكـومة المركزيـة العاجـزة عن حمايتها فلم تفتأ تتدهـور وتتقهقر حتـى نزلت إلى مستـوى بلدة صغيرة مغمـورة احتلّتها الجيوش الفرنسية بدون عناء (يوم 20نوفمبر 1881) إبّان انتصاب الحماية بالبلا د .

الجغرافيا التاريخية : قفصة مدينة من مدن السهوب تقوم بين جبال عرباطة بالجنوب الشرقي، وجبال أصالة وابن يونس بالشمال والشمال الغربي. على مرتفع يبلغ علوّه 345 مترا، وفي موقع اتسم في مختلف عصور التاريخ بمظهره المقفر الموحش، وقد كانت دوما مثالا للحاضرة الكبيرة التي يعود نجاحها وازدهارها إلى ما يوجد بها من رصيد مائي وسط منطقة يغلب عليها الجفاف والجدب، وإلى موقعها الممتاز الذي يجعل منها، حسب عبارة ش. تيسو ـ Ch.Tissot « بابا من أبواب الصحراء ومفتاحا من مفاتيح التلّ معا وفي نفس الوقت » (انظر **الجغرافيا المقارنة** ... ج II، ص 668). أمّا سالسطس Salluste (86ـ35 ق.م) فإنّه وصف قفصة بأنّها « مدينة كبيرة وعتيدة»،. لكنّه كان يلّح منذ ذلك العهد على ما ينشأ عن وجود الفيافي والقفار الشاسعة المحيطة بها من مناعة للمدينة، وصعوبة على الجيوش الغازية في الوصول إليها .

وبفضل مثل هذه المؤهلات العديدة للنجاح، أمكن لقفصة أن تحافظ إلى نهاية العهود التاريخية القديمة، ورغم تقهقر منطقة المزاق، على ما كان لها من أهمية وازدهار. وبعد الفتح العربي ازدادت انطلاقتها قوّة وثباتا. فقد أسلفنا القول انها حافظت طويلا على مظهرها وأسلوب حياتها العتيقين. وفي أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي يصف لنا اليعقوبي مدينة قفصة على النحو التالي ـ وقد كان أوّل جغرافيّ عربيّ يترك لنا بعض الملاحظات الشخصيّة المفصّلة حول المدينة ـ فيقول : « مدينة حصينة يحيط بها سور مبنيّ بالحجارة. وبداخل المدينة ينابيع ماء جارية، وسككها مفروشة بالبلاط، وأحوازها كثيرة الخصب وثمارها مشهورة » (راجع **البلدان**، ص 212). وفي أواسط القرن الرابع هـ / العاشر م. يذكر لنا ابن حوقل ـ الذي كان موجودا بالقيروان سنة 336 هـ / 947 م. (راجع **صورة الأرض**، ص 94، ترجمة كرامرز وفيات Kramers-Wiet، ص 92)ـ إنّ مدينة قفصة كانت « مستقلّة بأمرها » وأنّ ازدهارها كان « في غاية الكمال » قبل سنة 330هـ / 942 م.، وهي السنة التي قام فيها أبو يزيد النكّاري بتخريبها (**صورة الأرض** ص 92، الترجمة، 93). وقد نهضت من نكبتها بسرعة فيما يبدو، إذ أنّ المقدسي (المتوفّ سنة 378 هـ / 988 م). يذكرها في أواخر القرن الرابع هـ / العاشر م. من جملة أمصار إفريقيّة وحواضرها

الكبرى. وفي منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. يقدّم لنا البكري (المتوفّى حوالي سنة 461هـ / 1068م).- ولم يكن قد زار البلاد بنفسه وإنّما كان ينقل أخباره عادة عن المؤرّخ الإفريقي الورّاق (المتوفّى سنة 363 هـ / 973-974م) - وصفا تمتاز قفصة فيه بكلّ المحاسن. وهذا الوصف الذي يعدّ من أكثر ما بلغنا عن المدينة تفصيلا في العصر الوسيط، يتحدّث بإطناب عمّا كان بها من معالم من عهود الأوّلين لا تزال على أحسن حال، ومن عيون فوّارة تزوّد بوفير المياه بساتينها الغنّاء التي كانت تنتج، فيما تؤتيه من الثمار، كميات وافرة من الفستق يتمّ تصديرها إلى كامل أنحاء إفريقيّة، بل وحتى إلى مصر وسجلماسة والأندلس، ويضيف البكري أنّه كان يوجد بها تمر في حجم بيض الحمام، وكان بضواحي المدينة وبجوارها مالا يقلّ عن المائتين من القرى الصغيرة والكور، تسمّى « قصور قفصة » ويعمّها الازدهار والرخاء. وآخر ما كانت تتميّز به من دلائل الثراء الذي لا مجال للشكّ فيه أنّ خراجها من الجبايات التي تدفع إلى الدولة كان لا يقلّ عن خمسين ألف دينار حسب ما يؤكده لنا الرواة. ومن الثابت أنّ هذا الوصف كان يصوّر أوج ما بلغته المدينة من مراتب الازدهار. وقد كان ذلك على أغلب الظنّ في زمن الورّاق، أي في آخر القرن الرابع الهجري / العاشرم. ويبدو أنّ هذا الازدهار قد تواصل خلال القرن الموالي، أي في عصر البكري، بالرغم عن هجمة بني هلال المباغتة، وقد اهتدى بنو الرّند إلى إقامة أسلوب في التعايش معهم كان يكلّفهم الكثير طبعا، لكنّه كان من قبيل الأمور التي يمكن تحمّلها. وبقيت المدينة على ازدهارها حتى أواسط القرن السادس هـ/ الثاني عشر م.، وهو العهد الذي كان يكتب فيه الإدريسي، وقد وصف قفصة بأنها « مدينة حسنة » بسورها السليم المتكامل ومياهها الغزيرة وأسواقها النشيطة النافقة التي تغصّ بالتجّار، وصناعاتها « القائمة » وواحتها الفسيحة ذات التمور « العجيبة » وأرباضها العامرة وبساتينها وأجنّتها ومزارعها المتنوّعة التي كانت تنتج فيما تنتج الحنّاء والقطن والكمّون وهي من المواد التي كان الناس يتهافتون عليها في العصر الوسيط .

وبحلول عهد دولة الموحّدين تغيّر الوضع تغيّرا كاملا. فقد كانت مدينة شديدة التعلّق باستقلالها. وكثيرا ما تمرّدت على الحكّام وخرجت على السلطة المركزيّة، فدفعت ثمنا باهضا جزاء تعلّقها المفرط بالحريّة. وقد تمّ مرارا - كما أسلفنا - تهديم أسوارها وتحصيناتها من

الأســاس وتدميــر واحـــــة نخيلهـــا. ومنـــــذ ذلـــك العهـــد بـــدأ تدهورهـــا وتراجعها الاقتصــادي. ففي القرن السابع هـ / الثالث عشر م. يقتصر ياقوت (574_626 هـ / 1178_1229 م)، بعد التذكير بسالف محاسنها، على وصفها بأنّها «بلدة صغيرة على تخوم إفريقيّة ... وسط أرض سبخاء قاحلة » (انظر البلدان، جIV، ص 382). أمّا قراها وضــواحيها التي كانت أكثر تعرّضا لمخاطر الاكتســـاح والتدمير، فقـــد آل أمرهـــا إلى الاندثار.

ففي زمن ابن الشباط (618_ 681 هـ/ 1221_1282 م) _ فيما نقل عنه الوزير السرّاج (انظر الحلل، ج I، ص 437) ـــ « لم يبق منهـــا إلاّ القليل ». وفي أواسط القـــرن الســادس عشر يقــول الحسن بن محمـد الفاسي (المعــروف بليون الإفريقي Jean -Léon l'Africain) بعـد الإشارة إلى مـا كـان أمر بـه المنصور من تهديم وتخريب : «واليــوم عمرت قفصة من جديـد بالسكّان، لكنّنا لا نجد فيها سوى مبان متواضعة باستثناء بعض الجوامع. وسككها في غايـة الاتّساع وهي مفـروشة كلّهـا بالبلاط الأســود كشوارع نـابولي وفيرنزا. وأهلها متحضرّون متّسمون بحسن المعاشرة، إلاّ أنهم فقراء لكثرة ما يثقل كواهلهم من الضرائـب والجبايـات التي يدفعونهـا لملـك تونـس» (انظر وصف إفـريقيا، ج II، ص 444). ثم يستمـرّ الكاتـب في كلامـه متحدثــــا عن فســـــاد مناخها ومثنيـا على ما تنتجـــــه من أنسجة وأواني فخّار وتمور، ومــادحا مابها مــن بســاتين برتقال وحقــول زيتون «زيتـه في غايــة الكمال طعما ولــونا ». وعلينــــــا بعـد ذلك أن ننتظـــر حلـــول القـــرن التاســـع عشـر، ورحلات غيران Guérin وزاكّون Zaccone ومايــــه Mayet لكــي نظفـــر بأخبـــــار أخرى عن المدينة وبوصف جديد لها، بعد أن أصبحت مجرّد قرية حقيرة بائسة .

ثبت المراجع

مصادر جغــرافية (مــرتبــة حسب التسلسل الــزمني) ابن خــرداذبــه، **المسالك**؛ وابن الفقيه، البلدان، تحـــ وترجمة لحاج صادق بعنوان **وصف المغرب**... Description du Maghrib، الجزائر، 1949، ص 6 / 7 مع التعليق 74، 30 / 31؛ اليعقوبي، **البلدان**، ترجمة ج . فيــات G.Wiet بعنوان Les Pays، القاهرة، 1937، ص 212 ؛ ابن حوقل، **صورة الأرض**، ط. بيـــروت، بــــدون تاريخ، ص 87، 92 (ترجمة كرامرز _ فيات Kramers-Wiet ص 92، 93)؛ المقدسي، **أحسن**

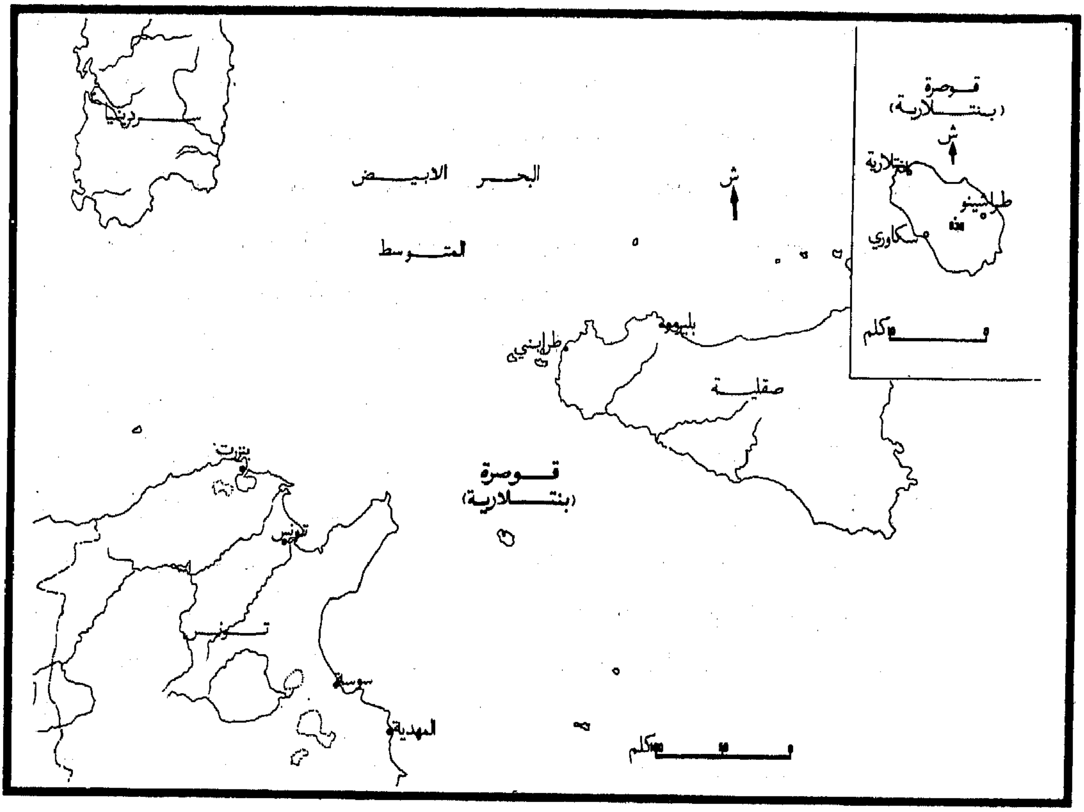
التقاسيم، تحـ. وتـرجمة جزئية لشـارل بيلاّ Ch. Pellat بعنـوان وصـف المغرب Description de l'Occident، الجزائـر، 1950، ص 4 / 64,5 / 65 ؛ البكري، المسالك، تحـ. وترجمة دي سلان de Slane، باريس، 1965، ص 14 / 35، 47 / 100 ـ 102، 75/ 153، 148 / 284 ؛ الإدريسي، النزهة ط، جزئية لهنري بيراس H. Pérès، الجزائر، 1957، ص 75، 80، 89 ؛ ياقوت، البلدان، بيروت 1957، †IV ص 382 ـ 383؛ التّجاني، الرّحلة، ط. تونس، 1958، ص 114، 136 ـ 139، 147، 353، 356 ـ 357 صفيّ الدين البغدادي، مراصد الاطلاّع، تحـ. علي محمد البجاوي، القاهرة، 1954، ج III، ص 1113؛ جـان ليون الإفـريقي Jean-Léon l'Africain وصف إفريقيا، ترجمة عن اللاّتينية لايبولار A. Epaulard باريـس، 1956، ج II، ص 443 ـ 445؛ الوزير السـرّاج، الحلـل تحـ. م .ج. الهيلـة، تونـس 1970، جI ص 368، 379 ـ 381، 388، 436 ـ 437، 488 ـ 1005، 1007 ؛ ف . غيـران V.Guérin رحـلـة أثريـة فـي الإيالـة التونسيـة Voyage archéologique dans la Régence de Tunis باريـس، 1862 جI، ص 270 - 287 زاكون Zaccone، تقييدات حـول الإيالـة التونسية Notes sur la Régence de Tunis، باريس، 1875، ص 208 ـ 216 سياليـس Céalis، مـن سوسة إلى قفصـة De Sousse à Gafsa، باريـس، بـدون تاريـخ، ص 153 213 ف . ماييـه V. Mayet رحلـة فـي جنـوب تونـس Voyage dans le Sud de la Tunisie باريس 1887، ص 171 ـ 186.

ـ الدراسات : ل . بلوط L. Balout عهد ما قبل التاريخ بإفريقيا الشمالية Préhistoire de l'Afrique du Nord، باريـس، 1955 ص 387 ـ 448 ؛ بـودروو Bodereau، قفصة القديمة وقفصة الحديثة La Capsa ancienne et la Capsa moderne، بـاريس، 1907؛ ع . بـوحديبـة، ظـروف عيش عمـال المناجـم بمنطقـة قفصـة، بمجلـة Etudes de Sociologie Tunisienne تونـس، 1968، جI، ص 165 ـ 233؛ ر. برانشفيك ـ R. Brunschvig، الدولـة الحفصيـة Hafsides ج I، ص 3، 6 ـ 9، 21، 149، 150، 158، 174، 189 ـ 190، 207 ـ 208، 305، 328 ـ ج II، ص 105 ـ 106، 186، 199، 220، 280 ؛ ج . ديبوا J.Despois إفريقيا الشمالية L'Afrique du Nord، باريس، 1958، الفهـارس ؛ ش. ديل، إفريقيا البيزنطية l'Afrique byzantine، باريس، 1896، ج I، ص 126، 169؛ جII، ص 388، 391، 529، 560، 572 ؛ ل. فوشي L.Foucher حضر موت Hadrumetum باريس، 1964، ص 262 ـ 321 ؛ ج . غانياج J. Ganiage أصول الحماية الفرنسيـة بالبلاد الفرنسية (1861 ـ 1881)، باريس، 1959، ص 138، 145، 171؛ س غزال S.Gsell،

التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية، باريس، 1913-1928، جII، ص 98- 99، ج V، ص 204 ، 278-279 ، ج VII، ص 231 -235 ؛ هـ. ر. إدريس H.R.Idris **الدولة الصنهاجية** Ziride، جI، ص 222-223 396-399 ، جII، ص 470- 471 ؛ ش . أ .جوليان Ch.A.Julien، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، باريس، 1956، ج II، ص 271 ؛ ع، العروي **تاريخ المغرب العربي**، باريس، 1970، ص 117، 175، 220 309؛ أ. مارتال A.Martel **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** 1881-1911 Les Confins saharo-tripolitains de la Tunisie (1881-1911) باريس، 1965، جI، ص 243 - 244 ، 260 - 265 ، 276 -278 ؛ أ. سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، القاهرة، 1965، ص 113، 141-143 ، 190-191؛ م. الطالبي. **الإمارة الأغلبية**. ص 219-220 356 359، 672-677 ، 686 ؛ ش . تيسو Ch.Tissot، **الجغرافيا المقارنة للمقاطعة الرومانية بإفريقيا** Géographie comparée de la province romaine d'Afrique باريس، 1884، ج II ص 264، 265، 268 ؛ ج. توتان J.Toutain، **المدن الرومانية بالبلاد التونسية** des Cités romaines de Tunisie، باريس، 1896؛ ر.فوفراي R.Vaufrey. فترة ما قبل التاريخ بإفريقيا (Préhistoire de l'Afrique ج I، المغرب العربي Le Maghreb ، باريس، 1955، ص 14 27، 195، 407-415.

(*) 60970 ساكن (التعداد السكاني لسنة 1984 - المرجع : « هذه تونس » - نشر وزارة الاعلام - تونس - 1990).

(**) هناك تطور ملحوظ في التعداد السكاني لهذه الولاية.



قوصرة

قوصرة أو قُوسرَة، جزيرة إيطالية تسمى اليوم بنطلاّرية Pantelleria، تبعد 100 كلَم عن صقليّة و 76 كلم عن المدينة التونسية قليبية (كليبيا) Clupea، وهي رعن بركاني مساحته 83 كلم 2 يخلو من الماء العذب يشرف من ارتفاع 836 م، سكّانه 10000. وتسمية قوصرة ــ كما يرسمها ياقوت ـ ويقترح لها أصلا عربيا (قفة التمر)ـ وأغلب المصادر، هي في الواقع من أصل يوناني. وهو تحريف كوسيرا Cossyra ، ويتجلى بصفة أوضح في الشكل الذي وثقه واحتفظ به البكري : قُوسرَة. ومن جهة أخرى، لاريب أنها كانت تنطق بصفة دارجة قوصرة ، ثم وقع تعريبها في النصوص، تماثلا مع صيغة عربية، فأصبحت قَوصْرَة .

ولما كانت قوصرة دون قيمة استراتيجية واقتصادية ، فإنها لم تشغل التاريخ إلاّ قليلا ، ولا تلتقط إلاّ معلومات قليلة في شأنها في المصادر العربية : فعند غزو عبد الله بن سعد بن أبي سرح لإفريقية (27 هـ / 647 - 648م) تجمع سكّان جزيرة شريك (الوطن القبلي) بكليبيا ولجؤوا مؤقّتا إلى قوصرة. وبعد نصف قرن، حوالي 81 هـ / 700 م، ذهب عبد الملك بن قطن - وقد آل به الأمر إلى أن يصبح واليا للأندلس - لاجتياح الجزيرة، ويرجح أنه انطلق من مصر. وقد واصلت قوصرة إثر ذلك من دون شكّ استقبال الأساطيل الإسلامية الزائرة من حين لآخر لما بدأت في اجتياح البحر الأبيض المتوسط. وفي سنة 221 هـ / 836 م، كانت قوصرة باقية في أيدي البيزنطيّين، وكانت تستخدم قاعدة لأسطولهم المقاتل ضد أسطول الأغالبة الذين شرعوا منذ 212 هـ / 827 م في غزو صقليّة. ولا يعرف متى استولى عليها هؤلاء. لكنّها كانت ملكا لهم بعد، بلا شكّ، سنة 250 هـ / 864 م. وبداية من هذا التاريخ، غدت الجزيرة التي عربت وأصبحت مسلمة في الأثناء بصفة كاملة، جزءا من إفريقية، حتى العهد الموحّدي .

وبالطبع لم تفلت من الصراعات التي تواجه فيها نرمان صقلية والزيريّين. ففي نواحيها، غرق الأسطول المكوّن من 400 سفينة والذي جهزه المعز بن باديس (407 — 454 هـ / 1016 - 1062 م) لنجدة مسلمي صقليّة في ذي القعدة 416 / جانفي 1026. وهناك أيضا، تجمعت أساطيل بيزا Pise وجنوة Gênes سنة 480 هـ / 1087 — 1088 م، وكانت تعتزم مهاجمة إفريقيّة. وقد أنذر مسلمو الجزيرة تميما (454 - 501 هـ / 1062 - 1108 م) بواسطة الحمام الزاجل بالخطر الذي يعترضه. وفي سنة 517 هـ / 1123 م.،نهب الأسطول النرماني قوصرة، في طريقه إلى المهدية،واجتاحها،وقتل سكّانها.وأخيرا،في سنة 543هـ/ 1148 - 1149م، استولى الأسطول الصقليّ الذي يقوده جورج الأنطاكي Georges d'Antioche على الجزيرة، قبل أن يذهب لانتزاع عاصمة الزيريّين .

وقد استرجع قوصرة دون شكّ إثر ذلك الموحّدون الذين قدموا لتحرير إفريقية من الحضور المسيحي، وتوحيد المغرب، ولم يكن ذلك لوقت طويل. ففي معاهدة عقدت بتاريخ 15 جمادي الثانية 618 هـ / 6 أوت 1221م، مع الإمبراطور فريديرك الثاني Frédéric II ، تخلّ حاكم تونس الموحّدي عن قوصرة لصقليّة، بشرط أن يتمكن مسلمو الجزيرة من التمتّع

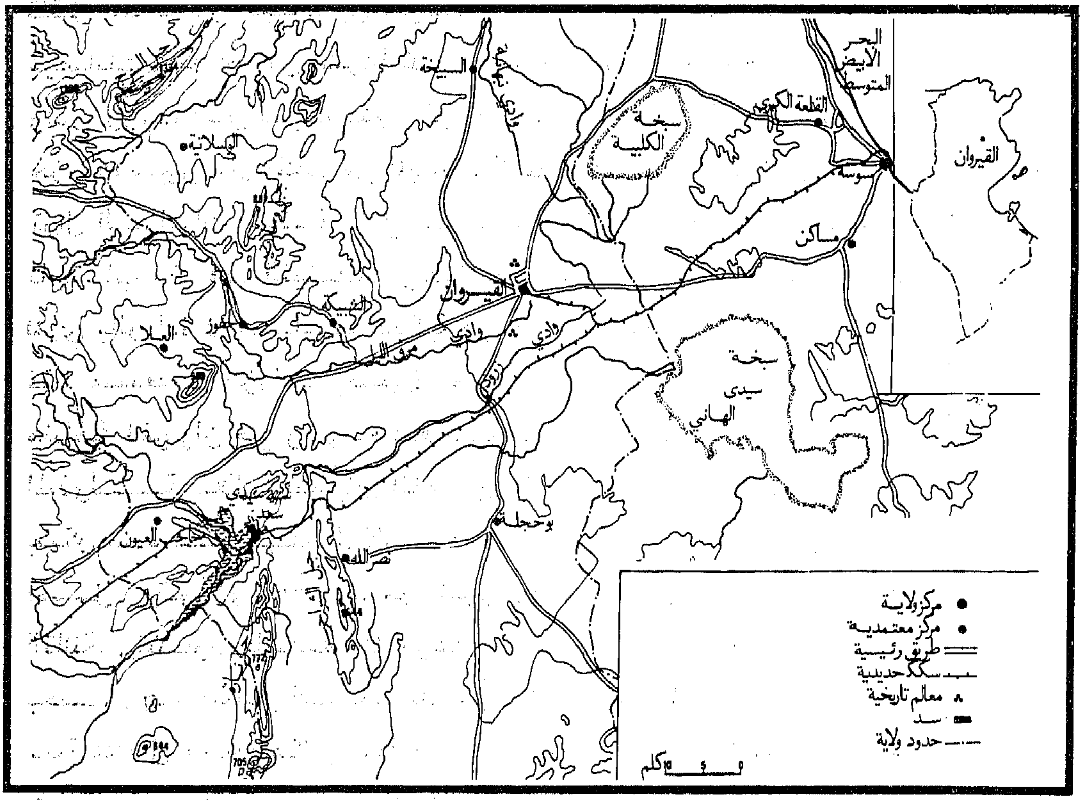
بالاستقلال الإداري والقانوني، و أن يدفع نصف الضرائب المأخوذة منهم لإفريقية (ماس لاتري Mas-Latrie، معاهدات... Traités، باريس، 1886، ص 153 ـ 155) ومن هنا، اتبعت قوصرة مصير صقليّة، وارتبطت خلال بعض الوقت بمملكة أراغون Aragon، وتحصلت حسب المحتمل من القطلونيّين Catalans على تسميتها الجديدة ببنطلارية Pantelleria. غير أن حكام تونس لم يتخلّوا بصفة كاملة عن استعادتها.وتضبط معاهدة غريبة بتاريخ 1403م. الشروط التي يمكن لحاكم آراغون أن يستولي على جربة، وحاكم تونس على قوصرة. لكنّ هذه المعاهدة الغريبة لم تطبّق على الاطلاق.

وقد بقي سكّان قوصرة طويلا مسلمين، حتى أن ياقوت (المتوفى 626 هـ / 1228م) يحدّد أنهّم كانوا في القرن السابع هـ / الثالث عشر م. يتكوّنون من الوهبية ـ أصيلي جربة ؟ ـ الذين كان شظفهم ملائما تماما لوضع الجزيرة ومواردها الشحيحة. وعملت السلط المسيحية الجديدة كلّ العمل على الاحتفاظ بهم. وهكذا نرى، سنة 1438 م، الفونس الآراغوني Alphonse d'Aragon يشكو إلى سلطان تونس من أن بعض الموظفين الحفصيّين كانوا يشجّعون هجرتهم. وطالب سفيره بعودة المهاجرين، وربما بإقرار أفارقة جدد في الجزيرة. ولا ندري في أي تاريخ بدأت المسيحية في قوصرة، لكنّ فازلّو Fazello الذي يذكره أماري Amari تاريخ III Storia، 895) ، يخبرنا أنّه منذ بداية القرن العاشر هـ/ السادس عشر م. كان المسيحيّون والمسلمون بها يرتدون نفس الملابس ويتكلّمون عين اللّسان. وهذه اللغة حسب بوني Bonnet ـ التاجر البروفنسي الذي استرقّ بتونس، وتمكّن من الفرار منها ـ كانت، في التاريخ الذي لجأ إلى قوصرة، أي سنة 1670، هي نفس اللّغة التي يتكلّم بها في مالطة، وقد كانت إذن عربية، لا بد أنهّا قد تغيرّت بعد بصفة عميقة .

وقد كانت موارد الجزيرة دائما شحيحة بقدر. وكانت غاباتها توفّر خشبا ذا نوعية ممتازة، ويقال إنّه كان يصطاد فيها الماعز الوحشي. وفي منتصف القرن السابع عشر، حسب بوني Bonnet كانت كلّ تجارة الجزيرة تتمثل في الخمور، والفحم، والخشب، وكان سكّانها ينقلونها إلى صقليّة ومالطة (ب . غرانشان P. Grandchamp، تاجر بروفنسي،Un marchand Provençal... 14.).

البيليوغرافيا : **المصادر** ـ البكري، **المسالك**، تحـ. دي سـلان De Slane، باريس، 1965، 45 / 97 ؛ نفسـه، **جغرافيـة الأنـدلس والمغـرب**، تحـ. ا. ا. الحاجـي، بيروت ، 1968، 226 - 227 ؛ ابن الأثير، **الكامـل**، ط. بيـروت، 1965-1966، VI ، 339 ؛ IX ، 349 ، X ، 166، 197، 198، 612، XI ، 125؛ ياقوت ، ط. بيروت، 1957، IV ، 413؛ صفيّ الديـن البغـدادي، **مراصـد**، القاهرة، 1955، III ، 1133، (يلخّـص ياقـوت)؛ ابن عبد المنعـم الحميـري، **الـروض**، تحـ . جـزئي أ. ريزيتانـو U.Rizzitano، فـي مجّلة كليّة الآداب، جامعة القاهـرة، (ماي 1956)، XVIII ، 172-173؛ البلوي، **تاج المفرق**، مخطوط دار الكتب الـوطنية بتـونس،رقم 15060،و24 وجـه؛ ابـن خلـدون، **المقدمـة**، بيـروت، 1956، 454، 455؛نفسـه،**العبـر**،بيـروت،1956- 9،V، 433، VI ، 331.

الدراسـات : ح.ح عبـد الوهـاب، **قصة جزيـرة قوصـرة العربيـة**، فـي المجلّـة التاريخيـة المصريـة 2II / (القاهـرة، 1949)، 55 - 73 (أعيـد نشـره فـي ورقـات، II، تونـس،1966 ، 277 - 316 ، تـرجم بالفرنسيـة في أعمال الجمعيـة الملكيـة للدراسـات التاريخيـة Procedings of the Royal Society of historical Studies (القاهـرة، 1951)، 57- 78 ؛ م . آماري M. Amari **تاريخ مسلمـي صقلّيـة** Storia dei musulmani di Sicilia، كاتـان Catane 1933 - 1935 ، الثبت فـي مـادّة بنطلاريـة؛ هـ. براسـك H. Bresc، **بنطلاريـة بين الإسـلام و المسيحيـة** Pantelleria entre l'islam et la chrétienté فـي كراسـات تونـس Cahiers de Tunisie LXXV - LXXVI ،(1971)، 105- 128؛ ر. برانشفيـق R.Brunschvig، **الحفصيـون** Hafsides، I ، 26 225، 249، 272؛ شـ . أ : دوفـورك (Ch. E. Dufourcq)، **إسبانية القطلونيّة و المغرب في القرنين الثالث عشر و الرابع عشر** (L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIIIè et XIVè siècle)، بـاريس، 1966، الثبـت في مـادة بنطـلاريّـة ؛ ب. غرانشان P.Grandchamp، **تاجـر بروفنسـي** Un marchand provençal esclave à Tunis (1669 - 1670) ، تونـس ، 1939، 13، 14؛ هـ.ر.إدريس R.Idriss، **الزيريّـون** (Zirides)، 168، 174، 288، 335، 356، 527؛ م. الطالبـي، **الإمـارة الأغلبيـة** Emirat Aghlabide، 267، 439.



القيروان

القيروان، مدينة في وسط البلاد التونسية تبعد مسافة 156 كيلومترا عن مدينة تونس، ومسافة 57 كيلومترا عن مدينة سوسة، وتقع على ارتفاع 60 مترا فوق مستوى سطح البحر. وهي مركز ولاية تشتمل على 336,000 ساكن(*)يعيشون فوق مساحة تساوي 680,000 هكتار. وقد كان عدد سكّان المدينة يبلغ 34,000 شخص في سنة 1956، فتطوّر إلى 47,000 شخص (في إحصاء سنة 1966)، ثمّ إلى 56,000 نسمة سنة 1972.(**) وتشهد درجات الحرارة بالمدينة فروقا عظيمة إذ أنها تتراوح بين بضعة درجات مئوية تحت الصفر في الشتاء وبين 40 درجة أو أكثر في فصل الصيف. وتهبّ على المدينة ريح السّموم الصحراوية بمعدّل 21 يوما في السنة. أمّا معدّل نزول الأمطار فهو يتراوح بين 250 و 300 ميليمتر في السنة

بالمدينة نفسها وضواحيها، ويصل إلى 500 ميليمتر بالمناطق الغربية من الولاية. ويتفاوت نزول الأمطار بصورة كبرى من سنة إلى أخرى، إذ تنتقل المنطقة من الجفاف إلى الفيضانات البالغة حدّ الكوارث، وقد كانت فيضانات سنة 1969 من أكثرها تدميرا وإتلافا للمنشآت والخيرات. وإنّ سدّ وادي زرود، الذي سوف يشرع قريبا في بنائه(***) ، والذي سيمكّن من خزن 80 مليون متر مكعّب من المياه، وكذلك سدّ وادي مرق اللّيل الذي لا تزال الدراسات المتعلقة به في مراحلها الأولى، (****) سوف يسمحان باجتناب مثل هذه الفيضانات وتفاديها، وبتوسيع رقعة الأراضي القابلة للريّ بالزيادة في مساحتها الحالية البالغة 14,000 هكتار (منها 8,000 هكتار فقط مستغلّة في الزراعة بصورة فعلية). وفعلا فإنّ الوجهة الغالبة على منطقة القيروان هي وجهة فلاحية أساسا. وقد سمحت الجهود المبذولة خلال العشريّتين الماضيتين بتطوير زراعة الأشجار المثمرة بشكل ضخم. فهذه الولاية تعد في سنة 1972 ما يساوي 350,000 أصل زيتون و 2,800,000 شجرة لوز. وتأتي أشجار المشمش في المرتبة الثالثة. وتتفاوت المساحات المزروعة قموحا بشكل كبير بين سنة وأخرى بحسب وعود أمطار الخريف. فقد مرّت هذه المساحات من 58,000 هكتار سنة 1968 إلى 200,000 هكتار سنة 1972. وكانت في حدود 75,000 هكتار في سنة 1956 ثمّ بلغت 225,000 هكتار سنة 1959. وفيما يتعلّق بالمواشي فقد كانت تعدّ في سنة 1972: 260,000 رأس من الأغنام و14,000 من البقر و 20,000 من الماعز و 11,000 من الإبل. أمّا القطاع الصناعي فإنّه لا يزال في طور المخاض، وهو يشمل حوالي عشر مؤسسات صغرى (في ميادين الصّباغة والنّجارة وصناعة الحلوى والتصبير الغذائي) تستغّل كلّها ألف شخص تقريبا. وليس من المنتظر أن يشهد هذا القطاع توسّعا كبيرا. على أنّ المنزلة الأولى في نشاط مدينة القيروان تبقى لقطاع الصناعات التقليدية. فصناعة الخشب والنحاس والحلفاء، وإنتاج المصوغ والقناديل والغرابيل، وممارسة الصّباغة والنسج التقليديّين تشغّل في جملتها 1,200 من الحرفيّين. لكنّ شهرة القيروان تعود بالخصوص إلى الصناعة اليدوية للزرابي الصوفية الكثيفة. فقد تمّ منذ مدّة إنشاء الديوان القومي للصناعات التقليدية ، ممّا سمح بتدريب وتكوين عاملات مختصات جديدات في ورشاته وبإدخال شيء من الحداثة على أشكال الزخارف. إلاّ أنّ ذلك لم يجرّد هذه الصناعة التقليدية من طابعها العائلي ومن صبغتها النسائية أساسا. فكان عدد

«السدّايات» العائلية يبلغ 4500 آلة في سنة 1972. وتطوّر إنتاج الزرابي من 56,000 متر مربّع سنة 1962 إلى 130,000 متر مربع في سنة 1972، ومازال قابلا للزيادة والنموّ. لكنّ هذه الجهود كلّها لم تسمح مع ذلك بتحقيق التشغيل الكامل بسبب ارتفاع نسبة الولادات وتزايد النسل على وجه الخصوص. لذلك فإنّ ثلث السكّان الذكور النشيطين يوجدون في حالة تشغيل منقوص أو في عطول كامل عن العمل.

وتتكوّن القيروان حاليًا من «المدينة» القديمة ذات الأزقّة الضيّقة الملتوية حيث تحافظ الأسواق أو تكاد على الطابع العامّ الذي اكتسته منذ القرن الثامن عشر. وهذه «المدينة» لا تزال اليوم محاطة بأسوار ذات شرفات، مبنيّة باللّبن، تحصّن جنباتها بين المسافة والأخرى دعائم وأكتاف قائمة مستديرة. ويزيد طول هذه الأسوار على الثلاثة كيلومترات، وبغرب المدينة وشمالها الغربي تمتدّ أرباض «القبليّة» و«الجبليّة» و «جلاص»، وفي الناحية الجنوبية، بين باب الجلاّدين (أي ممارسي صناعة الجلود) - الذي أطلق عليه منذ الاستقلال اسم باب الشهداء، وهو باب الدخول إلى المدينة القديمة - وبين محطّة السكّة الحديدية، تقع المدينة العصرية حيث توجد الدواوين الإدارية والبنوك والنّزل وغير ذلك، وقد تمّ بناء حيّ شعبي، يدعى حيّ سيدي سحنون، بالناحية الغربية. ويوجد بها حي آخر، وهو حيّ المنصورة، يحتوي على أربعمائة بيت من الطراز العصري هي على ملك أشخاص أكثر يسرا. أمّا أهمّ المعالم التاريخية بالمدينة، بالإضافة إلى الجامع الكبير، فهي جامع الأبواب الثلاثة الذي تشكّل واجهته أنموذجا جميلا من المعمار الأغلبي - وقد أقيم هذا المسجد سنة 252 هـ / 866 م. على يد محمد بن خيرون المعافري الأندلسي، وجرى إصلاحه وترميمه في القرن الخامس عشر -، ثمّ فسقية الأغالبة بباب تونس، ومقام سيدي الصاحب، — وقد كان في أوّل الأمر مقاما بسيطا وقديما جدًّا يؤوي قبر أحد صحابة الرسول عليه السلام، وهو أبو زمعة البلوي. وفي ذلك الموقع قام الباي حمّودة باشا المرادي بتشييد المبنى الحالي - وكذلك مقام سيدي عمر عبادة الذي تمّ بناؤه في القرن التاسع عشر.

- **تأسيس القيروان** : كل الغزوات العربية، التي آلت إلى فتح إفريقية والتغلّب على الروم البيزنطيّين بها، كانت في أوّل الأمر تجتهد في تجنّب الطريق الساحلية. وكان الفاتحون يدخلون البلاد عن طريق قسطيليّة (أي

بـلاد الجريـد)، ويسعون مـن هناك إلى بلـوغ منـاطق الـوسط والشمال. وبحكم اجتنابهم في الشرق ساحل البحرـ المليء بالمخاطر بالنسبة إلى جموع من الفاتحين لم تتوفّر بعـد لديهم قوّة بحريّة كافيـة ـ وحيادهم في الغرب عن الجبال المؤاتية لنصب المكامن وحدوث المباغتات، فـإنه لم يكن لهم بدّ من سلوك المعبر المؤدي حتما إلى ناحية قمّـونية، أي القيروان. فهذه المدينة التي كانت في بادىء أمرها قاعدة عسكرية، إنّما نشأت كنتيجة لهذه الخطّة الاستراتيجية النـابعة من غضون تضـاريس البلاد ومن أصـول التقنيات القتاليـة التي اختارهـا الفاتحون واعتمـد نا .وينسب تأسيسهـا عادة إلى القـائد عقبةبن نـافع. على أنّ تأسيس المدينـة قـد تمّ في الحقيقة على عـدّة مراحل، واعتراه كثير من التردّد، وساهم فيه عدد من القوّاد العسكريّين .

لقد مكّنت معركة سبيطلة (في سنة 27 هـ / 647 ـ 648 م) عبد اللّه بن سعد ابن أبي سرح من التحكّم عمليّا في قـيَـاد مقـاطعة المزاق البيزنطيّـة، بعد تراجع البيزنطيّين إلى ما وراء خطوطهم المحصّنة الخلفيّة التي كانت تحمي مقاطعـة البروقنصليّة. وليس من المحـال ولا من الغريـب أن يكون أولائك الفاتحون الأوّلون قد بلغوا آنذاك في غاراتهم نواحي القيروان، قبل الانجلاء عـن البـلاد مقابل جزيـة ذات وزن وقيمـــة. بـــل انّ ابـن ناجي يشير (في **المعالــــم**، ط. تونس 1320 هـ / 1902 م، ج I، ص 30) إلى وجود مسجد بالقيروان أطلق عليه اسم ابن أبي سرح، وهو نوع من الاعتراف والاحتفاء بذكرى بلوغ الرجل تلك الرّبوع .

وفيما بعـد تـزداد الأمور وضوحا و دقّـة. فقـد قام معاويـــة بن حديج بثلاث حمـــلات على إفريقية، ذلك، على التـوالي، سنة 34 هـ / 654 - 655 م، وسنة 41 / 661 ـ 662 م، ثم 45 هـ / 665م. وعبر في المرّات الثلاث نفس الممرّ الذي سلكـه سلفـه، ووصـل إلى منطقة قمّونية حيـث نـزل بجيشـــه. ويخبرنـــا بتفاصيل ذلك ابن عبد الحكم فيقـول انّ ابن حديـــج فـــي سنة 34 هـ / 654- 655 م.» افتتـــــح قصورا وغنم مغانـم عظيمة واتخّـذ قيروانـا عنـد القـرن » (انظـر **الفتـوح** ط. جـزئية مع ترجمـــة لـ أ. غاطـــوA. Gateau، الجزائر، 1948، ص 57). ونجـد معاويـة بن حـديج نـــازلا من جديـد عنـد القرن سنة 41 هـ/ 661- 662 م. (انظر ابن عذاري، **البيان**، ط. كولان وليفي بروفنصالColin et Lévi-Provençal، ليدن، 1948، ج I، ص 15). كما نجـده مرّة أخـرى بالقرن سنة 45 هـ / 665م. (انظر المالكي،

الرياض، تحـ. حسـين مؤنس، القاهـرة، 1951، ج I، ص 17 - 18 ؛ ابـن عذاري **البيان**، ج I، ص 16، ابـن ناجي، **المعالـم**، ج I ص 39-40) . وفي هذا الباب يقول المالكي إن: «ابن حديج اختطّ مـدينة عنـد القرن قبل تأسيس عقبة القيروان، وأقام بها كامل المدّة التي بقي فيها بإفريقية ». ويؤكد ذلك ابن ناجي من جهتـه فيقول : « وعند عـودته إلى قمّونّيـة ابتنى ابن حديج بناحيـة القرن مسـاكن سماها القيروان، وكـان موقـع القيروان الحالية لا يزال غيـر مسكون و لا معمـور » (**المعالم**، ج I. ص41). أمّا الموضع الذي سمّاه ابن حـديج «القـرن» (أي الجبل) فهـو يستمـدّ تسميتـه من علـوّ مـوقعـه. وهو بـدون شكّ ذلك الجبيـل الصغير (على ارتفـاع 171 مترا) المعروف اليـوم ببطن القرن و الواقع على مسافـة 12 كيلومترا بالشمال الغربي من مـدينة القيـروان الحاليـة على طريـق جلولـة في مكـان يعتبر اليـوم منطقـة سياحيّة. (انظر م، صولينياك M.Solignac، **بـحوث في التجهيـزات المائيـة**، بمجلّة، A.I.E.O، الجزائر، المجلّد X، (1952)، ص 12، التعليق 10). فالاختيار الأوّل بخصـوص تأسيس القيروان وقع حينئـذ على مكـان مرتفع في مأمن من الهجومات المباغتة ومن مخاطر الفيضـانات. هذا ولئن لم تحافظ «قيروان» معـاويـة بـن حـديج على دورهـا كعاصمـة لافريقية فإنهّا لم تفقـد مـع ذلك وجودهـا، واقتصـر الناس بعد ذلك على تسميتهـا بالقـرن. فبمـوقع القـرن هزم في سنـة 124 هـ/ 742م، الثائـر الخارجيّ عكاشـة علـى يـد حنظلـة ابن صفـوان والي إفريقية. وقـد ورد ذكر القـرن مرّة أخـرى في أواخر القـرن الثاني هـ / أوائل القـرن الثامـن م. (انظـر: أبو العرب، **الطبقات**، تحـ .ابن شنب، باريس، 1915 ، ص 67 ، المالكـي، **الرياض**، ج I، ص 18). ثـم لا نقـف بعـد ذلك علـى أثر لها عنـد المؤلّفين، فـلا يـذكرها البكـري ولا الإدريسي، في حـين يكتفـي ياقوت بقوله إنّ القرن جـبل بإفريقيـة (**البلدان**، ط. بيروت، 195، ج IV، ص 333).

وفـي سنـة 50 هـ ـ / 670 م. قام الخليفـة معاويـة مـؤسس الدولة الأمويـة بفصل إفريقيـة عن حكـم ابن حديج ليعهد بولايتـها إلى عقبة بن نافع، مُقـرّا مـع ذلك ابن حديـج على ولايـة مصـر. وعندما حـلّ عقبـة بمقرولاَيتـه ‹‹ لم يعجب بـالقيروان الـذي كـان معاويـة بن حديـج بنـاه (انظر ابن عبد الحكم، **الفتوح**، ص 64). وتذكر المصادر (ابن عبد الحكم، **الفتـوح**، ص 64 - 66، المالكي، **رياض النفـوس**، ج I ،

ص 6، 7، 19، ابن عـذاري، **البيان**، جI، ص 19 ـ20 و ابن نـاجي، **معالم الإيمان**، ج I، ص7- 9)، مع كثير من التفاصيل والجزئيات المشـوبة أحيانا بمسحة العجائب والخوارق، كيف ركب عقبة مـع مشاهير مرافقيه، وفيهم جماعة من الصحابة، لارتياد موقع جديد. فوقع اختياره على موضـع سـهل كان كثير الشجر والنبات تأتي إليه الهوام والوحوش. وهناك أقيمت مدينة القيروان الجديدةوقد ركّز بها عقبة فـورا الجهازين اللآزمين لتستقيم فيها ظروف الحياة الطبيعية السليمـة، فبنى المسجد الجامع ودار الإمارة وجها لوجه. ثمّ ظلّ ساهرا على إقامة المدينة وتشييدها كامل مدّة ولايته الأولى ـ وهي خمس سنوات ـ ولم يخرج فيها لغزوة أو لحرب .

أمّا أبـــو المهاجر دينار الـــذي خلـــف عقبة في الولايـــة فقـــد «كـــره أن ينزل في الموضـع الذي اختطّه عقبة بن نافع » (ابن عبد الحكم، **الفتوح**، ص 68). وقـــد أحـرق ـ فيما ذكر لنا (راجـع ابـن عذاري، **البيـان**، ج I، ص 22، ابن ناجي، **المعالم**، ج I، ص 42ـ 43) ـ ما أقامه سلفـه وانتقـــل بالعـاصمة مسافـــــة ميلـيــن عـــلى طريـــق تونس فـــي منطقة يسكنهـا البربر. وقـــد أطلـــق على هــــذه العـاصمة الجديدةـــ التي تمّ العثور على آثارها منذ عهـد قريب ـ اســـم « تاكروان » (انظر ابن ناجي، **المعالم**، ج I، ص 43). ويوحي الجرس البربـري لهذا الاسم وكذلك المحيط العمراني الذي اختير للمدينة بـالبرنامج السياسي الجديد للحكم المركّز على التقـارب مع السكّـان الأصليّين للبـلاد، وهي السيـاسـة التي استهلّ أبـو المهاجر نهجها .ولم َتـــرُقْ هذه السياسة الخلافة المركزيّـة، فتوجّه عقبة من جديد إلى إفريقية سنة 62 هـ / 682م. وكان أوّل ما بادر بـه هو إرجاع العاصمــةإلى الموقع الذي سبـق اختياره لها. ومنذ ذلـك العهد سوف تبقى القيروان بمكانها لا تتحوّل عنه .

وتشير كلّ الـــدلائل إلى أنّ هـذا الموقع قد كـان فيمامضى مـركزا لمدينـة رومانية أو بيزنطية أدركها الفتح الإسلامي بعد أن آلت إلى الخراب كعدد من مثيلاتها. وقد أفـادت أولى المباني التي أقامها العـرب، بدون شكّ، من إعادة استخـدام موادّ الآثـارالمتوفّرة بكثـرة على عين المكان. وهنـاك موّاد متفاوتة القيمة الأثـرية، موجودة ضمن المعالم التاريخيـــة أو بالمساكـن البسيطـة، تمّ الكشـــف عنهـا حتّى فــــي أسس مبنى الجامع الكبيـــر بمناسبة القيام مؤخّـرا بأشغال للترميم والإصلاح (خلال السنوات 1969 ـ

1972). وبناحية الشمال يوجد، غير بعيد عن القيروان، مكان يدعى «الأصنام» (راجع التجاني، الرحلة، ط. تونس، 1958 ، ص 118، ابن عذاري، البيان، ج I ، ص 58- 59)، وهو يستمد اسمه، فيما يبدو، من كثرة عدد التماثيل التي عثر عليها الفاتحون العرب هناك. ويؤكد البكري .(المسالك ، ط.دي سلان (de Slane) ، باريس ، 1965 ، ص 22 / 52_53) أنّ سوق الضرّب (أي بطحاء دار ضرب السكّة والنقود) كانت فيما مضى موقعا لكنيسة. هذا وتؤكّد المصادر بوضوح أنّ مدينة القيروان أقيمت على موقع مدينة قديمة كانت للأوائل تسمّى قونيّة أو قمّونيّة (انظر ابن عبد الحكم، الفتوح، ص 58، 74 ؛ المالكي، الرياض، ج ا، ص 12، 18، 19، 21؛ البكري، المسالك، ص 75 ؛ ياقوت ، البلدان، ج IV، ص 399، 915؛ ابن ناجي ، المعالم ، ج ا، ص 39 ـ41) . وليس هناك ما يدعو إلى الشكّ في صحة هذه الشهادات التي يزكّيها ويؤكّدها العديد من الدلائل الأثرية التاريخية.

وتبقى بعد ذلك مسألة اختيار موقع المدينة. فمن الناس من يرى أنّ هذا الاختيار لم يكن موفّقا كثيرا ، ويتساءل لماذا حصل تخيّر هذا الصقع النائي من منطقة السهوب الذي لا يلائم ما تقتضيه العواصم الكبرى من تطوّر ونموّ اقتصاديّ. وقد فتح ابن خلدون هذا الباب لمن بعده فذكر أنّ العرب عرفوا ‹‹ بقلّة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن ›› واستشهد على صحة ماذهب إليه بما حصل في البصرة والكوفة والقيروان حيث كان اختيار مواقعها بعيدا عن التوفيق والصواب (راجع المقدّمة ص 647). ثم جاء عدد من المؤلّفين المعاصرين فشاطروه هذا الرأي . (انظر ج. ديبوا (J. Despois) ، القيروان : أصل وتطوّر عاصمة إسلامية قديمة. في حوليات الجغرافيا ، مجلّد XXXIX (1930) ، ص 161 ، ب . سباغ ؛ القيروان ، ط.زوريخ 1963 ، ص 16). وفي الحقيقة فإن اختيار موقع القيروان لم يكن من الرداءة والفساد بحيث خيّل لبعضهم. وينبغي أن لا يغيب عنّا أنّ مدينة قديمة كانت قد ازدهرت من قبل بذلك الموقع. ذلك أنّ هذا الموضع لم يكن عند تأسيس القيروان على ما آل إليه فيما بعد من الجفاف والجدب. أجَلْ ، إنّه لم يحدث بها انقلاب مناخي، لكنّ البشر بها قد اعتراهم التغيير وبدّلوا تبديلا. فهذا ابن عذاري (انظر البيان ، ج ا، ص 20) يفيدنا بأنّ عقبة أصدر أمره بأن يقطع الشجر حتى يتمّ بناء المدينة. ويخبرنا البكري (انظر المسالك، ص 26 / 61) من ناحية أخرى بأنّ غابة زيتون

القيروان في القرن الرابع هـ / العاشر م. كانت من الكثافة بحيث أنهّا تفي لوحدها بحاجة المدينة كلّها من الخشب دون أن يلحقها ضرر أو يمسّها نقص يذكر. كما يفيدنا ج. ديبوا أيضا (في نفس المصدر المذكور) أنّ أرض المنطقة خصبة وثريّة بفضل ما يحمله إليها وادي مرق اللّيل ووادي زرود من «طمي مخصب». فقد كان يكفي حينئذ إيجاد حلّ لمشكلة الماء. إلاّ أنّ هذا المشكل ـ الذي كان الرومان قد اهتدوا إلى طريقة السيطرة عليه ـ وجد الحلّ كذلك على أيدي العرب. فقد عثر هؤلاء، على مسافة بضعة أميال جنوبيّ الموقع الذي اختاروه لتأسيس القيروان، على منشأة لخزن المياه أطلقوا عليها اسم «قصر الماء»، يزوّدها مجرى مبنيّ يجلب المياه الملتقطة من العيون على بعد 33 كيلومتر غربا، بمنطقة مامس التي تسمّى حاليا «هنشير الذويميين» (راجع صولينياك، المصدر السابق الذكر، ص 19 ـ 21 ـ 61 ـ 126 ـ 161). وقد توقّف عقبة بن نافع بقصر الماء عند رجوعه إلى دمشق في سنة 55 هـ / 675 م. (راجع ابن عبد الحكم، **الفتوح**، ص 68). ثم أصبح المكان بعد ذلك موضع تجمّع القوافل المتجهة إلى المشرق (انظر: أبو العرب، **الطبقات**، ص 25؛ المالكي، **الرياض**، ج ا، ص 30 و69 ـ 70، ابن ناجي، **المعالم**، ج ا، ص 52، 147؛ ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 32، 44، 259). وقد حقق العرب نهوض المنطقة بعد خرابها وأعادوا إليها سالف ازدهارها بمواصلة سياسة الريّ التي اتبعها وسلكها من سبقهم وتوسيع آفاقها. وقد كانت الآبار والمواجل ـ التي لا يكاد يخلو منها بيت أو مسجد (انظر ابن ناجي، **المعالم**، ج ا، ص 13 ـ 25؛ البكري، **المسالك**، ص 23 / 53) ـ تقدّم للناس مساعدة محسوسة تضاف إلى طاقة المنشآت المائية الكبرى، وأشهرها بحقّ ما أقامته دولة الأغالبة. لذلك نرى كل الرحالين والجغرافيّين العرب ينوّهون حتى أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. بثراء تلك المنطقة. وبعبارة موجزة فإنّ المنطقة التي وقع عليها الاختيار لتأسيس القيروان ـ علاوة على ما كان يتوفّر فيها من خصائص استراتيجية ـ كانت تتميّز أيضا بأنهّا قابلة للإحياء الزراعي حتّى توفّر البنية الاقتصادية الضرورية لنموّ مدينة كبرى وتطوّرها. ولم تتحوّل هذه الجهة إلى منطقة سهوب وسباسب إلاّ بسبب تقاعس الانسان وقعوده عن الجهد والعمل.

ـ **تاريخ القيروان**: اضطر أهل القيروان إلى مغادرة المدينة بمجرّد

تأسيسها. فقد أودت كارثة تهودا ، جنوبيّ بسكرة ، بحياة عقبة بن نافع مؤسّس القيروان الأوّل ، وبحياة جميع من خرج معه من أصحابه في الجيش ، فقتلوا عن آخرهم.فكانت هجرة المسلمين نحو المشرق ، واستقرّ كُسَيْلَة القائد البربريّ المنتصر بمدينة القيروان ــ وقد بقي بها بعض سكّانها من العرب المسلمين ـ واتخّذها عاصمة لملكه السريع الزوال (64ـ69 هـ / 684 ــ 689 م). فجاء بعد ذلك زهير بن قيس البلوي ثم حسّان بن النعمان بالخصوص ، فقاما باسترجاع المدينة.

ومرّ بعد ذلك من السنوات أربعة عقود هادئة مطمئنّة قبل أن يعود البربر من جديد إلى تهديد عاصمة المغرب تهديدا جديّا. وفي سنة 124هـ / 742 م. كانت المدينة على وشك السقوط تحت سيل جيوش الخوارج، إلاّ أنّه قد تمّ إنقاذها في آخر لحظة بفضل انتصارين غير منتظرين حصل أحدهما بالقرن والثاني بالأصنام. ولم يحالفها الحظّ سنة 140 هـ / 757ـ 758م. فاستولى عليها «الورفجومة» من الخوارج الصّفرية بإعانة البعض من سكّانها، وأخضعوها لسيطرتهم أكثر من سنة كاملة، وقضوا على من كان بها من القرشيّين، أي الطبقة الأرستقراطية من أهل المدينة. وحرّرت القيروان في شهر صفر من السنة الموالية (جوان ـ جويلية 758 م.) على يد أبي الخطّاب الإباضي القادم إليها من طرابلس. وقد استخلف بعد ذلك على ولايتها عبد الرحمان بن رستم الذي سوف يكون فيما بعد مؤسس الدولة الرستميّة بتاهرت. ولم تلبث المدينة طويلا على تلك الحال، ففي شهر جمادى الأولى من سنة 144هـ / أوت 761 م. جاء محمّد بن الأشعث فأعادها إلى جادّة الولاء للمشرق، وقام بتحصينها بأمر من الخليفة العباسي المنصور، وبنى أوّل سور حولها (وقد شرع في إقامته في شهر ذي القعدة من سنة 144هـ / فيفري 762 م، وفرغ من بنائه في رجب 146 هـ / سبتمبر ـ أكتوبر 763 م). لكنّ هذه التدابير والأشغال التي استوجبتها الأحداث المذكورة لم تجعل القيروان بمأمن من ويلات الدهر ومصائبه. ففي سنة 154 هـ / 771 م. حاصرت المدينة جموع متحالفة من خوارج البربرين صفريّة وإباضية. وقد بلغت الحال بسكّانها الى حدّ أكل «دوابهّم وكلابهم وسنانيرهم » (راجع ابن عذاري **البيان**، ج I، ص 76). ولم تجدهم المقاومة نفعا إذ تمّ أخذ المدينة عنوة بعد أن أضرمت النار في

أبوابها وأحدثت ثغرة بسورها. وكان ذلك آخر ما أنزل بها الخوارج من المحن والمصائب، فقدم يزيد بن حاتم المهلّبي (155- 171 هـ / 772- 788 م). موفدا من المشرق على جناح السرعة، ومعه عدّة ووسائل، فاستعاد أمر المدينة بيده ووضع حدّا نهائيا للاضطرابات والفتن التي أحدثتها حركات الخوارج بإفريقية.

لكنّ خطرا جديدا حلّ بالبلاد، وهو خطر الجند. فأصبحت القيروان موضوع صراع بين قوّاد الجند المتمرّدين على السلطة. وفي سنة 194هـ / 810م. قام الأمير الأغلبي إبراهيم الأوّل (184- 196 هـ / 800 - 812 م) بتهديم أسوارها وتفكيك أبوابها عقابا لها على محالفتها الجند المتمرّدين. ثمّ عادت إلى مثل صنيعها الأوّل، ففي سنة 209/ 824 م. فتح سكّان القيروان أبواب مدينتهم - وقد كانت أعيدت إلى مواضعها - لمنصور الطّنبذي. وكان العقاب في هذه المرّة جذريّا، إذ عمد الأمير زيادة اللّه الأوّل (201- 223 هـ / 817 - 838م). إلى « هدم سور القيروان حتّى ألصقه بالأرض » (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 100) جزاء على ما اقترفه سكّانها. وبذلك أمكن للأمراء من بعده أن يحكموا في شيء من الهدوء والطمأنينة إلى زمن ظهور الدعوة الشيعية بإفريقيّة. ولم تساند قلعة المذهب السنّيّ أمراءها المهدّدين بالخطر، بل وقفت منهم موقفا سلبيا - إن لم يكن معاديا تماما - حتى خرج آخر الأمراء الأغالبة من عاصمته متسترّا تحت جنح الظّلام، واضطرّ قائد جيوشه إلى الالتحاق به تحت وابل من الحجارة. وقد زاد حكم الفاطميّين في توسيع شقّة القطيعة بين مدينة عقبة بن نافع وبين السلطة التي أصبحت إذ ذاك بأيدي أهل الزيغ والضلال. واندلعت النار الكامنة يوم 20 شعبان من سنة 299 هـ / 11 أفريل 912م، عندما قام شجار ثمّ دارت معركة بين نفر من كتامة المفرطين في الاستعلاء والتفطرس وبين أصحاب الدكاكين من االباعة الساخطين المغتاظين، فمات في هذه الواقعة مئات من الضحايا (راجع ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 166؛ ابن الأثير، **الكامل**، ط. بيروت، 1966، ج VIII، ص 53). وكان لعبيد اللّه المهدي من حسن التدبير ما حمله على تهدئة النفوس والخواطر. لكنّ ذلك لم يحل دون مساندة أهل القيروان لثورة أبي يزيد النّكّاري الخارجي (332-336هـ / 943 - 947م). وعندما خاب أملهم بعد ذلك في نجاح هذا الثائر تخلّوا عنه، فلم ينجهم ذلك من نزول العقاب بهم، إذ قام المنصور، بعد التغلّب على الثائر وقتله، بالقبض على جماعة كبيرة من أهل القيروان وأمر بتعذيبهم

وضرب أعناقهم.ولم تلق دولة الصنهاجيّين، قبل رفضها المذهب الشيعي، قبولا أحسن من سابقتها. بل انّ ولاية المعزّ (407 ـ 454هـ / 1016 – 1062م) الحكم قد جرى استهلالها بمحاولة لاغتيال هذا الأمير ـ حينما كان يؤدّي أوّل زيارة رسمية إلى القيروان ـ صحبتها ثورة رهيبة مفزعة (15 محرّم 407 هـ / 24 جوان 1016 م) عمد فيها سكّان المدينة إلى تقتيل كلّ الذين يشتبهون فيهم التشيّع، دون تثبّت أو تمييز. كما تمّ تحريق جثث الضحايا، وأضرمت النار في كلّ ما وصلت إليه أيدي المتمرّدين. ثمّ امتدت الفتنة إلى المنصورية التي عرفت بدورها التخريب والسلب والنّهب، وبالرّغم عن مساعي الحكّام في تهدئة الخواطر فقد اندلعت حركة تمرّد أخرى بعد بضعة أشهر بمناسبة مواكب عيد الفطر التي أشرف عليها المعزّ (1 شوّال 407هـ / 3 مارس 1017)، وسالت الدماء غزيرة من جديد. وجاء ردّ السلطة عنيفا في هذه المرّة، وأبيحت القيروان لنهب جند المنصوريّة، فلم ينج من النهب دكّان واحد وأضرمت النيران في الأسواق الكُبرى. وكان ذلك إيذانا بمحن أكبر ومصائب أعظم. ولئن لم يقم بنو هلال، بدون شكّ، بتخريب كلّ مدن إفريقية، فمن الثابت أنهّم دمّروا تدميرا كاملا ما كان تبقى من عظمة القيروان وشموخها. وقد شرع الهلاليّون في محاصرة القيروان منذ سنة 446 هـ/ 1054 م، فتخلّ لهم عنها المعزّ وانصرف إلى المهديّة فنزل بها في سنة 449هـ / 1057.

ومنذ ذلك العهد لم تبرز القيروان كثيرا على مسرح الأحداث. وعلى عكس بعض المدن الأخرى مثل قابس وقفصة وتوزر والمهديّة وسوسة وصفاقس، فإنّ القيروان لم تسبّب للحفصيّين أي حرج أو متاعب، ولم تظهر بها أية دولة من دول الطوائف في عهد حكمهم. على أنّ البدو الرّحّل من أعراب المنطقة قاموا بدور على الساحة السياسية، فحاولوا ـ بعد فوات الأوان ـ أن يتصدّوا لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحّدين الذي كان قد أخضع كامل إفريقية. وهُزموا شرّ هزيمة في تلك المعركة وقتل قائدهم محرز بن زياد من قبيلة رياح (سنة 556هـ / 1061م ؛ انظر ابن خلدون ، **كتاب العبر**، ج VI ،ص 494).
وفي سنة 582 هـ / 1086-1087 قدم المنصور الموحّدي على جناح السرعة من المغرب الأقصى للقضاء على خطر بني غانية الداهم قبل استفحاله. فخرج من تونس إلى القيروان حيث نزل بجيش قبل القيام بهجومه على منطقة الحامّة وتدارك ماكان لحق عساكره في بادئ الأمر من

النكسات (راجع ابـن خلدون، **كتاب العبر**، ج VI، ص 510). وبعـد ذلك بسنوات قليلة استولى يحيى بن غانيـة على مدينة القيروان وكامل إفريقيّة. لكنّ هذا النصر الـذائع الصيت كان عاجل الزوال، فعـادت القيروان بسرعة إلى حكم الموحّـدين ثمّ الحفصيّين مـن بعـدهم. وفي سنـة 669 هـ/ 1270 م. أحـدث نـزول لويس التـاسع ملك فرنسـا بقرطـاج انزعاجـا فـي جميـع أنحـاء البـلاد. واهتزّت القيروان ــ وهي المدينـة المبـاركة التي أسسها عقبـة بن نافـع ـ شوقـا إلى الجهـاد في سبيل اللّه . وقـد كان في نيّة المستنصر الحفصي أن يتحـوّل بقاعدة حكمه من تونس القريبة من الخطر الداهم إلى القيروان (راجع ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج VI، ص 670). لكنّ الوبـاء الذي وضـع حـدّا للنزاع المسلّح حـرم المدينة مـن هـذا الشرف. وبعد ذلك بسنـوات عادت القيروان إلى القيام بنوع من الدور السيـاسي بمساعـدتها «الدعيّ» ابن أبي عمارة (681 ـ 683 هـ/ 1283 ـ 1284م) على اغتصاب الحكم. وبمبايعة القيروان إيّاه إذْ مكّنته حسب ما ذكر لنا (انظر ابن خلدون ـ **كتاب العبر**، ج VI، ص 691)ـ من تحقيق دخول كلّ من صفـاقس وسوسـة والمهـديّـة في طاعتـه، اقتـداء بها. وقد ذكـر اسم القيروان كذلك أثنـاء المنازعـات بين الأمير أبي يحيى أبي بكر والأمير أبي ضربـة (718ـ 724 هـ / 1318 ـ 1324م)، لكن أهمّ حـدث جـرى بها في ذلك العهـد كان في شـهر محرّم مـن سنة 749 هـ/ أفريل 1348 م. إذ انتصر البـدو من العـرب على أبي الحسن المريني، الـذي كان غلب على إفـريقيّـة، وحاصروه بالقيروان (انظر ابن خلدون، **كتاب العبر**، جVI، ص 564 ، 814 ـ 816 ، 819). ولئن تمكّن من فكّ هذا الحصار والـرجوع إلى تونس، فإنّ هذه الهزيمة كانت إيذانا بأفول نجمه نهائيّا وأدّت إلى جلائه عن البلاد.

وبعـد ذلـك لا نسمـع ذكـرا للقيروان حتى نهايـة الدولة الحفصيّـة التي تردّى آخـر ملوكها في مهـاوي الخزي والعار. لـذلك لم يجد القائد التركي خيرالدين، الذي كان قد غلب على مدينة الجزائر، صعوبة في الاستيلاء على مدينة تونس (في 18 أوت 1534) وإعلان سقوط دولـة الحفصيّين. وقد عمد هـذا القائد، في جملـة ما قـام به من أعمال، إلى تـركيز حـامية من الجنـد بالقيروان. وفي السنـة التالية أعـاد شارل الخامس Charles Quint امبراطور إسبانيا الأمير الحفصي مـولاي الحسن إلى عرشه (في 14 جويلية 1535) تحت الحمايـة الإسبـانيـة. لكنّ جنـوب البـلاد، كلّـه بقي خـارجـا عن نفـوذه.

فأصبحت القيروان إذ ذاك عاصمة لإمارة مستقلّة يحكمها رجل من الأولياء الصالحين من قبيلة الشابيّة يدعى سيدي عرفة. وفي سنة 1542 حاول مولاي الحسن الحفصي إرجاعها إلى نطاق حكمه لكنّ عساكره خذلوه. وهكذا احتفظ الشابيّة بحكم المدينة حتى قدوم الرايس درغوث الذي انطلق من طرابلس، وجاء فطرد الشابيّة واحتل المدينة (يوم 3 جانفي 1558) وأقام عليها حيدر باشا واليا. وفي سنة 1574 ضمّ حيدر باشا قواته إلى قوات طرابلس لمساندةسنان باشا الذي قدم على رأس أسطول ضخم فوضع حدّا نهائيا للدولة الحفصيّة وللسيطرة الإسبانية (انظر ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ط. تونس 1963، ج II، ص 18 ــ 21، الذي يضع هذه الأحداث في سنة 981 هـ / 1573 م). وقد نظّمت البلاد التونسية عندئذ بشكل ولاية تركية (باشاليك) وعينّ على رأسهاحيدر باشا والي القيروان سابقا. (انظر ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ج II، ص 27) .

وفي عهد الدولة المرادية ازدادت القيروان تدهورا وأفولا. أجل، لقد أظهر حمودة باشا المرادي بعض الاهتمام بالمدينة، فقدم إلى الجهة في سنة 1631 وأطرد منها قبيلة أولاد سعيد وركّز بالمدينة حامية من «صبايحيّة الوجق ». لكن ما لبثت أن حلّت الحرب الأهلية بين علي باي وأخيه محمّد. وانضمّت القيروان إلى صفّ هذا الأخير، فأصبحت بعد اتفاق سنة 1678، الذي قسّم البلاد بين الأميرين المتنازعين ، عاصمة حكمه (انظر ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، جII ، ص 55). وقد ناوأت القيروان بعد ذلك مراد الثالث « أبا بالة » (1699ــ1702) فحاصرها وفرض عليها غرامة جماعية كبرى. ثمّ أبيحت نهبا لخليل باي طرابلس مكافأة له على محالفته ومساندته في الحرب ضدّ الجزائر. وفي السنة التالية (1701) أصدرت الأوامر إلى سكّان القيروان وأجبروا على تخريب كامل مدينتهم بأيديهم، باستثناء الجوامع ومقامات الأولياء الصالحين التي تمّ الإبقاء عليها (انظرابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، جII، ص 76). وإثر اغتيال الطاغية مراد الثالث تمكّن إبراهيم الشريف من تدارك ما حصل من أضرار. وتمّ الترخيص لأهالي القيروان في سنة 1703 بالرجوع إلى مدينتهم ورفع أنقاضها وإصلاح ما خرب منها (ابن أبي الضّياف **الإتحاف** ج II،ص 81).

ثمّ أفاد أهل القيروان فيما بعد من عطف حسين بن علي (1705-1735) مؤسّس الدولة الحسينيّة، الذي حرص بالخصوص على ترميم

المساجد والجوامع، وكانوا أوفيـاء له حتى النهاية.وقد لجأ حسين بن علي إلى القيروان وحاصره بها ابن أخيـه علي باشا مـدة خمس سنوات قبل أن يتمّ القبض عليه وضرب عنقه (في 13 ماي 1740). وتمّ في نفس الوقت شنق أربعين رجلا من وجوه القيروان وتهديم سـور المدينة (ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ج II، ص 112 - 118). وبتولية الأمير محمـد الرشيد (1756 - 1759) ابن حسين بن علي ، حظيت القيروان من جديـد برعاية السلطـة وبعرفان أولاد مـؤسّس الدولـة، فأعيد بنـاء سورهـا ومُنحت عددا من الإعفـاءات الجبائية وتحسّنـت حال أهلها تحسّنا ملحوظـا. ولم تجد نفس الحظوة في عهد الأمير حسين الثاني (1824- 1835)، إذ تمّ تغريم أهلها بمبلغ باهض ممّا أدّى بهم إلى الإفـلاس واضطرّهم إلى بيع مـا يملكـون لتسديـد ما فُـرض عليهـم. لذلك كانـت القيروان - في سنـة 1864 من أنشط مراكـز ثورة علي بن غذاهـم. ففي رحاب المديـنة عـقدت قبائل جـلاص بقيـادة السبـوعي بـن محمـد السبـوعي نـدوة مع قبـائل بني زيـد والهمامّـة والفراشيش، إلاّ أنّ هذه النـدوة لم تسفر عن أي عمل ملموس. وبعد ذلك بسنوات، إبّان انتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية سنة 1881، نالت القيروان كـذلك شرفا وفخـرا إذ أنها كـانت من أقوى مـراكـز الدعـوة إلى مقاومة الدّخلاء. وقـد انعقدت فيها ندوة بالجامع الكبير من 15 إلى 20 جوان سنة 1881 جمعت ممثلين عن قبائل مختلفة. وقـررت هذه الندوة اللّجوء إلى باشـا طرابلس لطلـب النجدة والعون.وإذ لم يسفـر هذا المسعى عـن أية نتيجـة، فقد حصل الاقتنـاع بأنّ كلّ عمل مسلّح منفرد هـو بمثابـة سعي لاطائل من ورائه، فتمّ في آخر الأمـر احتلال المدينة بدون مقـاومة ولاقتال يوم 26 أكتوبر 1881، وانفرد أبناء جـلاص وحدهم مدّة من الزمـن بالقيام ببعض عمليات المقاومة المحدودة .

- **الجغرافيا التاريخية** : إنّ مدينة القيروان التي كان مؤسسها يتمنّى لها أن « يعزّ اللّه بها دينـه إلى آخر الدّهر » (انظـر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 19؛ ابو العرب، **الطبقات**، ص 81)، قد أدّت مهمّتها إلى حـدّ لا بأس به. فهي لا تـزال إلى اليوم مـدينة مبـاركة مبرورة معظمـة، لكنّها فقـدت منذ قرون دورها كمدينة كبرى. وقد مرت أحيانا، كما رأينا، بأوج العظمة، كما شهدت أعظم الكوارث والمصائب .

وكان عقبة بن نـافع قد بدأ باختطاط مـوقع المسجد الجامع ودار الإمارة.

وحول هـذين المعلمين ـ وداخـل منطـــقة يبلـــغ طـــول محيطهـا 13,600 ذراع (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج.I ص. 21) أي ما يقارب 7,5 كلم ـ تمّ تقسيم الأراضي وتوزيعـــــــها على القبـائل، مثلما حصـــــــل من قبل بالبصرة والكـوفة ـ وقـــد تمّ تأسيســـها في ظروف مماثلـــة. لكنّنا لا نملك معطيـات مدقّقـــــة بهـذا الشـــأن باستثنـاء بعض الإشـارات والتلميحـات. فنعلم مثلا (انظر البكري، **المسالك**، ص 23) **أنّ بني فهر**- وهم بطن من قريش ينتسب إليه مـؤسس المدينة ـ كانوا نـزلوا شماليّ المسجد الجامع في عهد هشـام بن عبد الملك (105ـ 125 هـــ / 724ـ 743 م). وحتى في القرن الثالث هــ / التاسـع م. فإن أحـــياء المدينـة قد حـافظت على طابع التقسيم المعتمد بـوضوح علـــى النسب والقبيلة أو على الـدين والمعتقد . فمن ذلك مـا ذكر لنـا من وجـــود حـــارة يحصـــب (انظـــر القاضي عياض، **المدارك**، تحقيق جـزئي لمحمد الطـالبي بعنـوان **تراجم أغلبيّة**... تونس، 1968.ص71)،ورحبة القرشيّين(القاضي عياض، **المدارك**،ص369)، ودرب الفرشاش(نفس المصدر،ص359)،وسوق اليهود(نفس المصدر،ص 359)

وقد تمّ بناء القيروان من بادئ أمرهـا بناء متينا أعيد فيه استخدام المواد المحصّلة من بقايا المباني القـديمة. وهي متوفّرة بكثرة في ذلك الموقع. وتمّ تصوّرها من أوّل وهلة ـ كما يشهـد بذلك اتساع محيطها ـ كمصر عظيم من شأنه أن يجمع عـرب إفريقيـة كافّة، وكـانوا في بادئ الأمـر يتألّفون أساسا من الجند الفاتحين، يـرافقهم غالبا أهل بيتهم. وأغلب الظنّ أن عدد سكّان المدينة لم يكن يقلّ في الأصل عن الخمسين ألف نسمة تقريبا .

وكما كـان الشأن بالنسبـة إلى البصرة والكوفـة من قبل، فإنّ القيروان لم يكن لها في بـادئ الأمر ســور يحميهـا، فبقيت مـايناهـز القـرن، مدينـة مفتوحـة على ما حـولها. ثم اضطـرتها صروف الزمـان ـ كما رأينـا ـ إلى الاحتماء منذ سنة 144 هــ / 762 م. خلف أسوار سمكهـا عشرة أذرع. (انظر البكري، **المسالك**، ص 24). وقد كانت ولاية يزيد بن حاتم المهلّبي محمودة العواقب على المديـــنة، فبادر بتنظيم أســواقها وأفـرد كــــلاً منها بصنف مـــن النشـــاط (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 78). وقد كـان لهذا الرجل من الشهـرة والهيبة ما حمل عددا من الشعـراء والعلماء إلى الوفود عليـه والإقامـة بجواره. وبـذلك كانت القيروان تمهّـد السبيل لكي تصبح مركزا من أهمّ مراكز الحضارة .

وبلغت المدينة أوج عـزّها وازدهارهـا في القرن الثـالث هـ / التـاسـع م. إذ أصبحت عاصمة مستقلّة بأمرها. وأقيم بجوارها سنة 184هـ / 800م. قصر إمارة محصّن، وهـو قصر العباسيّة. ثم تـلاه سنة 263 هـ / 877 م. قصر إمارة ثان أضخم بناء وأوسع أرجاءوأكثر فخامة وترفا، وهو قصر رقّادة. وقـد نشأ عن اتّسـاع المدينـة وتعاظم أمـرهـا شيء من الحرج لأصحـاب السلطـان. فلم تعـد المدينـة في حـاجـة إلى الحمايـة بل أصبح من الـلاّزم الاحتماء من خطرها وتوقّي شرّهـا. وترتّب عن كلّ ذلك أن فقدت القيروان أسوارها في الظـروف التي أوردنا ذكرها. أمّا مقاييس المدينـة وأبعادها إذ ذاك، فيشيـر البكـري (**المسالك**، ص 25ـ26) إلى أنّ «السّماط» المحـاذي للجانب الغربي من الجامع الكبير كـان طوله ـ من باب أبي الـرّبيع جنوبا إلى باب تـونس شمالا ـ مـيـلَيْن وثُلُث الميل، وهو ما يسـاوي (بحساب 1600 متر كمقـابل لميـل البكَـرِي) أربعـة كيلـومترات إلاّ قليـلا. ويمكن أن نفترض أنّ عـرض المدينـة كـان يعـادل طـولها. ومثل هـذه المسـاحـة يقتضـــي عددا مـن السكّـان يبلغ عدّة مئـــات من الآلاف وتؤكّد هذا التقرير دلائل أخـرى : فقد كانت المدينة تعـدّ ـ حسب ما يـرويه البكري دائما ـ مـا لا يقلّ عن 48 حمّامـا. وقد أحصي في إحـدى المرّات، بمناسبـة عاشوراء، عـدد الثيران التي تمّ ذبحها لسدّ حاجـة استهلاك السكّان، فبلغ ذلك 950 ثـورا. وهو مـا يمثّل مقدارا من اللّحـوم لا يقلّ عن 200 طنّ. فهل يكون مثل هذا القول من باب المبالغة فحسب ؟ وحتى إذا سلّمنا بذلك فإنّ مثل هذه الإشارة توحـي بوجود عدد لا يستهان به من السكّان بالمدينـة. ويذكر اليعقوبي ـ الذي كان يكتب في النصف الثاني من القرن الثالث هـ / التـاسـع م. ـ أنّ زائر القيروان يلقى بها أنـاسـا من مختلـف العنـاصر والأجناس. فمن عرب ينتسبون إلى قريش ومضر وربيعة وقحطان وغيرها من القبـائل، وفرس من خـراسـان، إلى بربـر وروم (لاتينيّين) وغير ذلك. (انظر كتاب **البلدان** Les Pays ترجمة ج . فيـات G.Wiet، القاهرة، 1937، ص 210). وإلى جانب المسلمين، وهم الأغلبيّة، فقـد كـان يوجـــد بها يهــود ونصارى . ولقد رخّص الوالي الفضل بن روح (177ـ178هـ / 793 ـ 794م). بإقامة كنيسـة بالمدينـة (انظر ابن الرقيق (منسوب). **التاريخ**، تحـ .م. كعبي، تونس، 1968، ص 185). وقد كان لكنيسـة القيروان في أواسط القرن الثالث هـ / التاسـع م. عدة رؤسـاء (عياض، **المدارك**، ص 132). وتدلّ النقائش المكتوبـة على أنّ نصارى القيروان حافظوا على استعمال الـلاّتينيّة

في كتابات شواهد قبورهم حتى القرن الخامس هـ / الحادي عشر م .
هذا ولم تعُدْ منشآت خزن المياه المقامة منذ خلافة هشام بن عبد الملك (105 ـ125 هـ / 724ـ 743 م). كافية لكل هذه الخلائق (انظر البكري، **المسالك**، ص 26). ومن الثابت أن عدد السكّان قد استمر في التزايد في عهد الأغالبة، وهو ما يفسرّ إقامة خزّانات جديدة للمياه لسدّ الحاجات المتطوّرة. وقد كانت الفسقية العظيمة المتخذة بباب تونس من قبل الأمير أبي إبراهيم أحمد (242 ـ 249 هـ / 856ـ863م)ـ والتي لا تزال آثارها تملك إعجاب الناس إلى اليوم ـ أفخم وأضخم إنجاز بين المنشآت الأربع عشرة الأخرى المماثلة لها .

أمّا الجامع الكبير، وهو أقدم وأشهر معلم ديني في المغرب الإسلامي، فقد واكب هو أيضا نسق التوسّع بالمدينة وتجدّد مظهره. وقد اتخّذ هذا الجامع شكله وحجمه الحاليين منذ القرن الثالث هـ / التاسع م.، باستثناء بعض الجزئيات. وقد كان جدّد بناءه حسّان بن النّعمان، ثمّ تمّ توسيعه نحو الشمال وبناء مئذنته الحالية في خلافة هشام بن عبد الملك على أقرب تقدير. وجدّد بناءه بعد ذلك يزيد بن حاتم سنة 157هـ / 744 م ثم جاء الأمير زيادة اللّه الأوّل فقام بتهديم كامل الجامع، باستثناء المئذنة فيما يبدو، وأقام بناءه من جديد (سنة 221 هـ / 836 م) مع المحافظة على اتجاه جدار القبلة الذي قد كان حدّده واتخذه عقبة بن نافع، (رغم ماكان في ذلك الجدارمن انحراف نحو الجنوب يبلغ 31درجة تقريبا). وقام الأمير أبو إبراهيم أحمد بالزيادة في توسيع الجامع، وتجميله (سنة 248 هـ / 862 ـ 863 م). ومنذ ذلك التاريخ لم تدخل أشغال الترميم والتجميل المتعاقبة التي جرت بالجامع أي تغيير على شكله ومظهره العامّ. وقد أضاف إليه المعزّ بن باديس الصنهاجي (407 ـ 454 هـ / 1016 ـ 1062م) المقصورة الحالية التي عوّضت مقصورة الأغالبة المحوّلة إلى مكتبة. وقد جرت بالجامع أشغال توسيع وتجميل أخرى في عهد الدولة الحفصية، ثمّ في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وآخر ترميم تمّ القيام به كان من سنة 1970 إلى 1972.

هذا وقد ساعد تطوّر المدينة على نهضتها الفكرية فأصبحت القيروان في القرن الثالث هـ / التاسع م. من المراكز الثقافية الرئيسية في بلاد الإسلام. وكان الإمام مالك (المتوفّ سنة 179هـ / 795م) يعدّها، مع الكوفة والمدينة، إحدى عواصم العلوم الإسلاميّة الثلاث (راجع ابن

ناجي. **المعالم** ، ج II، ص 38). وفي القيروان قام يحيى بن سلاّم البصري (124ـ200 هـ/ 741ـ 815 م) قبل الطبري بزمان طويل بتـأليف وتدريس كتابه في التفسير (الـذي وصلنـا منه بعض أجـزاء : ويـوجـد منه مخطـوطـان بتونس، أحدهما بالمكتبـة الوطنية برقم 7447 ، والثاني ضمن رصيـد كتب مكتبـة حسن حسني عبد الـوهاب). وقـد كان هـذا الكتاب أوّل المؤلّفـات الضخمـة الشامخة في تفسير القـرآن عنـد المسلمين. أمّـا أسد بن الفـرات (حوالي 142ـ213 هـ/ 759ـ828م) فإنّه حضر دروس مالك وأخذ عن محمد بن الحسن من أصحـاب أبي حنيفة وعن عـدد كبير من الشيوخ بـالمشرق، ثم ضمّن الخلاصة الشخصيـة لكلّ ما تحصّل لديـه من شيوخه في رسـالته **الأسدية**.وأخذ عنه العلم عدد وافر من الطلبة الذين استمروا بعده في العمل على طريقته وفي نشر تعـاليمه. وقد كان من الجائز أن يكتب لمسـاعي أسد بن الفرات أن تؤول إلى قيـام مدرسة قيروانية متميّـزة في الفقه أو مذهب قيرواني لو لم تكسفه شهـرة الإمـام سحنون (حـوالي سنة 160ـ240 هـ / 777ـ854م)، الذي كان إمام زمانه بدون منازع، وقد أصبحت **مدوّنته** الضخمة، التي يروي لنا فيها تعاليم مـالك برواية ابن القاسم، دليلا لأهل القيروان، لا ينفكّ لسانهم يلهج بـذكر مـا ورد فيها. وقـد أقبل الناس على دروس سحنون من كلّ حـدب وصوب، وجاؤوه حتـى من الأندلس حيث كان يقـوم بنشـر تعاليمـه وآرائه ما لا يقلّ عن 57 واحـدا من تلاميذه المعروفين. هـذا ولئن لم يترك لنا علماء اللّغة القيروانيّـون مؤلّفات هـامّة، فإنّ نشاط أهل القيروان في هـذا الباب كـان من الأهميّة بمكـان، حتّى أنّه حمل أبا بكر الزّبيدي على إفرادهم بباب خاصّ في كتابه **طبقات النحويّين واللّغويّين**، (ط. القاهرة، 1954، ص 245ـ272). أمّا الطبّ فقد مثلـه عـن جـدارة كلّ مـن زيـاد بن خلفـون وإسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان (انظر البكري **المسالك**،ص 24؛ ابن أبي أصيبعة، **عيـون الأنباء**، ط. وترجمـة أ. نورالديـن وهـ . جاهييه H.Jahier الجزائر، 1958، ص 2 ـ9) أمّا مؤلّفاتهم فقد نقلها قسطنطين الإفـريقي، منذ القرن الحادي عشر إلى اللّغة اللاّتينيّة، ودرّست بمدينة سالرنو .

ولم يكن عهد حكم الشيعة الفاطميّين مؤاتيـا لقلعة المذهب السنيّ. وكانت قبائل كتامـة الظافرة تطالب الحكّـام، كجزاء على ما تكبّدتـه من متاعب في مسـاندتهم، بإطلاق أيـديها في نهب المدينة ذات الخيرات الوفيرة. وفي نهاية الأمر، لم يلحق القيروان كبير أذى، فاستطاعت ـ رغم إقامة مدينة منافسة

بجـوارها، وهي صبرة المنصـورية (سنـة 336 هــ / 947 - 948 م)، ورغم المساعي المبذولـــة في نـقل الأنشطـــة التجـارية من القيروان إليهـا ـ أن تحافظ على ازدهارها ومكـانتها الاقتصادية، وأن تصمـد في وجه عدد من الكوارث الطبيعيّة مثل الزلزال (سنة 299هـ / 911 ـ 912م)، وحريق الأسواق (13 ذو الحجة من سنة 306 هــ / 17 ماي 919م)، والفيضان (سنة 308 هــ / 920 ـ 921 م) والمجاعة والـوباء (سنة 317 هــ /929 م). وقد اتفـــق كاتبـان متعاصران في الشهـادة بصمـود المدينة وثباتها، وهما ابن حوقل (في كتاب **صـورة الأرض**، ط. بيروت، بدون تـاريخ، ص 94)، والمقدّسي (في كتـاب **أحسن التقاسيم**، تحقيق وترجمـــــة جـزئيـان لشارل بيـلا Ch.Pellat، الجزائر، 1950، ص 14 - 17) بل إنّه قـد تمّ إدخال تحسينات على تزويـدها بالماء، إذ أنّ الخليفة المعز لدين الله الفـاطمي قد قام فعلا ببناء قناة تجلب الماء من الجبـال لتملأ الفسقيـات والمواجل بـالمدينة بعـد المرور عبر قصر صبرة (انظر المقدّسي، **أحسن التقاسيم**، ص 15). وكان يشقّ المدينة ما لا يقلّ عن 15دربا كبيرا، وصلتنا أسماء عدد منهـــا (انظر المقدسيّ، ص 17). كما أنّ مساحتها قد زادت أيضا عن ذي قبـل . ويذكر لنا المقدّسي (ص 15) أنّ « ضلع المدينة كـــان يساوي ثلاثـة أميال إلاّ قليلا» (وهو ما يعادل 5,5 كلم تقريبا على أساس 1900 متر كمقابل لميل المقـدّسي). ويمكن أن نستنتج من هذا أنّ عددسكّـانها قد ازداد بصـورة ملحوظـة، وقد بلغت بذلك أوج اتّساعها وأقصاه .

ومنذ ذلك الـوقت دخلت القيروان ــ كما دخلت إفريقيـة بأكملها ـ مـرحلة الركـود ثم التقهقر الحتمي الـذي لامناص منـه رغم ماكـانت تشهده بين الفينة والأخـرى من توثبـات مكّنتها فقط مـن الاحتفاظ بشيء من المكـانة والاعتبار ـ دون أن تعيد إليهـا يوما ماكـانت عرفته من سالـف المجد ـ في نطاق بـلاد كتب عليها نهائيا أن تبقى نـاقصة ضعيفة. وقـد صاحب نقل الخلافة الفاطميّة الى القاهرة (سنة 361 هـ/ 972م) امتصاص شديد لموارد إفـريقية واستنـزاف لخيراتها. وحمل الفاطميّـون معهم إلى مصرمدّخـرات الذهب والفضّة التي كانت موجودة بالبلاد. وفقدت القيروان نهائيا صفتها ودورها كعـاصمة. ولم يحفل الأمـراء الصنهاجيّون الأول بـالإقامـة فيها كثيرا، بل إنهم أنهكـــوا قواهم في حـروب لانهايـــة لها بنواحـــي المغـــرب الأوسط والمغرب الأقصى. ولقد تمّ ابتزاز خيرات المدينة ـ وكانت لا تـزال مـزدهرة في أول عهـد الصنهـاجيّين ــ إرضـاء لرغبـات خليفـة

القاهـــرة. وقام عبـد اللـــّه الكاتب مبعوث الخليفة ونـائبه بابتزاز ما لا يقلّ عن مبلغ 400,000 دينار في سنة 366 هـ / 976-977م. أخذها من عند 600 من أعيـان المدينة، فـارضـا على بعضهم دفع 10,000 دينـار بمفرده (انظـر ابن عذاري **البيان**، ج I، ص 230) وقد كان في ذلك إفـلاس العدد الأوفر منهم. وبعد مرور بضعة عقـود من السنين عرفت القيروان سنة 395 هـ / 1004 - 1005م القحط والمجاعة وأصيب أهلها بوباء مهول احتفظ لنا ابن عذاري (في **البيان** I، ص 256 -257)، - فيما نقله عن ابن الرقيق — بوصف مُؤثّر له. فقد كان الموتى يدفنون بالمئات في أخـاديد جماعية. وقد اقفرّت البيوت من أهلها وتعطّلت المصالح من أفران ومخابز وحمّامات وغيرها. وخلت المدينة من السكّان وفـرّ الناس في وجوه البلاد، ووصل الهاربون نجـاة بانفسهم حتى صقليّة .

وبعد ذلك بسنوات أجبر التجّار من جديد في عام405هـ / 1014 - 1015م. على الانتقال إلى صبرة. وإليهـا تحوّلت قبائل صنهـاجة كـذلك. وكانـت الأمور تجري كما لو أنّ بعضهم كـان يسعى جاهـدا في خنق قلعة المذهب السنيّ التي تعاورتها المحن والمصـائب من كلّ جانب فتلاشى ازدهارهـا وثراؤها وتنـاقص عدد سكّـانها، حتى أنّ طول سـورها — المتصل بمدينـة صبرة بواسطة مجاز أو معبر خاصّ - والذي سارع بإقامته سنة 444 هـ / 1052- 1053م. الأمير المعزّ بن باديـس عندما كان مهددا يبحث عـن أسباب النجاة، لم يتجاوز 22,000 ذراع، أي ما يقـارب 10,5 كلم. (راجع البكري، **المسالك**، ص 25) . وهكذا فقد عادت المدينة تقريبا إلى حجم النواة الأصليّة التي أقرّ حدودها عقبة بن نافع. وإذا ما كـانت المعطيات المرقّمة الواردة في مراجعنا صحيحـة — وهذا أغلب الظـنّ - فيجب التسليم بـأنّ المدينة قـد تـراجعت رقعتها إلى ثلث حجم المساحة التي كانت بلغتها في أوج ازدهارها. ومعنى هـذا أنها أصبحت ، وهي على أبواب مـاكـان ينتظرهـا من المحن الكبرى ، مجرّد شبح باهت من الصـورة الزاهية التي كـانت عليها فيما مضى. لكنّ الفكـر احتفـــظ فيها مع ذلك، ولمدّة طـويلة، بشيء من الازدهـار. وقـــد واصل عـــــدد من العلمـاء والمفكّريـــن مسيرتهم المشرقـــة على آثـــار من سبقهـــم. فكـــان منهـــم مـــن فقهاء المالكيـــة ابن أبـي زيـــد القيرواني (المتوفى سنة 386 هـ / 966 م)، والقابسي (المتـوفّى سنة 403 هـ / 1012م) ومن الأشاعرة القـلانسيّ (المتوفّى سنة 359 أو 361 هـ / 969 971 م)، ومن الأطبّاء ابـــن الجزّار (المتوفّى سنـــة 395 هـ / 1004 —1005 م)، ومن

المؤرّخين ابن الرقيق (المتوفى بعد سنة 418هـ / 1028 م). ومن المنجّمين ابن أبي الرجال (المتوفّى حوالي سنة 426 هـ / 1034 ـ 1035م) ـ وقد ترجم مؤلّفه **كتاب البارع في أحكام النجوم** إلى اللّغات القطلونية واللاّتينيّة والعبريّة والبرتغاليّة القديمة ـ ومن الشعراء ابن رشيق (المتوفى سنة 456 هـ / 1064م). وابن شرف (المتوفى سنة 460 هـ / 1067 م)، وغير هؤلاء كثير. (انظر الشاذلي بو يحيى، **الحياة الأدبية بإفريقية في عهد الدولة الصنهاجية**، ط. تونس 1972). لكنّ هؤلاء الأعلام كانوا بمثابة مشاعل الختام أو مصابيح النهاية في مدينة انهارت بنيتها الاجتماعية والاقتصادية وأوشكت أن تنزل بها الضربة القاضية التي كانت تترصّدها. وقد حلت بها المصيبة فعلا بنزول بني هلال عليها وقد عمدوا إلى نهب المدينة وتخريبها في اليوم الأوّل من شهر رمضان سنة 449 هـ / 1 نوفمبر 1057 م، أي بعد مرور يومين فقط على خروج المعزّ بن باديس من صبرة والتجائه إلى المهديّة. وقد قام ابن رشيق في قصيدة مؤثرة (انظر **الديوان**، ط. بيروت، بدون تاريخ، ص 204-212) برثاء المدينة الشهيدة. وقد كان منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. منعرجا حاسما لا بالنسبة إلى تاريخ القيروان فحسب، بل وفي تاريخ إفريقيّة بأكملها، فكان نهاية عهد غلبت عليه سمات الازدهار، وفاتحة عهد آخر أقلّ تألّقا بكثير. وقد تراجعت مظاهرالحياة العمرانية والحضريّة بوضوح أمام أساليب عيش البداوة من رعي وترحال، وغلب الطابع البدوي على كامل البلاد وتغلغل في أعماقها كالآفة المزمنة حتى القرن التاسع عشر. وفي خضمّ هذا السياق الجديد المتّسم بالتدهور والانحطاط استحالت القيروان من مدينة كبرى إلى قرية بائسة من قرى السهوب، وكانت رقعتها لا تزال تضيق مع مرور الأيام بعد ما هجر أغلب ما تبقّى من سكّانها. وبعد مرور عشر سنوات على ضربة بني هلال القاضية، تمّت إقامة سور مرتجل أحاط بالجامع الكبير وببقايا أحياء المنطقة الغربية. وهذا السور الذي يكاد يحاذي رسمه السّور الحاليّ للمدينة، كان يمتد على مسافة تفوق بقليل الثلاثة كيلومترات. ويذكر الإدريسي (انظر **النزهة**، نشرة جزئية لـ هـ. بيراس H.Pérès، الجزائر 1957، ص 80) أنّ القيروان لم تعد في العهد الذي كان يكتب فيه ـ أي في أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر م.، قبيل قدوم الموحّدين بقليل ـ سوى « أطلال دراسة وآثار طامسة »، وإنّ ما بقي منها محاط بأسوار غير كاملة من تراب وطين، وأنها أصبحت في يد العرب

البدو الذين كانوا يأخذون الجزية والجبايات من سكّانها القلائل المعدمين. أمّا رقادة وصبرة فلم تلبثا حتى اندثرتا تماما .

وفي عهد دولة الموحّدين، ثمّ في عهد الدولة الحفصيّة على وجه الخصوص، شهدت البلاد من جديد فترة من السلم النّسبية، فأمكن للقيروان أن تنهض جزئيا من تحت الأنقاض. وخلال القرن السابع هـ / الثالث عشر م. تمّت إحاطة المدينة بأسوار أكثر حصانة بفضل جهود الأهالي. ومع انطلاق حركة الطرق الصوفيّة وازدهارها أخذت المدينة تمتلىء بمقامات الأولياء الصالحين (انظر ابن ناجي، **المعالم**، ج IV، ص 227). لكنّ سكّانها الذين أصبح معظمهم من العناصرالبدويّة المتحضرّة، كانوا أقلّ رقّة ولطفا من ذي قبل . لذلك نجد ياقوت (المتوفّ سنة 626 هـ / 1228 م. يقول في كتابه : « لم يعد يوجد بها اليوم سوى صعاليك لا خيرفيهم» (**البلدان**، بيروت، 1957، ج IV، ص 420). ولم يكن رأي العبدري فيها بأفضل من رأي ياقوت، وقد زارها متبرّكا حوالي سنة 688 هـ / 1289م. (انظر **الرحلة المغربيّة** تحـ.م. الفاسي، الرباط، ص 64، 66، 82) .

وفي الحقيقة فقد بدأت بالنسبة إلى القيروان حياة جديدة في مستوى أشدّ تواضعا وأكثر بساطة. وذلك أنها استطاعت في خضمّ ذلك السيّاق العامّ من التدهور المستمرّ، أن تحتفظ بمكانة محدّدة بفضل قدرتها على التكيّف مع وظيفتها الاقتصادية الجديدة. وهذه المنزلة، لئن كانت لا تتناسب حقّا مع ما شهدته المدينة في الماضي من العظمة والمجد، فهي مع ذلك منزلة محترمة إذا ما قيست بغيرها من مدن البلاد. وقد تمثّلت وظيفتها الجديدة في أن تكون سوقا و مركزا تجاريا بالنسبة إلى البدو. فكانت أسواق المدينة، بعد أن تضاءل حجمها وتمّ إبعادها نحو الغرب، تزوّد أولائك البدو ببعض الموّاد الضرورية لحياتهم مثل الجلود والأقمشة والمعادن. وكانت المدينة تتلقى في المقابل موادّ النشاط الرّعوي . وقد وصفها الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الإفريقي= Léon l'Africain بعد أن زارها سنة 1516 ، أي في نهاية عهد الدولة الحفصية، فقال عنها : « لا يرى بها اليوم سوى بعض الحرفيّين المساكين أغلبهم من المشتغلين بدباغة جلود الضأن والماعز، وهم يبيعون ما يصنعونه بجلودهم من ملابس في المدن النوميديّة التي لا توجد بها أقمشة مصنوعة ببلاد النصارى » (انظر **وصف إفريقيا**، ترجمة إيبولار A.Epaulard، ط. باريس 1956، ج II، ص 398). وبعد ذلك، ولاسيّما في أوائل عهد الدولة الحسينيّة، تماسكت القيروان نفسها

وأصبحت تحتلّ المرتبة الثانية بين مدن البلاد. وقد تحدّث عنها في أوائل القرن الثامن عشر الوزير السرّاج (المتوفى سنة 1149هـ / 1736_1737م). فقال: «لا تعرف في هذا الزمان، بعد تونس، مدينة أكبر من القيروان في كامل إفريقية. وإنّك لتجد من بين أهلها أفضل العلماء وأبرع الناس وأحذق التجّار » (انظر **الحلل**، تحـ. الهيلة، تونس، 1970، ج Iص244). ويؤيد هذا الرأي ما كتبه ج. أ. بيصونال J.A.Peysonnel إذ قال: «القيروان مدينة من أعظم مدن هذه المملكة. وهي تقع بسهل سبخ الأرض ودائرتها نصف فرسخ. وهي تعجّ بالسكّان وتجارتها نشيطة. وقد تمّ تخريبها مرارا ثم أصلحت على أحسن وجه في عهد الباي حسين بن علي... وبها تصنع بكثرة أنسجة الصوف والبرانيس والسفساري وغير ذلك من الأصناف الخاصة بالبلاد...» (**قصة رحلة على سواحل بلاد البربر، بإذن من الملك في سنة**1724و 1725 نشر ديرودي لامال Dureau de la Malle باريس ، 1838، ج I ، ص 113؛ انظر أيضا ج I، ص 160). ويذكر ر.ل.ديفونتان R.L.Desfontaines من جهته، وكان قد زار القيروان في شهر جانفي 1784 انهّا كانت «أكبر مدن المملكة بعد تونس، بل وإنهّا أحسن بناء وأقلّ قذارة من تونس ... وتجارة القيروان تتمثل أساسا في صناعات الجلود التي يستخدمها الأهالي في وجوه متعدّدة فيصنعون منها الأعنّة والسروج والنعال الخاصة بالبلاد. كما يصنع أهل القيروان الأنسجة الصوفية المسماة « باراكان » وحياة السكّان بهذه المدينة أسعد من أي مكان آخر بسبب إعفائهم من دفع الجبايات مقابل الخدمات التي أسدوها لجدّ الباي الحالي ». (**مقتطفات من رحلة في إيالتي تونس والجزائر تمّ القيام بها من سنة** 1783 **إلى سنة** 1786، نشر ديرودي لامال. باريس، 1838، ج IIص 61). أمّا ف. غيران V.Guérin الذي قضّى بها ثلاثة أيام من 18 إلى 20 أوت 1861، فهو يعتبر أيضا أنهّا بسكّانها البالغ عددهم الإثني عشر ألفا « من أكثر مدن الإيالة سكّانا بعد تونس » (**رحلة أثريّة في الإيالة التونسية** ط. باريس، 1862، ج II، ص 334). وكانت مرتبتها قبل صفاقس التي لا يزيد عدد سكّانها على 10,000 ساكن، وقبل سوسة والمنستير والمهديّة التي لم يكن عدد سكّان كلّ منها يزيد على 5000 إلى 8000 نسمة. ومع ذلك فإنهّا أصبحت تقوم في ذلك العهد «وسط صحراء حقيقيّة لا تكاد تجد فيها شجرا كبيرا ولا صغيرا» (ف. غيران، المصدر السابق ج II، ص 326). وبعبارة موجزة فإنّ مدينة عقبة بن نافع، بالرغم

عن تدهور أحوال منطقتها الخلفية من الأراضي، قد برهنت على كلّ وحتّى زمن انتصاب الحماية، عن قابليّة للحياة والاستمرار تفوق قابليّة عدد من المراكز الأخرى ذات الموقع الأفضل .

هذا ومن الثابت المؤكّد أنّ قدرتها على البقاء والدوام متصلة بمالها من إشعاع روحي وديني. فقد كانت « بما يناهز الخمسين «زواية» والعشرين مسجدا» (كما يقول ف. غيران في المصدر السابق، جII، ص 328)، العاصمة الروحية للبلاد بلا منازع في منتصف القرن التاسع عشر. وكانت تعتبر إذ ذاك مدينة مقدّسة يحجّر دخولها مبدئيا على غير المسلمين. أمّا اليوم فإنّها لم تعد على تلك الدرجة من القداسة، وقد أصبحت معالمها الدينية مفتوحة بكل حريّة في وجه السيّاح. وقد أصبحت مدينة عقبة تأتي في المرتبة الخامسة بالبلاد من حيث عدد السكّان، وهي أقلّ عواصم الولايات تجهيزات. لكنّها مازالت تمتاز مع ذلك بنوع من الهالة وتجلب إليها أجلّ الضيوف وأشهر الزوّار. وعندما يجري اليوم ذكر وحدة بلدان المغرب العربي فإنّ من الناس من يرى أنّ «عاصمة هذا الاتحاد الفدرالي بين دول المغرب المستقلة ينبغي أن تكون مدينة القيروان وهي العاصمة الروحية للمسلمين بهذه الربوع منذ قرون. وقد يكون في ذلك رمز لاسترجاع العالم الإسلامي سالف أمجاده»(انظر صحيفة **لابريس** بتاريخ21 / 9 / 73، جريدة يوميّة تصدر بتونس).

ثبت المراجع

إنّ مصادر هذا الموضوع أكثر من أن يتمّ الإحاطة بذكرها جميعا. وقد سبقت الإشارة إلى أهمّ هذه المصادر في أثناء هذا البحث .

- **الدراسات :** بالإضافة إلى ما ورد ذكره في صلب نصّ هذا البحث فإنّه تجدر الإشارة إلى :تـ . البشروش، **حكم البايات المراديّين في القرن السابع عشر،** أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة. أكس اون بروفونس 1973، ص 15، 19، 115- 116، 137، 142؛ جاك بارك، **الجديد عن بني هلال،** بمجلّة S.I.. ، مجلّد XXXVI (1972) ص 99 ـ 113؛ ر.برانشفيك R. Brunschvig، **بلاد البربر الشرقية في عهد الدولة الحفصية،** ط. باريس. 1947، ج I، ص 357 ــ 376 ؛ كلود كاهن Claude Cahen **بعض كلمات عن الهلاليّين والبداوة،** بمجلة JESHO مارس 1968، ص 130 ــ 2 13 أ. صيّاسي A.Çayaci **المسألة التونسية والسياسة العثمانية** 1881ــ1913). ط، نوشاتال، 1963،

الفهارس، (ترجمة عربيّة . عبد الجليل التميمي، ط. تونس 1973، الفهارس)؛ النابلي والمحجوبي وسالنصن Salomonson **المقبرة الرومانية برقّادة**، ط. تونس، 1971 ، في مجلّدين؛ ب ، فاغو P. Fagault ، **تونس والقيروان**، ط. باريس، 1889 تدوين وقائع رحلة تمت سنة 1887، ص 216 ، 282 : ج. غانياج J. Ganiage **أصول الحماية الفرنسية بتونس** (1861 ـ 1881)، ط. باريس، 1959، الفهارس؛ هـ. ر. إدريس H.R.Idriss، **بلاد البربر الشرقية في عهد الدولة الصنهاجية ـ القرن XXII** ط. باريس، 1962، ج II، ص 411 ـ 428؛ نفس المؤلّف، **في حقيقة الكارثة الهلالية**، حوليات E.S.C مجلدXXIII (1968) ص390 ـــ 396؛ نفس المؤلف، **الزحفة الهلالية ونتائجها**، في Cah. de Civ. Médiévale جXI. 3 (1968)، ص 353ـ371؛ أ. ليزين A.Lézine : **تقييدات عن آثار افريقية**، ج I : **المثال القديم لمدينة القيروان** (مع ضرورة الاحتياط في استخدام هذا المرجع)، ج II : **حول باب قديم من أبواب الجامع الكبير بالقيروان**، في مجلّة الدراسات الإسلامية R.E.I المجلّدXXV (1967)، ص 53ـ77؛ أ، **ليزين** وب . سباغ P.Sebag ، **ملاحظات حول تاريخ الجامع الكبير بالقيروان**، في مجلة معهد الآداب العربية IBLA . عدد99 (1962) ص 245-256؛ ديك دي لونلاي Dick de Lonlay، **في تونس، ذكريات سبعة أشهر ضمن الحملة العسكرية**. (ط. باريس، 1882، إعادة طبع سنة 1938، ص 251 ـ 325؛ عمار المحجوبي، **شهادة جديدة في النقوش الأثرية عن المجموعة المسيحية بالقيروان في القرن الحادي عشر**، في مجلة أفريكا Africa المجلد I ط، تونس، 1966)، ص 85ـ 105 ؛ ج. مارسي G.Marçais ، **تونس والقيروان**، ط. باريس، 1937؛ نفس المؤلّف، **الفنّ المعماري الإسلامي بالمغرب العربي**، ط. باريس، 1954، الفهارس ؛ مارسي ول. بوانصوL.Poinsot، **مواد قيروانية من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر**، في كتيبين، ط. تونس، 1948 ـ 1952؛ أ.مارتال A.Martel، **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** (1881 ـ 1911)، ط .باريس، 1965، الفهارس؛ ش. مونشيكور Ch.Monchicourt، **دراسات قيراونية**، في المجلّة التونسية R.T 1931ـ1936، ب. بوني P.Penet **القيروان وسبيطلة والجريد، دليل مصوّر للسياح في الجنوب الغربي التونسي**، ط. تونس، 1911 ، ص 1ـ41 ؛ ج. بونسي J.Poncet. **أسطورة «الكارثة» الهلاليّة**، في حوليات .E.S.C، المجلّد XXII (1967) ، ص 1099 ـ 1120؛ ب . روا B.Roy و لـ بوانصو، **النقائش العربيّة بالقيروان**، في كتيبين. ط.

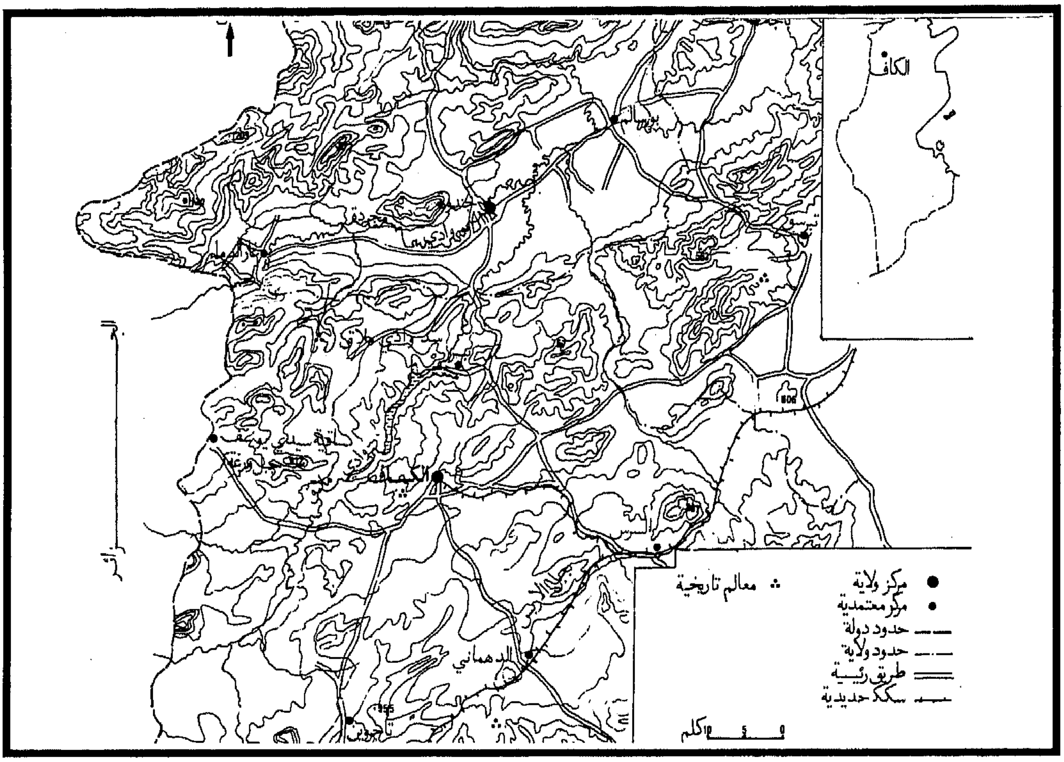
باريس، 1950 ـــ 1958؛ هــ. صــالادان H.Saladin، **تونــس والقيروان**، ط. باريس، 1908، ص 98 ـ 140؛ محمد الطالبي، **الإمارة الأغلبية**، ط. باريس، 1966، الفهــارس؛ نفس المؤلّـــف، **القيروان والمذهـــب المالكي الأنـــدلسي**، في مجموعة الدراسات الاستشراقيــة، ليفي بروفنصال، ط. باريس، 1962، ج I، ص 317- 337 ؛ فؤاد سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، ط. القاهرة، 1965، الفهارس؛ ع. الزغل، **تعصير الفلاحة والسكّان شبه الرحّل**. ط. لاهاي، 1967، ص 27 ـ 31، 64 ـ 78 ؛ **وضعية التشغيــل في ولاية القيروان**، نشرية مرقونة أصدرتها وزارة التخطيط، تونس، فيفري 1973.

(*) تعد ولاية القيروان 421.607 ساكن حسب تعداد 1984.

(**) تعد مدينة القيروان 72.254 ساكن حسب تعداد 1984.

(***) أقيم سد « وادي زرود » سنة 1976.

(****) تم بناء سد « وادي مرق الليل » سنة 1978.



الكاف

الكاف مدينة من مدن البلاد التونسية (تعدّ 18,000 ساكن)، وهي عاصمة لولاية تشمل 306,000 نسمة (حسب إحصاء 3 ماي 1966)*. وتقع الكاف بمنطقة التلّ العالي على مسافة حوالي ثلاثين كيلومترا من الحدود الجزائرية وعلى ارتفاع يتروح بين 700 و 850 مترا. ومنذ سنة 1962 جرت محاولة لتعويض الفلاحة المفردة التقليدية المركّزة على زراعة الحبوب دون سواها بتلك الجهة بفلاحة تعتمد مزيدا من تنويع الزراعات المختلفة. إلاّ أن تجربة التجميع التعاضدي للأراضي قد تمّ التخلّي عنها ابتداء من شهر سبتمبر 1969. وقد كانت المدينة أيضا موضع جهود ذات بال بُذلت في مجال التعمير والبناء وفي ميدان النهوض الثقافي . وفي نطاق هذه المساعي أصبح يقام

بهذه المدينة مهرجان خاص بالقائد البربري «يوغرطة» الذي أضحى بمثابة البطل لهذه المنطقة .

- **تاريخها** : هذا ومن الثابت أن موقع مدينة الكاف كان معمورا منذ العهد الحجري الأول. لكننا لا نعلم بالتحديد متى تمّ تأسيس المدينة نفسها. وهي بدون شك من المنشآت اللوبية أو البونية. وقد وَرَد ذكر اسم المدينة لأوّل مرّة في النصوص القديمة سنة 241 قبل الميلاد في معرض الحديث عن الجند المرتزقة الذين وجّهتهم إليها قرطاج على إثر الحرب البونية الأولى بقصد إبعادهم وحماية العاصمة من خطرهم المهدّد.. وقد كان اللاتينيون يطلقون على هذه المدينة اسم « سكّا فينيريا » Sicca Veneria تعظيما لاحدى الإلهات البونيات التي تمّ تقميصها شخصية « فينوس » إلاهَة الحبّ. ويبدو من الثابت، ان معبد هذه الآلهة كان مركزا لتعاطي طقوس الخناء الشعائري. وأثناء حكم الامبراطورية الرومانية أطلق على المدينة اسم. «كولونيا جوليا سيرتا نوفا » Colonia Julia Cirta Nova ثم دخلت في حكم المسلمين تحت اسم « شقّة بَنَارية » (وهو تحريف لعبارة سكّا فينيريا)، وبقي هذا الاسم يُطلَق عليها باستمرار في النصوص العربية إلى نهاية العصر الوسيط. ولم يكن ابن خلدون (المتوفّ سنة 808 هـ / 1406 م) يعرف لها غير هذا الاسم. وقد ظهر اسم الكاف لأوّل مرّة عند المؤرّخ ابن أبي دينار، الذي كان يكتب حوالي سنة 1110 هـ/ 1698 - 1699 م، وعند الوزير السرّاج (المتوفّ سنة 1149 هـ / 1736 ـ 1737 م) الذي رأى من اللازم عند استشهاده بكلام ابن الشبّاط في سياق الحديث عن شقّة بنارية أن يؤكّد أن « هذه المدينة هي التي تسمّى اليوم الكاف» (انظر **الحلل** ج I / II ، ص 525)، ممّا يدلّ على أن الاسم القديم قد كان دخل تماما في طيّ النسيان . وقد يكون هذا التغيير في التسمية حدث مع حلول العهد التركي (1574) الذي مكّن المدينة من تحقيق انطلاقة جديدة. هذا وينبغي أن نشير أخيرا إلى أنّه يوجد بالبلاد التونسية ماينهاز العشرين موقعا تحمل أسماء يدخل في تركيبها لفظ « الكاف » (انظر ر. فوفراي R.Vaufrey، **افريقيا قبل التاريخ**، فهارس المجلّدين I و II ؛ ل. بالوت L.Balout، **افريقيا الشمالية قبل التاريخ**، الفهارس؛ ج. غانياج (J. Ganiage)، **أصول الحماية الفرنسية بتونس**، ص 35ـ62؛ **الدليل الازرق للبلاد التونسية**، الفهرس). وقد ورد ذكر موقع باسم «الكيفان» (جمع كاف) بالقرب من مدينة فاس (راجع الحسن بن محمد

الفاسي Jean-Léon l'Africain، **وصف افريقيا**، ج I، ص 229، التعليق رقم 270) كما يذكر ياقوت الحموي (**معجم البلدان**، ج ١٧، ص 431) قلعة ببلاد الشام تحمل اسم الكاف، وهي بدون شك تلك التي يسميّها ابن خلدون « الكهف » (راجع **كتاب العبر**، ج ٧، ص 842) والتي افتكّها السلطان الظاهر بيبرس (658ـ676 هـ / 1260 ـ1277م) من الاسماعيليين. ويتبينّ من هذا أنّ تسمية الكاف كانت شائعة جدّا . وهي بدون شك تحريف اللّفظة العربية كهف (أي غار) بسقوط حرف الهاء الهوائي. وقد جرى إطلاق هذه التسمية على كل تجمّع سكني يقام في موقع كهوف ومغارات ولا سيّما إذا كان ذلك الموقع مرتفعا. ومن هذا الوجه فإنّ مدينة الكاف تستحق اسمها بكل جدارة. وهذا ما يقوله عنها الكاتب تيسو Tissot في كتابه **الجغرافيا المقارنة** ...ج II، ص 378 : « هذه المدينة المستقرّة فوق واحد من أوّل المرتفعات في كتلة جبلية متلاحمة يمكن اعتبارها بحقّ قلعة طبيعية، تشرف على السهول الكبرى للسرّس وزنفور والأربص ووادي ملاق، كما تتحكّم في إحدى الطرقات الرئيسية الرابطة بين مدينة تونس والبلاد الجزائرية» .

وقد شاع ذكر هذه « القلعة الطبيعية » في أيام حرب القائد البربري يوغرطة الذي اتخذها حصنًا من حصونه. وإثر دخولها في حكم رومة، تمّ رفعها إلى مرتبة «مستعمرة » فشهدت ازدهارا حقيقيا في عهد الامبراطورية الرومانية، وكان لها بعض الإشعاع في الفترة التي كان ارنوب دي سكّا Arnobe de Sicca العالم بأساليب البلاغة (والمتوفّ حوالي سنة 327م) يدرّس بها. وتحتفظ الكاف من ماضيها القديم بالعديد من الآثار المعروفة اليوم (مثل كنيسة دار القوس المقامة تقربا للقديس بطرس، وعدد من الفسقيات الكبرى، والتماثيل المختلفة، والكتابات والنقوش ولوحات الفسيفساء، وغير ذلك). هذا وقد سمحت الحفريات التي أجريت مؤخرا باكتشاف معالم أخرى (كنيسة بيزنطية، وحمامات، وغيرها) لم يتمّ بعد نشر دراسات عنها. أمّا المسجد الجامع بالمدينة فهو ليس سوى معلم قديم تمّ إدخال تحوير طفيف عليه بإضافة مئذنة ومحراب .

وفي عهد دخول الإسلام إلى المغرب، تمّ فتح مدينة الكاف (حوالي سنة 69 هـ / 688 - 689 م) وعدد من المراكز الأخرى بالمنطقة على يد زهير بن قيس البلوي بعد انهزام كسيلة بمامس (انظر

المالكي، **الرياض**، ج I، ص 30؛ ابن الشبّاط، **صلة السمط**، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 3208، الورقة 82 ـ ظهر، والورقة 83 ـ وجه) ومنذ ذلك العهـد، وعلى مدى العصر الوسيط كلّـه تراجعت أهميّة مدينـة الكاف ونزلت مرتبتهـا فتقدمت عليها الأُرْبُص التي أصبحت أهمّ قـاعدة محصّنة وأقواها بالجهة كلّها. وإنّا لنجد الحسن بن محمد الفاسيJean Léon l'Africain لا يزال يتغنّى في أواسط القرن السادس عشر بمحاسن الأربص، التـي لم يبق منها اليوم سـوى آثار خربة على نحو ثـلاثين كيلومترا شرقيّ الكاف، في حـين أغفل ذكـر هـذه المدينة تمامـا.ولم يتحدث عـن الكاف أيّ واحد من الرحّالة والجغرافيين العرب قبل البكـري (المتوفّ حوالي سنة 461 هـ / 1068 م)، على أن البكري نفسه لم يـذكرها إلاّ عرضـا في سيـاق الحديـث عن أسطـورة دارت أحداثها في العهد المسيحي القديم، وكان ضحيتها أحد الشمّاسين من البربر. أما ياقوت الحموي (سنة 574ـ626هـ / 1178ـ1229م) فإنّه قد أقرّ بجهله إذ قال، (**معجم البلدان**، ج Z354 .III) : « شقّة بنارية : أماكن بافريقية » .

هذا وقـد ظل الأمر كذلك حتى جاء ابن الشبّـاط (سنة 618 ـ 681 هـ / 1221 ـ1282م) فقدّم لنـا وصفا لمدينـة الكاف في العصر الـوسيط، كان الـوصف الأوّل والوحيد من نوعه. وممّا تجدر الإشـارة إليه أن هذا الكاتب قد قصر اهتمامه في هذا الحديث على أطـلال المعالم القديمة بـالمدينة، التي تشهد بما كان لها في الماضي من عظمة وعلوّ شأن .

وقـد كانـت الكاف، رغم كسوفهـا وخـمـول ذكرهـا، تعود من حين الى آخر لتسـاهم في أبرز أحداث العصر الـوسيط. ففي سنة 171 هـ / 788 م منـي فيها الخـوارج الإباضـيون بهزيمة ساحقـة في ولاية داود بـن يزيـد المهلّبي. وفـي 21 من شهـر جمـادى الثانيـة سنـة 296 هـ / 17 مارس 909 م كان سقوطهـا بدون قتال في قبضة الـداعي الفاطمي ممهّدا للانكسار النهائي للجيـوش الأغلبية التي تمّ سحقها بالأربص. وفي أيام الدولـة الصنهاجية كان لمدينة الكـاف دور فـي مـا قام بين الأميـر باديـس (386 ـ 406 هـ / 996 ـ 1016) وبين عمّـه حمّاد من صراع وفتن. وفي زمن زحفة بني هـلال على البلاد (سنة 443هـ/ 1052 م) استولى على مدينـة الكاف شخص يـدعى عياد (أو عبـاد أو عماد) ابن نصر الكلاعي كان على رأس مجموعـة من المغامرين، وجعل منها قـاعدة لإمارة صغيرة

استطاعت أن تثبت طويلا في وجه مناوئيها. وفي سنة 554 هـ / 1159 م، فتحها الموحّدون وأطردوا منها أخلاف الكلاعي، وذلك في نطاق سعيهم الشامل لتحقيق وحدة المغرب. هذا ولم يرد ذكر الكاف في أيام الدولة الحفصية إلاّ بمناسبة الحديث عن معركة دارت بجوارها فيما يبدو خلال صيف سنة 724 هـ / 1324م .

وينبغي أن ننتظر العهد التركي لنشهد مدينة الكاف تعود من جديد إلى صفحة الأحداث وطليعتها. فقد عهد إليها بمهمة الدفاع عن الإيالة التونسية من الغارات الجزائرية والوقوف في وجه قسنطينة. وهكذا شاركت مدينة الكاف، في كلّ الحروب والمعارك، سواء منها تلك التي تجابه فيها التونسيون والجزائريون (سنوات 1628 و 1685 و 1694 و 1705 و 1746 و 1756 و 1807)التي تصارع فيها الأمراء المتنازعون على الحكم بتونس، وقد تمّ بناء قصبة بالكاف سنة 1675، وجرى تعهدها بالزيادة في التحصين باستمرار وقام علي باشا سنة 1739 ـ 1740 بإقامة سور حول المدينة. وفي سنة 1806 عمد الباي حمودة باشا (1782 ـ 1813) الى تجديد بناء القصبة وتحصين سور المدينة. وأثناء مدة حكم هذا الباي كانت مدينة الكاف ـ مع تونس والقيروان وباجة ـ رابعة أربع من المدن المحصّنة الرئيسية بالمملكة، كانت كلّ واحدة منها تملك حامية عسكرية قارّة لا يقلّ عدد جنودها عن 500 رجل يقودهم آغا. على أن المدينة لم تلبث أن فقدت كل قيمة استراتيجية، وفعلا فبنزول الفرنسيين بقسنطينة سنة 1837 لم يبق لتحصينات الكاف جدوى ولا مبرّر.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت المدينة في التقهقر والتدهور وقد قال عنها غيران V.Guérin الذي زارها بين 8 و 10جوان من سنة 1866 ما يلي : « منها حيّان في شبه خراب، وهما خاليان من السكّان إلاّ في القليل النادر، ممّا يجعل عدد سكان المدينة نصف ما قد يذهب المرء إلى تقديره لأوّل وهلة. وجملة عدد ساكنيها 4500 من المسلمين يضاف إليهم 600 من اليهود وبعض المالطيين، وكذلك الأعوان الحاليون لجهاز التلغراف الفرنسي» (**الرحلة**، ج II ص 53-54). وفي سنة 1864 امتدّت إلى مدينة الكاف ثورة علي بن غذاهم. ولم تسلم أيضا من ويل المجاعة ووباء الكوليرا سنة 1867 وقد زاد في تقهقر المدينة مدّ السكة الحديدية بين تونس وسوق الاربعاء (جندوبة حاليا) فجرّدت الكاف من دورها التقليدي كمحطة للتبادل

التجاري بين البلاد الجزائرية والبلاد التونسية. واستمرّ تناقص عدد سكّان المدينة، كما ذكر مونشيكور Monchicourt في كتابه **منطقة التلّ العالي**، ص 408 إذ قال إن « مساحتها البالغة 45 هكتارا في سنة 1881 والتي كانت تحتضن فيما مضى 8000 شخص، لم تعد تؤوي سوى 3500 نسمة» وقد تمكن الجنرال لوجرو Logerot إبّان انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية من الاستيلاء على المدينة بدون قتال يوم 26 فيفري 1881. وبعد مرور ثلاث سنوات على ذلك أقيمت بها في شهر جوان 1884 أوّل مدرسة فرنسية خارج العاصمة. وفي 8 جويلية من نفس العام تمّت ترقية المدينة إلى مرتبة منطقة بلديّة. وانطلاقا من سنة 1886 أصبحت الكاف مقرّا لمراقب مدني فرنسي إلى جانب «العامل» أو «القايد» التونسي. وهذا الاحصاء البلدي لسنة 1911 يكشف لنا عن ملامحها الجديدة وعن التحسّن الذي بدأت تشهده. فقد كان عدد سكانها حينذاك 6312 وكانوا موزعين على النحو التالي : 4462 مسلما منهم 269 جزائريا، و 650 يهوديا، و 1200 أوروبي منهم 800 إيطالي و 340 فرنسيّا. وخلال الحرب العالمية الثانية أصبحت الكاف مقرّا لمقيم عامّ مساعد يدير شؤون المنطقة التي لم يقع احتلالها من قبل قوّات المحور.

هذا ولا تزال توجد عدّة مقامات للأولياء الصالحين بمدينة الكاف التي كانت تعدّ في الماضي معقلا من معاقل الطرق الصوفية. لكنّ التأثير السياسي والاجتماعي لهذه الطرق لم يبق اليوم منه شيء ممّا كان له في الماضي من قوّة وشأن .

ثبت المراجع

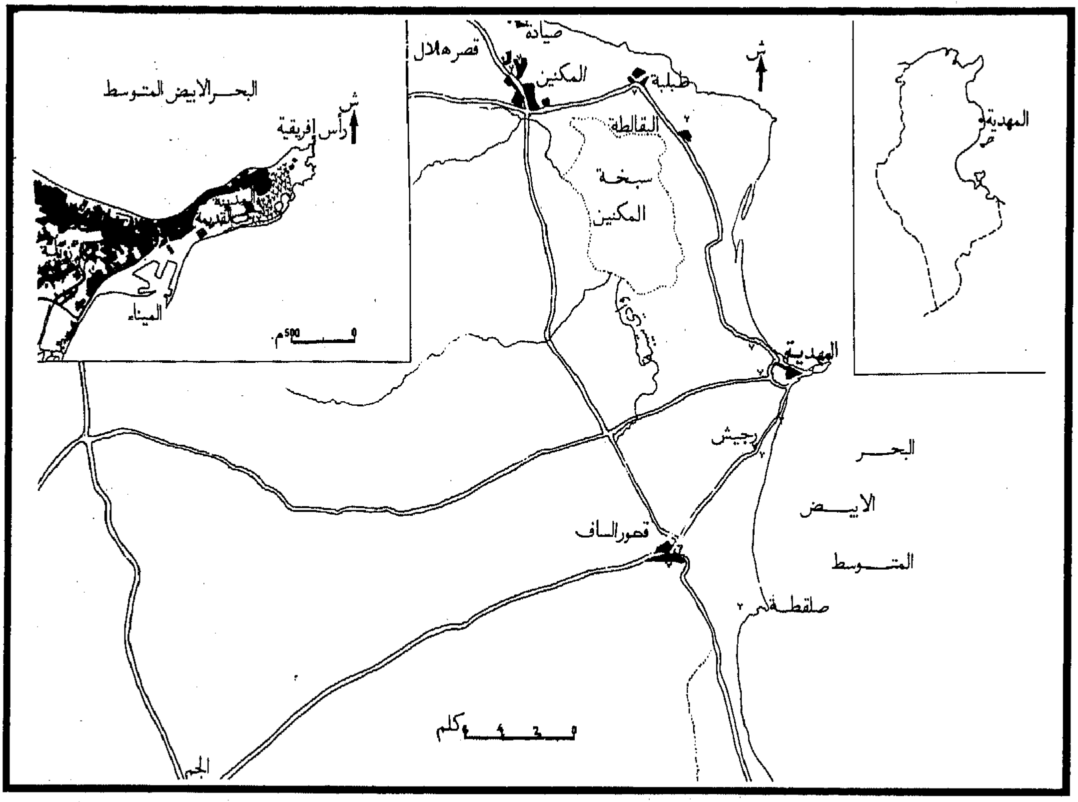
- **مصادر** (مرتبة ترتيبا زمنيا) : المقدسي، **أحسن التقاسيم**، تحـ. مع ترجمة جزئية لشارل بلاّ Ch. Pellat بعنوان **وصف المغرب** Description de l'Occident. الجزائر 1950، ص 18 / 19: المالكي، **الرياض**، تحـ. حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ج I . ص 30 ؛ البكري، **المسالك**، تحـ. وترجمة دي سلان De Slane باريس 1965، 33 / 74 ، ياقوت، **معجم البلدان**، مادة الكاف؛ ابن الشباط **صلة السّمط**، مخطوط رقم 3208 بالمكتبة الوطنية بتونس، الورقتان 82 (ظهر) و 83 (وجه)؛ صفي الدين البغدادي، **مراصد الاطلاع**، تحـ. علي محمد البجاوي، القاهرة

1954، ج II ، ص 805؛ **كتاب الاستبصار**، الاسكندرية 1958، ص 165؛ الرقيق القيرواني (منسوب) **تاريخ افريقية والمغرب**، تحـ. م. الكعبي، تونس 1968، ص 68، 169؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، بيروت 1959، ج V، ص842 ج VI ،228، 349 ، 401 ، 494، جان ليون الافريقي Jean léon l'Africain (= الحسن بن محمد الفاسي)، **وصف افريقيا**، ترجمة الى الفرنسية عن اللاتينية، أ ـ ايبولار A. Epaulard باريس 1956 ، ج I، ص 229، التعليق 270 ، ج II ص 373؛ ابن أبي الدينار، **المؤنس**، تحـ. م. شمام. تونس 1967، الفهارس؛ الوزير السرّاج، **الحلل**، تحـ.م. ح. الهيلة . تونس 1970 . ج I، ص 2 ، 525 ـ 526، ج . ديبون G; Dupont ، **قصة رحلة من تونس الى الكاف سنة** 1944، في مجلة افريقيا الفرنسية، عدد 50 (اكتوبر1888)، ص 341ـ344و عدد 51 (اكتوبر 1888)، ص 352ـ360؛ ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان**، ط. تونس 1963 ج II ، ص 33، 48، 51، 53، 58ـ60 ، 83، 123 ، 129 ، 148ـ149، ج III 39، 41ـ42، 45 - 46 ، 85 ؛ ف، غيران V.Guérin **رحلة أثرية في الايالة التونسية**، باريس 1862، ج II ص 53 ـ 54 ـ 57؛ ر. كانيا وصالادان R.Cagnat et Saladin، **رحلة بالبلاد التونسية**، باريس 1894، ص 200- 219 ،

ـ **دراسات** : ر. برانشفيك R.Brunschvig، **الدولة الحفصية**، ج I، ص 145 ، 302 ؛ ب .ل. كامبيزا P. L. Cambuzat ، **تطوّر مدن التلّ بإفريقية من القرن السابع الى القرن ـ الحادي عشر** (أطروحة مرحلة ثالثة) ج I، ص 173، 227، 247، 322 ج II ، ص 337 ـ 343؛ ب. سنطاس P. Cintas، **عناصر لدراسة التاريخ البدائي للبلاد التونسية**، ط. باريس 1961، ص 8 ، 25 ، 125؛ ش. ديل Ch. Diehl، **افريقيا البيزنطية**، ط. باريس 1896، الفهرس؛ أ.اسبرانديو E. Espérandieu ، **النقوش الأثرية بنواحي الكاف**، ط، باريس 1984 ؛ نفس المؤلف، **دراسة عن الكاف** ط، باريس 1889؛ ج. غانياج (J. Ganiage)، أصول الحماية الفرنسية بتونس (1861 ـــ 1881). ط.باريس 1959، الفهارس؛ س. غزال (S. Gell) **التاريخ القديم لافريقيا الشمالية**، ط. باريس 1913ـ 1928، ج II، ص 96، ج V. ص 31ـ 192، 266، ج VI، ص 156، 249، ج VII، ص 190، 197؛ ج VIII، ص 168، 197؛ هـ، ر، ادريس (H.R.Idriss) **الدولة الصنهاجية**، ص 110، 232، 235، 399، 471؛ ش. أ. جوليان (A. Julien) **تاريخ شمال افريقيا** باريس 1956، ج I، ص 116، 157، 170 ، 209 ؛ ع. مخلوف **الهياكل الزراعية وتعصير الفلاحة في سهول الكاف** :

الوحدات التعاضدية للانتاج، في مجلة كراسات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الجغرافيا، العدد I، تونس 1968؛ أ، مارتال A.Martel **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** (1881ـ 1911)، ط. باريس 1965، الفهارس؛ ب . مونصو P.Monceaux **التاريخ الأدبي لافريقيا المسيحية من البدء الى الفتح العربي**، ط. باريس 1905، ج ص 241 ـ 286؛ س. مونشيكور C.Monchicout **منطقة التلّ العالي بالبلاد التونسية**، ط. باريس 1913، ص 403 ـ 414 ب رومانيلي P.Romanelli، **تاريخ المقاطعات الرومانية بافريقيا**، ط. رومة 1959 ، الفهارس؛ م. سبايت M. Speight **شهادة المصادر الاسلامية على الوجود المسيحي بالمغرب العربي من سنة** 26 / 747 **الى سنة** 184 / 800 ، في مجلة IBLA، تونس 1972، العدد 129، ص 83ـ86؛ محمد الطالبي، **الدولة الأغلبية**، ص 678 ، 680 ؛ ع. التميمي **بحوث ووثائق عن تاريخ المغرب العربي**، ط. تونس 1971، ص21 ، 24 ، 93 ، 212 ؛ ر.فوفراي R.Vaufrey، **عهد ما قبل التاريخ بافريقيا**، ط. باريس وتونس 1965ـ 1969، فهارس المجلدات I و II

(*) تعداد سنة 1984 لسكان الكاف : 34.509 نسمة (المرجع «هذه تونس». نشر كتابة الدولة للإعلام ـ سنة 1990ـ التحرير).



المهدية

المهدية، مدينة بالبلاد التونسية استمدّت اسمها من مؤسسها عبيد الله المهدي (سنة 297 ـ 322 هـ / 909 ـ 934 م). وتقع هذه المدينة على ساحل البحر، على مسافة 200كيلومتر جنوبي مدينة تونس. وهي مركز لولاية بلغ عدد سكانها 218,000 نسمة في إحصاء سنة 1975، وأصبح يقدر بـ 247,000 ساكن سنة 1980. وقد تطوّر عدد سكّان المدينة ــ الذي كان يقدّر بحوالي 12000 سنة 1905- إلى 14,937 (في إحصاء سنة 1946)، ثم إلى 18,494 (سنة 1956)، وإلى 21,788 (سنة 1966). (*)

تأسيسها : تمّت إقامة مدينة المهديّة من قبل الفاطميين بداعي الاستجابة إلى حاجة ملحّة حصل الشعور بها منذ أواخر أيّام الدّولة السابقة، وهي دولة الأغالبة. فقد كان الأمراء على آخر عهد هذه الدولة غادروا القيروان

فعـلا وانتقلوا الى مـدينـة تونس. وكـان عبيد اللّـه المهـدي، إمامُ الشيعـة الإسماعيلية، اثناء ارتياده ساحل البلاد انطلاقا من مدينة تونس - التي لم تصادف هوى في نفسه - ووصولا الى الموقع الذي اختاره لإقامة عاصمته الجديدة، يخضع لنفس الـدوافع ، بالإضافة الى اهتمامه بـأمور أخرى لها علاقـة بضمان الأمن. وقد نسب إليـه في زمن لاحق التنبّؤ بحـدوث ثورة أبي يزيـد النّكّاري وزحفتـه العارمـة الهوجاء التي لم تحطّمهـا إلاّ أسوار المهديـة وحصونها. وقد حمل ذلك أنصـار الإمام على اعتبار هـذه النبوءة المعجزة سببـا في تأسيس المدينة. إلاّ أن الدوافع والشـواغل الحقيقية التي كـانت تسيطر على فكـر الإمام كـانت أقرب من كلّ ذلك وأوكـد. فبصرف النظر عن الاعتبارات المتعلقة بانتشار الصيت وعلوّ الشأن بين الملوك وعن حرص مؤسسي الدّول والممالك عبر مختلف مـراحل التاريخ الإسلامي على تجسيم قيام كلّ نظـام سياسي جديد ببعـث عاصمة جديـدة للحكم، كانت غاية المهدي العاجلة تتمثل في إقـامة سدود منيعة تتميّز بما ينبغي من بُعد الشّقّة ومن حصانـةالموقع، لتكون حاجزا دون عاصفـة محتملة تقوم بها جموع أهل السنّـة الـذين يقفـون ضدّ الشيعـة بكلّ مـا أوتـوا من ثبـات وإصرار. وهـذه الزوبعـة لا يمكن أن تنطلق أعاصيرهـا وموجـاتها إلاّ من محور مركزيّ هـو القيروان. أمّا خطر الخوارج فقد كـان أبعد من أن يتمّ توقّعه آنذاك .

وكان الموقع الذي تمّ اختيـاره يتميـّز بضمانات أمنية مثاليـة بالنسبة إلى دولـــــة تملك أسطولا بحـريًا قويًا ورثتـــــه عن دولة الأغـالبة. فتمّت إقامة المدينة فـوق نتـــوء صخري داخـل فـــي البحـــر بنحـــو 1400 متر « لا يمكن الجواز إليــه إلاّ عبر ممـرّ ضيّق كشسع نعـل » ، (انظـر المقدسي، أحســـن التقاسيـم، تحـ .شارل بلاّ Ch.Pellat مع ترجمة جزئية، الجزائر، 1950، ص 17)، ممّا يجعل منـالها عن طريق البرّ أمـرا مستحيلا. وإنّ في ذلك ما يفسرّ اختيار عبيد الله المهدي الذي فشل في تحقيق مطامحه في الدخول الى مصر فلـم يسعه غير الاقتصار على تأمين قواعده بـإفريقية إلى أجل غير مسمّى .

وتوجد علامات عديدة من النقوش والكتابات ومن الآثار تشير إلى أن مدنا قديمة بـونية ورومانية قد سبقت الفاطميّين في الارتكـاز بتلك الجهة. وقد احتفظت النصوص العربيـة بذكرى « جُـمّة » التي يذهب الباحثـون غالبا إلى أنهّا مدينة «قُـمّـي» Gummi العتيقة.لكن ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أن شبـه الجزيرة الداخلــــة فـــي البحر « قـــد كانـت محـلاّ لتجمّع عمرانـــي قبـــل القـــرن العـاشر م.» (انظر أ.ليزين A.Lézine المهديـة،

باريس 1965، ص 17). قام عبيد الله المهدي إذن في سنة 300 هـ / 912_913م. (انظر ابن عذاري، **البيان**، تحـ. كولان وليفي بروفنصال Colin et Lévi-Provençal، ليدن، 1948، ج I، ص 169) بارتياد موقع بكر، وعند الفراغ من أشغال بناء المدينة قام بتدشين عاصمته الجديدة يوم 8 شوال من سنة 308 هـ. الموافق 20 فيفري سنة 921 م. (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 184؛ والقاضي النعمان، **الافتتاح**، تحقيق وداد القاضي، بيروت، 1970، ص 275؛ وتحـ . فرحات الدشراوي، تونس، 1975، ص 327_ 328). كانت مدينة المهدية إذن مخبأ وملجأ. فتمّ تحصينها وإحاطتها بسور ذي كثافة غير معهودة (8 أمتار و30 سنتيمترا) مساير لساحل لا تزال آثاره ماثلة للعيان في جزء طويل منه بناحية الشمال. وكان يسدّ مدخل البرزخ المؤدي إلى المدينة من جهة البرّ سدّ طوله 175 مترا مسبوق على مسافة 40 مترا بسور تمهيدي متقدّم. وكان الجواز إلى المدينة يتم من خلال باب من الحديد تزينه صور أسود من النحاس الأصفر عبر رواق معقود السقف طوله 33 مترا وعرضه 5,10 أمتار. ولم يبق اليوم قائما سوى هذا الرواق المسمّى « السقيفة الكحلاء » .

وكانت المدينة تحتوي على قصرخاص بالإمام المهدي، وقصر آخر لابنه ووليّ عهده القائم، وعلى مبان إدارية ومخازن تحت الأرض لادّخار الحبوب، وعلى آبار ومواجل للمياه. وكان بها مسجد جامع، وقد نخره البحر فيما بعد وأبلاه، وشوّهته البناءات الطفيلية التي ألصقت به عبر السنين، فأصبح خرابا. وقد تمّ مؤخّرا ـ خلال سنوات الستين ــ ترميم هذا الجامع وإعادته تماما إلى حالته الأصلية الأولى بإشراف الباحث ليزين Lézine. هذاوقد تمّ أيضا تجهيز العاصمة الجديدة بترسخانة للأسلحة، وأقيم بالناحية الجنوبية منها ميناء داخلي محصّن ومحمّي. وهو ليس بالضرورة ـ كما ذهب إليه بعضهم ـ بناء قديما أعيد استعماله، لكنّه مستوحى بدون شكّ من مثال ميناء بوني محتفر ومحصّن، أو «قطوف» Cothon.

تاريخها ـ المهدية مدينة ملكية وقلعة حصينة محصورة في نطاقها الضيّق داخل أسوارها. فهي لم تكن يوما تعجّ بالسكّان.أمّا جمهرة الأهالي فقد استقرّوا بأنشطتهم الاقتصادية في ربض زويلة. وعمد الخليفة القائم (322 ـ 334هـ / 934 ـ 946م) إلى إحاطة هذا الربض بخندق. وفي سنة 332هـ/ 943 م. قامت ثورة أبي يزيد الخارجي النكّاري، الملقّب بصاحب الحمار. وبعد أن استولى هذا الثائر عنوة على مدينة القيروان، انتقل فضرب الحصار على المهديّة (من جمادى الثانية سنة 333 الى صفر سنة 334 هـ / جانفي ـ أكتوبر 945م.) وقد كانت أسوار المهدية وتحصيناتها سببا

في نجاة الفاطميّين من هلاك كان يبدو محققا. إلاّ أنّ الخليفة إسماعيل المنصور (334 ـ 341 هـ / 946 ـ 953 م). قد تخلّى، بعد القضاء نهائيا على الثورة، عن مدينة المهديّة التي فقدت بذلك منزلتها كعاصمة، واستقرّ في أواخر صفر من سنة 337هـ / سبتمبر 948 م، بقاعدته الجديدة « المنصوريّة » التي أقامها بجوار القيروان « في نفس المكان الذي انتصر فيه على صاحب الحمار» (انظر فرحات الدشراوي، **الدولة الفاطمية بالمغرب**، تونس 1981، ص 217) .

ولم تسترجع المهديّة دورها كعاصمة لآخر مرّة إلاّ بمناسبة زحفة بني هلال التي دفعت بالأمير المعز بن باديس إلى اللجوء إليها والتحصّن بها. ومنذ ذلك الحين أصبحت المدينة عاصمة مهدّدة بالأخطار المحدقة بها من كل صوب، بل وحتى من البحر أيضا. ففي سنة 480 هـ / 1087 م. استولى على المهديّة وزويلة جماعة من رجال مدينتي « بيزا » و« جنوة »، وقاموا بنهب ما فيها وبإحراقها. (راجع هـ.ر.إدريس، **الدولة الصنهاجية** باريس، 1962، ج I، ص 288). وفي سنة 517هـ / 1123 م. هاجم النورمانديّون المدينة بدون طائل. وفي سنة 529هـ / 1134 م تعرضت المدينة إلى هجمة بني حمّاد برّا وبحرا. وأخيرا فرض النورمانديّون الحاكمون في صقلية شروطا قاسية على مدينة المهدية بواسطة معاهدة سنة 536 هـ / 1140 م. فكان ذلك تمهيدا لاحتلالها من طرف روجار الثاني ملك صقليّة (في 2 صفر 543 هـ/ 22 جوان1148م). وقد كان في ذلك نهاية الدولة الصنهاجية .

وفي 12 رجب 554هـ /30 جويلية 1159 م. ضرب أسطول عبد المؤمن بن علي وجيوشه الحصار على المدينة بحرا وبرا، فلم يكن بوسع النورمانديّين غير الاستسلام يوم10 محرّم 555هـ / 21جانفي 1160 م. وسمّى الموحّدون واليًا لهم على المدينة. وبعد ذلك بأربعة عقود من السنين تحالف محمد بن عبد الكريم الرّجْـراجي الكومي - وهو من قبيلة عبد المؤمن بن علي - مع بني غانية، فاستقلّ بأمر المدينة في أوائل خلافة الناصر 595-610 هـ / 1199 - 1213م. وتلقّب بالمتوكّل على الله، لكنّ الخليفة الموحّدي استرجع المهدية وكامل إفريقية سنة 602 هـ / 1205 م. وقام بترميم تحصيناتها .

وفي عهد الدولة الحفصية، وخلال سنتي 685 و 686هـ / 1286ـ 1287 م. قام قائد البحر روجير دي لوريا Roger de Lauria الموفد من قبل مملكة أراغون بتدمير العديد من مدن الساحل بمافي ذلك المهدية ثمّ استقلّ بها من سنة 718 الى سنة 723هـ / 1318 ـ 1323م. أبو ضربة أحد أبناء ابن اللّحياني. وفي سنة 739هـ / 1338ـ 1339 م. تمّ استرجاع المهدية من يد رجل استولى عليها يدعى ابن عبد الغفّار. وتمّ سنة 761هـ/1360م. ادخال ترميمات جديدة على

أسوارها وحصونها على يد ابن تفراجين وزير الدولة الحفصية. وفي سنة 1390 م وبين يوم 20 جويلية و يوم 20 سبتمبر تعرّضت المهديّة إلى حملة صليبيّة بأتمّ معنى الكلمة قامت بها عساكر جنوة يساندهم فرسان فرنسا وانقلترا. وصمدت المدينة في وجه المغيرين لكنّها اضطرت أخيرا إلى دفع جزية حتى تتمكّن من رفع هذا الحصار.

وفي آخر أيام الدولة الحفصية تنازع الأتراك والاسبان مدينة المهدية بشدّة وعنف. وعمد الإسبان إلى محاصرتها سنة 1509، ثمّ ركّزوا بها حامية قارّة سنة 1539 بعد استيلاء كارلوس الخامس Charles Quint امبراطور اسبانيا على مدينة تونس . لكن القائد درغوث استولى على المهديّة في السنة الموالية. وقد تمّ بعد ذلك إجلاؤه مؤقتا عن المدينة. ثمّ عاد فاستقرّ بها من جديد إلى يوم 8 سبتمبر 1550، تاريخ تغلّب قائد البحر أندريا دوريا Andréa Doria على هذا الموقع المحصّن والاستيلاء عليه باسم كارلوس الخامس المذكور. وقد أمر هذا الأخير بتخريبها وتهديم تحصيناتها قبل مغادرتها والتخلّي عنها نهائيّا.

وفي سنة 1689 ابتليت المدينة وأهلها بوباء الطاعون. وفي سنة 1740 غادرها أهلها وهجروها بسبب ما أصابهم من قسوة علي باشا عليهم عقابا لهم على وفائهم لعمّه ومناصرتهم إيّاه. وفي سنة 1848 أصبح عدد السكّان المسيحيّين بالمدينة من الأهمية بحيث استوجب تركيز كنيسة خورنيّة. وفي سنة 1856 تسبب وباء الكوليرا في هلاك عدد من الضحايا بالمدينة. وبالرغم عن تحسّب أهل المدينة واحتياطهم خلال انتفاضة سنة 1864 التي قامت بسبب مضاعفة ضريبة المجبى بالبلاد، فإنّ «المهدية، باعتبارها مدينة مجرّدة من الأسوار، قد تمّ نهبها من قبل سكان القرى المجاورة » (انظر ج. غانياج J.Ganiage، **أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية** (1861 ـ 1881)، باريس ، 1959، ص 228 ، وتردّت في حالة من الافلاس المالي ـ كما كان الشأن بالنسبة إلى منطقة الساحل جميعها ـ بسبب التأثيرات المزدوجة لحملة الوزير زرّوق من جهة، ولتشدّد أصحاب الديون والمرابين وشططهم في المطالبات من جهة أخرى .

وإثر انتصاب الحماية بالبلاد التونسية ، افتتحت أوّل مدرسة فرنسية بالمهدية في سنة 1884، وأصبحت المدينة مركز إداريا لعامل أو « قايد » سنة 1885. ولم تلبث المهدية أن ساهمت بقسط وافر في الحركة الوطنية. ففي 6 مارس 1906 جرت بها مظاهرة للاحتجاج على غلوّ الأسعار آلت إلى أعمال عنف وشغب. وفي 21 مارس 1925 استجابت المهديّة إلى تعليمات الاضراب العام الذي أعلنه حزب الدستور في كامل أرجاء البلاد احتجاجا على

اصلاحات اعتبرت غيرموفيـة بالغرض. كما دارت بها من 18 إلى 20 أفريل 1933 مظـاهرات أخـرى دعـا إليها نفس حـزب الـدستور قصـد منع دفن التونسيّين المتجنّسين بالجنسية الفرنسيّة داخل المقابر الإسلامية .

وقد خضـع تطوّر شكل المدينة وعمرانها بطبيعة الحال لما عاشته وشهدته من أطوار وتقلبّـات عبر تاريخها. فقد آل الأمـر بربض زويلة إلى الانـدثار شيئـا فشيئا تحت ضغط زحفـة بني هلال، ثمّ عـاد إلى الحياة والظهـور حوالي سنة 597 هـ / 1200 م. وفي نفس الفترة بـدأ الناس في نـاحية الشمال الغربي يـذكرون اسم قرية هيبـون. ثم أخذت ملامح المدينـة تتغيرّ تماما ابتداء من القرن السـادس عشر بسبب تأثير العنصر التركي المتمثل في جند الحاميات العسكرية الجديدة بالمدينة. وقد انضاف إلى هذا العنصر، انطلاقا من سنة 1609 عنصر الأنـدلسيّين المهاجـرين من إسبانيـا. هذا وإن نسبـة تساوي 60 بالمائة من العائلات البورجوازية مـن أهالي المهدية اليوم تنحدر من «الكُولُوغـلْـيّة » [جمع كُولْ ـ أوُغـلُـو]. وهذه أعلى نسبة بالبلاد التونسيـة في هذا الباب ، ممّا يـؤدي إلى تأثير واضح وملموس في الأسماء والعادات والتقاليد .

وأهمّ ثروات المهديّة هما زراعة الزيتون والصيد البحري. أما مزارع القطن التي حصلت الإشارة الى وجـودها في القرنين الثـامن عشر والتاسع عشر، (انظر لوسيـت فالـنزي Lucette Valensi، **الفلاّحون التونسيّون**...، 1975، ص 219)، فإنها قـد اندثـرت اليوم تمامـا. وقـد شهدت الصنـاعات المتصلـة بالـزيتون والصيد البحري ـــ وخاصّة تصنيع سمك السرّدين ـــ ازدهارا كبيرا ونتج عنهـا تـركيز تجهيـزات حـديثـة في مجال صنـاعة الـزيـوت وتكريرها وصناعة الصابون وصناعة التصبير وغير ذلك .

أما اليـوم فإن المدينـــة قد تجاوزت حـدود برزخهـــا الأصلي الضيّق وتوسعت في اتجاه الطريقين الـرئيسيّتين نحو مدينة صفـاقس وخصوصا نحو مدينة سوسة .

وقـــد اشتهر من بـيـن أُدبـائها فـــي أوائل عهـد الدولـة الحفصية شاعران، هما : أبو عمرو عثمان القيسي المعروف بابن عُرَيْبة (المتوفّ سنة 659 هـ/ 1260 م). وابـن السّمّـاط (المتوفى سنة 690 هـ / 1291 م). كما اشتهر بهـا في ميدان التصوّفَ « القطبُ » الدهماني (المتوفى سنة 621 هـ / 1224 م). وهو من أصحاب الوليّ الصالح أبي مدين .

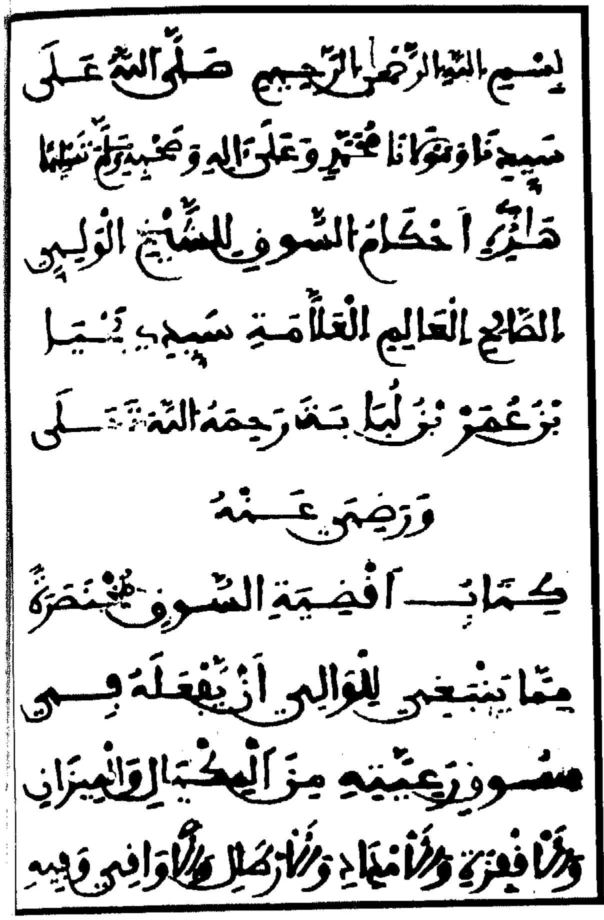
ثبت المراجع

يضاف إلى المؤلّفات المذكورة في صلب هذا البحث ما يلي: حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات**، ط . تونس . 1972، ج III ، ص 355 ـ 387؛ ت. البشروش، **التكوين الاجتماعي البربرسكي والسلطة بتونس في القرن السابع عشر**، ط.تونس، 1977، ص 34 ، 154؛ ر.برانشفيك R.Brunschvig، **الدولة الحفصية**، ط. باريس، 1940 ، 1947، الفهارس؛ خ . شاطر، **محلّة زروق بالساحل** (1864)، ط.تونس، 1978؛ ج. ديبوا J.Despois، **تونس الشرقية، الساحل والسهوب السفلى**، ط. باريس، 1955، الفهارس ؛ أ.ف. غوتييE.F.Gauthier، **ماضي إفريقيا الشمالية**، ط. باريس، 1952؛ ط. قيقة، **درغوث رايس**، ط . تونس، 1974، ص 81-67 ؛ م. الجديدي، **نمّو المدن بالساحل التونسي**، بمجلة الجغرافيا، تونس، 1979، العدد 4 ص 41ـ59 ؛ ش.أ.جوليان Ch.A.Julien، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ط. باريس، 1956، الفهارس؛ علي المحجوبي، **أصول الحركة الوطنية بتونس** (1904ـ1934). ط . تونس، 1982؛ ج. مارسيG.Marçais **الفن المعماري الإسلامي بالمغرب العربي**، ط. باريس 1955؛ أ. مارتال A.Martel **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** (1881ـ1911) ، ط. باريس، 1965، الفهارس ؛ أ.المصمودي، **الوظائف الحضرية لمدينة المهديّة** (أطروحة مرحلة ثالثة ، جامعة، باريس I) ؛ س. م. زبيس، **المهدية وصبرة المنصورية** في مجلةJournal Asiatique، 1956، ص 79 .93؛ أمّا كتاب ط.الفقيه **المهدية عبر التاريخ** فهو غير ذي قيمة .

فالمصادر هي عمليّا مصادر كامل تاريخ إفريقية في العصر الوسيط وتاريخ تونس في العصر الحدي. والمؤلّفات المذكورة أنفا تحيل القارىء على هذه المصادر.ويضاف إلى ذلك القاضي النعمان،**كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق ح. الفقيه و إ. شبّوح و م. اليعلاوي، تونس، 1978، الفهارس .

(*) 36.828 ساكن حسب تعداد سنة 1984.

قضايا


بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على
سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
هذا أحكام السوق للشيخ الولي
الصالح العالم العلامة سيدي يحيى
بن عمر بن لبابة رحمه الله تعالى
ورضي عنه
كتاب أقضية السوق مختصرة
مما ينبغي للوالي أن يفعله في
سوق رعيته من المكيال والميزان
والأقفزة والأمداد والأرطال والأواقي وفيه

الحسبة

الحسبة لفظ غير قرآني يجري استعماله للدّلالة على الواجب المفروض على كل مسلم في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» من وجه أوّل، ولتسمية خطّة الشخص المكلّف فعلا داخل المدينة بتطبيق هذا المبدإ في مجال السّهر على التزام مكارم الأخلاق وعلى توخّي النزاهة والأمانة في التعامل التجاري بالأسواق، من وجه ثان. وهذا الشخص الذي يقوم بأعباء خطّة الحسبة يسمّى **المحتسب**. وليس يوجد ـ فيما يبدو ـ أي نصّ يضبط لنا بصورة واضحة ومدقّقة السبب الداعي إلى اختيار هذا اللّفظ، ولا الطريقة التي تمّ توليد المعْنَيَيْن المذكورين واستخلاصُهما من مفهوم « الحساب » أو « الحسب » ـ بمعنى الكفاية ـ الموجود ضمن الجذر اللّغوي للكلمة .

ـ **معطيات عامّة**

المصادر والأصول والوظائف : إنّ الازدواجيـــة التي يتضمّنهـــا مفهوم الحِـسْــبَـــة هي السبب في تنوّع المصادر التي تفيـدنا بمعلومـات عنها. فبصرف النظـر عن التلميحات العـديـدة إلى المحتسبين التي نعثر عليهـا في كتب الأخبار والسّير وطبقـات أعلام الرجال وغيرهـا، فإنّ كلّ ما كتب من التآليف عن الأخلاق العامّـة وضـدّ البدع، مثل **المدخل** لابن حاجّ، وكل ما ألّف كذلك في باب البيع والشراء وفقه المعاملات التجـارية يفيدنا بوجه من الوجوه في التعرّف على الحسبة. وسوف نقتصر في هذا المبحث على الحديث عن المؤلّفات التي اتخذت من الحسبـة ـ في أيّ واحـد من معَـنَيَيْـهـــا ـــ موضوعـــا التزمت بـه ووقفت عنـد حدوده. ويمكن تصنيف هـذه المؤلّفـات ـ بصـورة تقريبيـة جدّاـ في صنفين ليس بينهما حـدود فاصلـة حاسمـة. فبعض هذه الكتب يـدرس بوجه عـامّ محتوى فضيلـة الحسبة، والواجبـات المترتّبة عنها بالنسبـة الى المحتسـب، ومـا تكتسي خطّته من صبغة دينية وفقهية. كما يوجد من بين هـذه المؤلّفات ما تكون الغاية منه أساسا إنـارة المحتسب بخصوص التفاصيل والجزئيات الملمـوسة والفنيّة من جوانب عمل المراقبة الذي ينبغي أن يقوم به. وبما أن هذه الرقابة إنّما تجري أساسـا على الصناعات والحرف، فإنّ مثل هذه الكتب تكـوّن دليلا حقيقيا لأصـول الرقابـة الإدارية على المهن. واننّا سـوف نسعى إلى تقديم قائمـة مفصّلة في مؤلّفـات هذا الصنف الأخير. أمّـا الصنف الأوّل فسوف نكتفي بإيراد معطيات عامة حوله .

فالمؤلّفات التي تتضمّن نظرة عامّة في الحسبة هي عديدة فعلا، لكنّ الغريب في أمرهـا هو أنّنـا لا نجد أيّ كتـاب منها قبل القـرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميـلادي، أي قبل فترة متأخّـرة بقـرنين عن ظهـور خطّـة الحسبة.و أهمّ هذه المؤلّفـات كتابان هما : **الأحكام السلطانيّة** للماوردي، الباب العشرون، وهو كتاب فقه وتشريـع بالخصوص، (إلاّ أن هذا الكتاب يذكر أحيـانا، على سبيل الاستشهاد أو على سبيل الإنكار والنقـض، مؤلّفا سابقـا لأبي سعيد الإصطخري المحتسب الشافعي ببغـداد في أوائل القرن الرابع هـ / التاسع م)، **وإحياء علوم الدين** للغزالي، المجلّد II، ص 296 وما بعدهـا، وهوكتاب تبرز فيـه الصبغة الأخلاقيـة بصورة أوضح. ومن بين المؤلّفين الآخرين يجب أن نـذكر ابن حزم، وهـو مـــن الأندلسيـــين

القدامى (في كتابه **الفصل بين الملل والنحل**، ج IV ، ص 171 وما بعدها). ثمّ ابن تيميّة الحنبلي الذي عاش في عصر متأخّر في عهد المماليك، (في مؤلّفه **الرسالة في الحسبة**، انظر هنري لاوست H.Laoust ، دراسة ... عن ابن تيميّة Essai sur ... Ibn Taymiyya، الفهارس)، والنويري (كتاب **النهاية**، ج VI وابن جماعة، والسّبكي (كتاب **معيد النّعم**)، والقلقشندي، والمقريزي، وغيرهم. أمّا في بلاد آسيا الوسطى فقد ظهر كتاب **النّصاب في الاحتساب** للسّنامي (؟)، الذي يشير عنوانه إلى خطّة مؤلّفه كمحتسب (القرن السابع هـ / الثالث عشر م ؟). ويبدو أنّ هذا الكتاب قد لاقى إقبالا عظيما ببلاد الأعاجم والترّك بناء على وفرة نسخه المخطوطة (انظر ك. عوّاد في مجلّة M.M.I.A، المجلّد XVII (السنة 1942) ، ص 433 وما بعدها. وأمّا ببلاد المغرب، فهناك **المقدّمة** لابن خلدون، ج III، ص 31.

أمّا مؤلّفات الصنف الثاني فهي من قبيل مخالف لكلّ ما ذكرناه . ذلك أنها تنصرف إلى الاهتمام بالجزئيات الفنيّة للرقابة الواجب القيام بها، لاسيّما على الحرَف والمهن، بل وتبرز أيضا في شكل كتيّبات أو رسائل مؤلّفة للمحتسبين خاصّة. ولئن كانت هذه المؤلّفات موافقة بطبيعة الحال للشريعة الإسلامية فهي تكتسي مع ذلك صبغة إدارية بعيدة عن الطابع الفقهي. ويعتبر كتاب **أحكام السّوق** لفقيه إفريقيّة المالكي يحيى بن عمر(النصف الثاني من القرن الثالث / التاسع م) أقدم مؤلّف من هذا النوع. (نشر أهمّ قسم من هذا الكتاب اعتمادا على ما عثر عليه منه في مجموع متأخّر . وقام بهذا النشر محمود علي المكّي في مجلّة RIEEI المجلّد IV ، (سنة 1956). وترجمه إلى الإسبانية غارسيا غومز E. Garcia Gomez في **مجلّة الأندلس** al-Andalus، المجلّد XXII (السنة 1957). ويوجد منه مخطوطان أصليّان كاملان بالبلاد التونسية، أحدهما بمكتبة الزيتونة، رقم 3137 ، والثاني بإحدى المجموعات الخاصة). وبالإضافة إلى أنّ كلمة الحسبة لم ترد في هذا المؤلّف، فإنّ هذا الكتاب أقرب إلى باب من مجموع فتاو فقهية حول موضوع السوق وما أشبهه، منه إلى رسالة في الأحكام الخاصّة بالمحتسب.- أمّا **كتاب الزيديّة** Zaydi Manual الذي نشره سرجان Serjeant بمجلّة RSO المجلّد XXVIII (السنة 1953) (التاريخ التقريبي : حوالي سنة 300هـ/ 910 م) فهو أقرب إلى صنف التأليف الذي نحن بصدده، وقد ورد فيه هذه المرّة ذكر

لفظ الحسبة. وليس من قبيل الاتفــاق والصدفة أن ظهر مثل هــذا الكتاب داخل بيئة الشيعــة الزيديــة المتمسكين بالتثبّت والتــدقيق في الشريعة، لكنّ حالة التأخّر الاقتصادي والاجتماعي بمنطقــة طبارسـتان التي تمّ تصوّره وتأليفه بها قد أثّرت بالنقص في محتواه .

أمّا المصنّفات الحقيقيّة في فنّ الحسبــة بالمعنى الدقيق الــذي نقصده فإنها سوف لن تظهر إلاّ ابتداء من أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. بالمغرب الإسلامي (ولا سيما بالأندلس)، وابتداء من القرن السادس هـ / الثاني عشر م. بـالمشرق (بالشــام و مصر)، ولم يعثر على شيء منهـا فيما سبق ذلك زمــانـا ولا فيما عـدا ذلـك مكـــــانا. والمؤلّفـات المعـروفـة المذكــــورة في هذا الباب هي التالية :

1 ـ **بالمـــغــرب الإســـلامـــي: كتـــاب في أدب الحـسْـبَة.** للسّقـــطي المالقي (حوالي سنة 500هـ / 1100م .، نشر أ . ليفي بروفنصال وج. س. كـولان E. Lévi-Provençal et G.S. Colin في مجلّـة J.A سنة 1931 ، **ورسالة في القضاء والحسبة** لابن عبدون الإشبيلي (القرن السادس هـ / الثاني عشرم، نشر ليفي بروفنصال في مجلّة J.A سنة 1934، وقد أعاد نشرها في كتابه **ثلاث رسائل أندلسيــة في الحـسْـبَـــة**، سنة 1955، مع ترجمة فرنسية لنفس الباحـث في كتابه **إشبيليةَ الإسلامية في أوّل القرن الثاني عشر**، سنة 1947، و ترجمة إسبـانيّة بالتعـــاون مـــع غارسيا غـومز، **إشبيلية المسلمة** ....، سنة 1948؛ ترجمة إيطاليّة لـــ :ف. غابريال F.Gabrielli في نشريات Rend.Accad. Lincei، المجموعة السادسة، المجلّد XI،(السنـــة 1935).

ـ ثمّ يأتــي بعـــد ذلك، في نفس **الثلاث الرسـائل الأندلسيـــــــة** ....، ابن عبد الرؤوف والجرسيفي ترجمــة فرنســـيــة لراشـــال أريي Rachel Arié فـــي مجلة Hespéris -Tamuda المجلّد I (السنـــــة 1960)، ترجمــة انجليـزية لـــلأوّل قــام بهـــا ج.م. ويكنـــس G.M. Wickens فــي مجـلّــة I.Q ـ المجلّد III، (السنـــــة 1965) راجــــع مـا كتبه ج. د. لاثــام J.D.Latham في مجلّة الدراســــات الساميــــــــة J. Sem.St.، المجلّدV ، (السنة 1960)، ص 124 وما بعـدها) ـــ وينتسب بقدر مشترك إلى كلّ من فنّ التأليـف في الحسبة وفنّ الكتابة في القضايا أو الفتـاوى الشرعـية، البـــاب الخاص بالحسبة في كتاب **تنبيــه الحكّام في الأحكـــام** لابن المناصف (سنة 563ـ620 هـ / 1168ـ 1223 م) مكتبــة الزيتـونـة، رقم 1917 و وكتـاب **التحفة**، لمحمد العقبـاني التلمساني، مكتبة الزيتونة رقم 2978 ورقم 6234، ومكتبة الجزائر، رقم 1353،

الذي قدّم حوله محمد الطالبي تحليلا بمجلّة ARABICA، المجلّد I ، (السنة 1954) بعنوان بعض معطيات عن الحياة الاجتماعية بالمغرب الإسلامي في القرن الخامس عشر.

2ـ **بالمشرق** : ألّفت عدة كتب مشرقيّة في الموضوع، وهي أكمل وأغزر مادّة من مؤلّفات المغرب الإسلامي. وقد كان المثال الأنموذجي الأوّل الذي نسجت سائر هذه الكتب على منواله هو كتاب **نهاية الرّتبة في طلب الحسبة** لعبد الرحمان بن نصر الشيزري (المتوفّى سنة 589 هـ / 1193 م). وطبع مع ترجمة فرنسيّة (لبرنهاور Bernhauer† منذ سنة 1860 ـ1861، في مجلّة J.A ، منسوبا إلى النبروي بعنوان **مؤسسات الشرطة عند العرب**...، ثم نشر في طبعة عصرية طيّبة للعريني، القاهرة، 1946؛ ومن هذه الكتب مؤلّف يحمل نفس العنوان لكنّه أوسع وأشمل، كتبه ابن بسّام (الذّي عاش في القرن السابع هـ / الثالث عشر م. بالشّام أو بمصر)، وقد قام بتحليله الأب شيخو في مجلّة المشرق، المجلّد X السنة1907)؛ ومنها أيضا كتاب أغزر مادّة وأوسع تحليلا من سابقيه، وهو كتاب **معالم القُربة في أحكام الحسبة** لابن الأخوّة المصري (أوائل القرن الثامن هـ / الرابع عشر م)، طبعة مع ترجمة مختصرة باللّغة الانجليزيّة لروبن ليفي Reuben Levy، نشرت في سلسلة Gibb Mem. Serie الجديدة المجلّد XII (السنة 1938)؛ ثمّ هناك عدد من الكتب الأخرى معظمها فيما يبدو إعادات محوّرة للمنشورات السابقة، منسوبة، أحيانا، إلى غير أصحابها (مثل الماوردي) ويتعذّر تصنيفها بسبب بقاء مخطوطاتها بدون نشر ولا دراسة؛ راجع أيضا فصول ودراسات م. غود فروا- ديمونبين. M. Gaudefroy-Demombynes في مجلّة J.A. المجلّد CXXIII (السنة 1938)، و ك،. عوّاد في مجلّة M.M.I.A، المجلّد XVIII (السنة 1943)، وراجع كذلك بالنسبة إلى كتاب **الحسبة** لابن عبد الهادي (المتوفّى سنة 905 هـ / 1503 م) تعليق حبيب الزيّات في **الخزانة الشرقية**. المجلّد II (السنة 1937)، ص112. أمّا بخصوص الزيدية فانظر ر.شتروثمان R. Strothman, Das Staatsrecht der Zayditen، ط. سترازبورغ سنة 1912، ص 90 وما بعدها .

وتضاف إلى هذه المؤلّفات من ناحية أخرى بعض وثائق تسمية المحتسبين التي لم تلق بعد ما تستحقّه من العناية. فمنها وثيقة من القرن الرابع هـ/

العاشـــر م. موجـــودة ضمـــن **ديوان الإنشـاء** للصــاحـــب بن عباد، ص 39 ،ومنها وثائق أخر إيرانية تركيّة من القرن الرابع هـ / العاشر م. ضمن رسائل رشيد الدين الـوطواط، ص 80 ، وفي **عَـتَبة الكَـتَبة** (الفارســي) لمنتجـــب الـــديـــن بديـــع أتابـــك الجوينـــي، طهران 1329 . p ، ص 82 ، ووثـائق أخيرة من الشـام ومصر ترجع إلى عهـــد الأيوبيّين والمماليك موجودة فـــي مراسـلات ضيـــاء الديـــن بن الأثيـــر (راجع مجلّة BSOAS، المجلد XIV / 1، ص 38) وفـــي كتاب **صبـح الأعشى** للقلقـــشـــنـــدي ، ج X، ص 460 (من إنشـاء القاضي الفـاضل)، وج XII، ص 339 ، ومقتطفـات أخرى في مـواضـع مختلفـة من الكتاب. ويمكن العثور بدون شكّ على العديد من الوثائق الأخرى المماثلة .

هـذه إذن هي المصـادر التي يمكننـا الاعتماد عليهـا في دراسـة الحسبـة، والحسبة في مفهومهـا الواسـع هي حينئذ الواجب المكتـوب مبدئيا على كل مسلم في الإعانة على الخير ومقاومـة الشرّ، ويستطيع المسلم أن يقوم بذلك بواسطة الإرشاد والتقريع في الحالات العـادية، وبتحكيم سلطة القضاء في حالات أخـصّ. أمّا في أقصى الحالات، وعنـد فقدان السلطـة العامة، فـإنّه يستطيع اللّجوء إلى استعمال الجبر ـــ إن أمكنه ذلك ـــ بل والخروج تماما عن طاعة الحكّام والثورة عليهم ـ حسب رأي ابن حزم ـ إذا ما تبينّ عدم صلاحهم .

وفي الحقيقة فإنّ هذا الفرض هو واجب نظـري خاضـع لاستطاعة صاحبه أن يقوم به على أفضل وجه، وإنّه من المحجّـر الحلول محلّ السلطة العامة ما دامـت قائمـة. هذا وانّ مفهوم الحسبـة، لئن كان بـوسعه أن يسـاهم ببعض الدورفي استعـراض أصناف السلـوك داخل المجتمع، فإنّه لا يكتسي عمليّا سوى فعالية محدودة القيمة والتأثير. فلا بدّ، حينئذ، من السعي إلى تفهّم الظروف التي نشأت وتطوّرت فيها ـ مع ذلك ـ هذه النظرية .

إن ظـروف النشـأة الأولى لخطّة الحسبـة في المجال العملي ـــ وهي سابقـة فيما يبدو ظهور النظرية ـ محاطة أيضا بالغموض . فنحن لا نجد في أوّل الأمـر حديثـا عن الحسبـة أو المحتسب، بل نـرى بخصوص الخطّـة التي سوف يشغلها المحتسب حـديثا عن **صاحب (أو عـامل) السّوق**. فهناك حينئذ مسألتان : مسألة أصل ظهـور صاحب السوق، ومسألة تحوّله إلى محتسب. والرأي السـائد عند الباحثين هـو أنّ صاحب الســـوق قد حلّ

محلّ حاكم السوق Agoranomos الذي كان موجودا بالمدن اليونانية : ذلك أنّ وظائف الأوّل والثاني متطابقة بوجه عامّ. وقد تكون التسمية العربية ترجمة للعبارة اليونانية. وقد زال ذكر حاكم السوق Agoranomos في الكتابات والنقوش اليونانية قبل الفتح العربي بثلاثة قرون (انظر بولى - ويسوا - وواست، وجونصن، مصر البيزنطية 1955، الفهارس Pauly-Wissowa, West et Johnson, Byzantine Egypt لكنّنا نجد هذا الاسم في التلمود، وقد تكون اللّهجات الشعبية احتفظت به في التخاطب. وقد حافظت المدن القديمة بدون شكّ على مؤسّساتها ونظمها بعد الفتح العربي. أمّا البصرة والكوفة وغيرهما - وقد كانت بها أسواق مثل مكّة والمدينة - فإنّ صاحب السوق قد يكون ظهر بها دونما حاجة إلى تأثير خارجي.

ومهما يكن من هذا الأمر فإنّ المحتسب قد حلّ محلّ صاحب السوق في أيام الخليفة المأمون على وجه التقريب . وقد كان اسم المحتسب إلى ذلك العهد لا يطلق إلاّ على رجل خاصّ شغل نفسه بفضيلة الحسبة. وهذا التحوّل في التسمية يندرج بصورة واضحة ضمن مساعي العباسيين إلى إضفاء صبغة إسلامية على المؤسسات، ولا سيّما أثناء فترة غلبة المعتزلة على الدولة، ولكنّه من العسير علينا أن ندرك المدى الحقيقي لهذا التحوّل في خطة المحتسب روحاومضمونا.وبحكم حصول هذا التحوّل بالمشرق بعد حدوث القطيعة العملية بينه وبين المغرب الإسلامي، فإنّ اسم صاحب السّوق قد ظلّ غالبا في الاستعمال ببلاد المغرب والأندلس حيث بقي تبنّي مفهوم الحسبة بالمعنى الاصطلاحي مقصورا بالخصوص على رجال الفقه والقضاء (وشهادة ابن بشكوال بهذا الشأن واضحة كلّ الوضوح، كما أنّ الأمثلة والشواهد عديدة في هذا الباب، لاسيّما في **البيان** لابن عذاري). وعندما أصبح بالإمكان الشروع في إعطاء محتوى حقيقي لهذه الخطّة ، فإنّنا لم نعد نرى فرقا كبيرا بخصوصها بين شطري العالم الإسلامي.

فالذي يميّز المحتسب التقليدي حينئذ هو اندراج خطّته في مراقبة السوق ضمن عمل أوسع حدودا يتّصل أساسا بالجانب الدّيني وهو السعي إلى الحفاظ على سلامة السلوك الاجتماعي . هذا وانّ الحدود الفاصلة بين الشؤون التي هي من مشمولاته وبين ما يعود بالنظر إلى القاضي أو إلى صاحب الشرطة ليست دائما في منتهى الوضوح. وبالنسبة إلى عدة أصناف من هذه الأمور فإنّ الفرق في الاختصاص لا يرجع إلى نوع هذه

الموضوعات بقدر ما يكمن في طريقة مباشرتها ومعالجتها : فالقاضي ينظر ويحكم في الشؤون التي قامت بخصوصها دعوى وتمّ فيها إجراء بحث لمعرفة حقيقتها ، والشرطة تتدخّل في حالة حدوث جريرة أو جريمة تقتضي تحرّك القوّة العامة. أمّا المحتسب فهو لا يشتغل إلاّ بأمور صريحة ومخالفات واضحة للعيان لا مجال فيها للشكّ أو النّزاع. وهو لا يقوم بأبحاث وإنّما يتدخّل في القضية من تلقاء نفسه ودون انتظار قيام أحد بدعوى. أمّا المسائل الداخلة في مشمولات نظره فقد تمّ ضبطها على وجه العموم دون كبير عناء بالاعتماد على تقاليد جرى العمل بها منذ زمن بعيد، ولم يطرأ عليها تغيير يذكر حتى العصور الحديثة. ولا تتصف أيّة واحدة من هذه المسائل بأنّها شكلية بوجه محض، لكنّ الأسلوب الذي يؤدّي به المحتسب بعض واجباته — بصرف النظر عن السوق ذاتها - يرتبط كثيرا بالبيئة الاجتماعية السائدة ويتأثّر جدّا بمزاجه الخاص.فبالاضافة إلى شؤون السوق يمكن تصنيف مشمولات المحتسب في ثلاثة أقسام : فهو مطالب أوّلا بالسهر على أداء الفرائض الدينية (كإقامة الصلوات ورعاية المساجد). وثانيا بمراعاة التقوى ومكارم الأخلاق في السلوك المتبادل بين الرجال والنساء بالشوارع (والحمّامات)، وهو مطالب أخيرا بالحرص على تطبيق إجراءات الميز بالنسبة إلى أهل الذمّة . وقد ذُكرت حالات أقدم فيها بعض المتّصفين بالجرأة من المحتسبين على لوم بعض القضاة المنحرفين عن الصواب في أحكامهم ، وعلى التشهير ببعض الفقهاءالمخالفين لإجماع المسلمين واستنكار تعاليمهم. أمّا في نظر الجمهور من الناس فمن الثابت أنّ مهمّة المحتسب الأساسية والدائمة إنّما تتمثّل في مراقبة السوق. فعليه قبل كل شيء — كما كان يتمّ التنصيص على ذلك أحيانا بشكل صريح في وثيقة التسمية — أن يقوم بالتأكّد من صحّة الموازين وسلامة المكاييل التي كانت تسمح بسهولة بالتطفيف والغشّ لكثرة ما فيها من التنوّع والتشعّب. وبوجه أعمّ فقد كان يجب عليه أن يترصّد ويقاوم كلّ أنواع الفساد والغشّ التي قد تحدث إبّان صناعة الموّاد أو عند بيعها، (وهي العيوب التي كتب بشأنها العديد من المؤلّفات المختصّة، وأشهرها **كشف الأسرار** للجوهري (في القرن السابع هـ / الثالث عشر م.) فضلا عن عناية الفقه بها). وإنّنا لنجد في الكتب المختصة بفنّ الحسبة قائمات مفصّلة في أهمّ أنواع الصناعات والمهن تمدّ المحتسب، فيما يتعلّق بكلّ واحدة منها، بالإشارات والبيانات الفنيّة التي

تمكّنه من التثبّت من جودة الصناعة والكشف عن وجوه الغش فيها. وهذه وثائق فائقة الأهميّة بالنسبة إلينا من حيث التعرف على جوانب الحياة الاقتصادية في تلك العهود. بل ويستطيع المحتسب أن يقوم كذلك بالتأكّد من سلامة عيار معدن النقود إذا لم يكن يوجد جهبذ مختصّ بهذه المهمّة، كما يجب عليه أن يتحقّق من سلوك الباعة والوسطاء لا يتضمّن تسترًا عن عيب ولا تكتّما عن نقص ولا مغالطات غايتها التغرير بالحريف وغشّ المشتري في البضاعة أو الثمن. ويتأكّد المحتسب أيضا ـــ من الوجهة الفقهيّة ـ من عدم تعاطي الباعة أيّة عملية يدخل فيها الرّبا المحرّم المشهّر به، بل ويمتدّ مجال نظره فيشمل مهنا لا نعتبرها عادة من مشمولات السّوق، فإذا به يراقب الصيدلانيّين والأطبّاء ويقتحم الكتاتيب ودور تعليم الصبيان لينذر المعلمين أو يعاقبهم بسبب إفراطهم في الشدّة على الصّغار، على أنّ المحتسب لا يتجاوز في عمله حدود المدينة ، وبالتالي فان التجار الذين يتعاطون المعاملات مع الخارج يخرجون عن نطاق رقابته .

ومن جوانب هذا النشاط الاقتصادي الأخلاقي التي يجدر إبرازها والتأكيد عليها لما لها من العلاقة بالتقاليد الاقتصادية الإسلامية أن المحتسب يقوم بمراقبة الأسعار لكنّه ليس بيده عادة أن يقوم بتحديدها أو ضبطها. فهو يؤنّب ويعاقب أحيانا البائع الذي تكون أسعاره غير مماشية للقيمة الجارية المتداولة في السوق ، وهو يقسو على المحتكرين للخيرات والأقوات لاسيّما في زمن القحط والمجاعة، لكنّ الشريعة ترى أنّ تحديد الثمن أو تقديره هو من خصائص الإرادة الإلاهية.ومع ذلك فقد قويت في أواخر العصور الوسيطة النزعة إلى التسعير الرسمي المفروض .

وفي سياق الحديث عن هذه المهام ، توجد وظيفة أخرى دفعت الباحثين المعاصرين إلى الإلحاح في كتاباتهم على ما كان موجودا أثناء العصور القديمة من تقاليد النظر في شؤون المدينة والسهر على تموين أهلها وصيانة سككها ومبانيها العامة وغير ذلك ممّا ورثه المحتسب عن القدامى. فهو مطالب بالاحتياط لئلاّ يكون في بناء المساكن وتعهّدها بالصّيانة ولافي إقامة الدكاكين وتجهيزها أي عنصر يكون من شأنه أن يضرّ بأمن مجموعة السكّان وسلامتهم أو أن يمسّ بقواعد استعمال مسالك المدينةوطرقاتها، وعليه أيضا أن يتّخذ ما يلزم من التدابير والإجراءات لضمان تنظيف الشوارع ولترميم الأسوار عند الاقتضاء

وتأمين التزويد بالمياه والسهر على انتظام توزيعها وغير ذلك ... كلّ هذه الواجبات والفروض حملت بعض الناس أحيانا على اعتبار المحتسب بمثابة موظّف بلدي - وهو إذن الوحيد من هذا النوع في الإسلام : فهو (مثل القاضي تماما) لا يتّصف بهذه الصفة بحكم نوع الوظيفة الموكولة إليه، إذ هو لا يستمدّ نفوذه من أيّ تنظيم مدني أو مهني، لكنّ محتوى نشاطه يتمثل فعلا على وجه التخصيص والحصر في القيام بشؤون مدنيّة بلديّة .

والمحتسب تعيّنه الدولة مباشرة في بعض الأحيان، أو في أغلب الحالات بواسطة الولاة والقضاة الذين تكل إليهم الدولة رسميا وظيفة الحسبة، لا لكي يقوموا بها مبدئيا بأنفسهم، بل لكي يضمنوا نفاذها على الجميع وانتظام العمل بها بين الناس. وينبغي أن يكون المحتسب معروفا لدى جمهور الناس باستقامته الأخلاقية وتضلّعه في معرفة الشريعة الإسلامية. فيتمّ انتقاؤه إذن في غالب الأحيان من بين الفقهاء. لكنّ ما يطالب به المحتسب أيضا من تجربة وخبرة في مجال الحياة المهنية والحرفية - وإن كان هذا الجانب أقلّ اعتبارا من سواه - يجعل المكلّفين بتعيينه يختارونه، ما أمكنهم ذلك، من بين سلك الباعة وأهل الأسواق. هذا وفي سياق تصنيف الخطط إلى سياسية ودينية، فإنّ الحسبة تعتبر خطّة دينية كما هو الشأن بالنسبة إلى خطة القضاء. وتعترض انتداب المحتسبين وأداءهم وظيفتهم عقبتان تتعلق إحداهما بكفاءة المحتسب، والثانية بوسائل العمل التي يملكها. ويمكنه أن يتدارك النقص في خبرته المهنيّة بتعيين أمين أو عريف على كلّ صناعة أو مهنة. ومن ناحية أخرى فإنّه يتصرف في عدة أعوان وأتباع يساعدونه على أن يكون عينا ساهرة في أسرع وقت على كلّ مكان، وعلى أن يتمّ اقتياد أصحاب الجرائر والجُنح إليه بسهولة، إلى غير ذلك ،،، ومع هذا فمن النادر أن تكون هذه الوسائل وافية بالغرض، ومن اللاّزم أن يتمّ التعاون بين كلّ من المحتسب والقاضي والشرطة. ومن أجل نفس السبب تمّ في كثير من الأحيان الجمع لشخص واحد إمّا بين خطتي القاضي والمحتسب أو بين وظيفتي الحسبة والشرطة. ورغم ما كان يتميّز به عمل المحتسب من الشمول وما كانت تكتسيه خطّته من صبغة دينيّة فقد اعتبر بوجه عام بمثابة عون تابع للقاضي من ذوي الاختصاص. وقد كان أصحاب هذه الخطّة ينتدبون من ضمن رجال من مرتبة أدنى من منزلة القضاة لأنّ مركز المحتسب كان يعدّ أقلّ قيمة من مركز القاضي، (وقد كان الأوّل يمهّد لبلوغ الثاني أحيانا) .

وفي معظم الدول الإسلامية يعهد إلى محتسب عاصمة البلاد بمهمة مراقبة محتسبي المدن الصغرى. وفي أوائل القرن السابع هـ /. الثالث عشر م. سعى الخليفة الناصر، في نطاق سياسته العامّة لتوحيد العالم الإسلامي تحت قيادته نظريًا ودينيا، إلى إقامة نظام رقابة عامة على الحسبة على الأقلّ في منطقة المشرق، لكنّ هذا النظام لم يكتب له التحقّق الفعلي (انظر مجلّة أوريانس Oriens المجلّد VI، (السنة 1953 ص 21) .

أمّا العقوبات التي يستطيع المحتسب أن ينزّلها بالمخالفين دون الاستعانة بمراجع النظر الأخرى فهي في العادة التوبيخ والجلد والتطويف بالمدينة. ويمكن أن يتمّ حجزالمقاييس والمكاييل الفاسدة وكذلك البضائع والموّاد المغشوشة. وفي بعض الحالات القصوى فإنّه يمكن حرمان الأشخاص المدمنين على المخالفات من تعاطي مهنتهم أو الحكم عليهم بالنفي والتغريب.

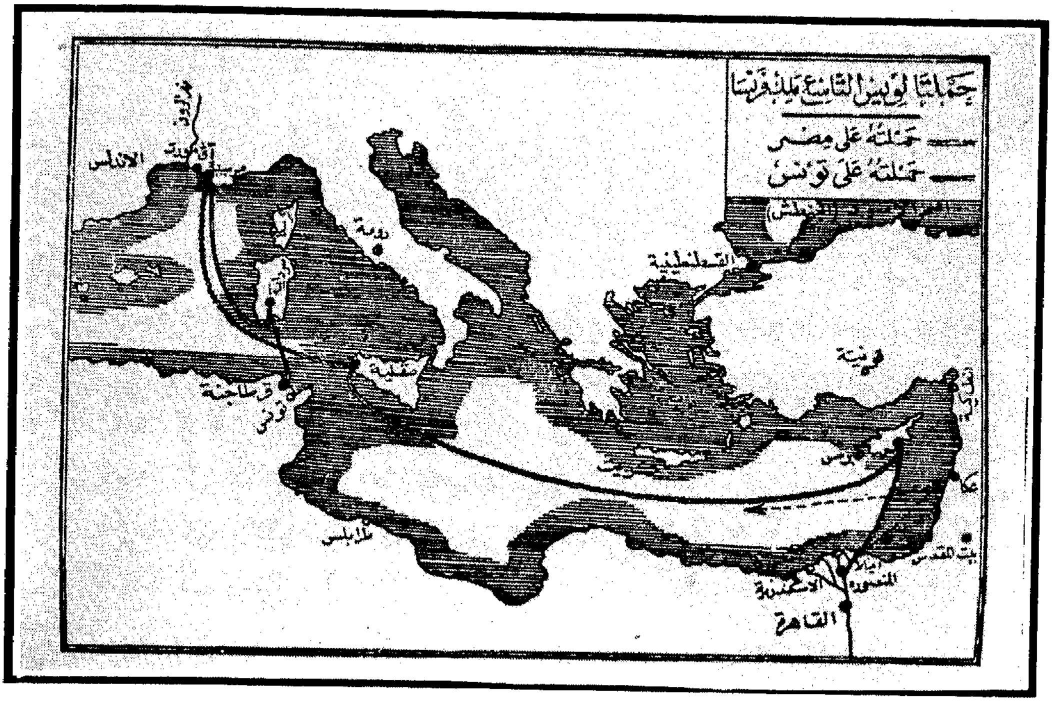
وفي أواخر العصر الوسيط ، ومع حلول التدهور الاقتصادي والأزمات الاجتماعية، داخَلَ وظيفَةَ المحتسب، كثير من التبديل والفساد. ففي عهد المماليك كانت هذه الخطّة ــ كغيرها من الوظائف ـ تشترى بالمال من أصحاب النفوذ ، على أن يقوم المشتري بعد ذلك بتعويض خسارته على حساب الباعة بالأسواق بأن يفرض عليهم دفع ضرائب ورسوم غير شرعيّة . وقد كثرت وشاعت الخصومات بين المترشحين لهذه الخطّة، مثل المشادّة الشهيرة بين المقريزي والعيني . وقد يحدث أن تسند هذه الخطّة ــ خلافا لكلّ ما جرت به العادة والتقاليد- إلى أحد العسكريّين ، وذلك إما بدافع الرشوة أو حرصا على مزيد من الفعاليّة والنجاعة .

هذا وقد حافظ المحتسب على بقائه ، وظلّ قائم الذات في أكثر أجزاء العالم الإسلامي حتى مجيء عهد الإصلاحات المعاصرة.فكان موجودا مثلا في فجر القرن العشرين بكلّ من المغرب الأقصى ومدينة بخارى. ومنذ عهد الدولة السلجوقية، أصبحت هذه الخطة في بلاد الإيرانيّين والترّك ـ وحتى في غيرها أحيانا ــ تسمى الاحتساب في حين خصّص اسم الحسبة لمختلف مظاهر الفضيلة التي ينبغي أن يتميّز بها القائم بهذه الخطة ـ أمّا المشرق اللاّتيني المتولّد عن الحروب الصليبيّة فقد تبنّى لفظة « المتهسلا » mathessepمع التضييق في معناها الأصلي وكَسْوها صبغة لائكيّة .

ثبت المراجع

المصادر والدراسات الحديثة المتعلّقة بها تمّ ذكرها في صلب هذا البحث. أمّا فيما يتعلّق بالموضوع في جملته فإنّنا لا نزال بحاجة إلى الدراسة الشاملة والعميقة التي ينبغي أن تكون وافية بهذا الغرض. وأهمّ ما لدينا الآن هي دراسة ذات صبغة قانونيّة غالبة كتبها أ ـ تيان E.Tyan في الباب الأخير من كتابه **تاريخ النظام القضائي في الإسلام**، ج II، 1943، مع العروض التحليلية التي خصّها بها كلّ من غودفروا ـ ديمونبين M. Gaudefroy - Demombynes في مجلة العلماء، 1947 وج. سوفاجي J.Sauvaget في مجلّة J.A، ج. CCXXXVI سنة 1948، ص 309-311 و ج . شاخت J. Schacht في مجلّة Orientalia، جXVII (سنة 1948)، ص 518. انظر أيضا مقدّمات أ.ليفي بروفنصال E.Lévi -Provençal ومحمود علي مكّي للطّبعات التي أصدراها، والتوضيح الذي أصدره شاخت أخيرا ضمن **مقدمته للتشريع الإسلامي**، 1966، الفهارس، والمراجع ص 231 - 232. فصل جيّد كتبه أ. درّاج في كتابه **مصر في عهد بيبرس**، 1961، تعليق 76-86. أمّا كتاب ن . زيادة، **الحسبة والمحتسب في الإسلام** فقيمته تكمن بالخصوص في مجموعة النصوص التي تضمّنها. وفي ما كتبه عماد الدين بمجلّة IC ، 1963 بعنوان **الحسبة بالأندلس** نجد تراجم لعدد من المحتسبين الأندلسيين. انظر أيضا فصل **محتسب** بدائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى ـــ ر. ليفي R.Lévy ، هذا وإن كلّ العروض المخصّصة للحديث عن المدينة الإسلامية تعطي المحتسب نصيبه من الاهتمام. ولئن تعذّر علينا ذكرها جميعا فمن الجدير في نظرنا أن نشير إلى : ج.مارسي G. Marçais **نظرات حول المدينة الإسلامية والمحتسب** ضمن مجموعات جمعية جان بودان J. Bodin ج VI (السنة 1954) والرسالة الجيّدة التي خصّ بها ر.لوتورنو R.Le Tourneau مدينة فاس. وعن بخارى، ب.إ.بتروف P.I.Petrov **المحتسب البخاري** في مجلة Problemi Vostokovedeniya 1951 / I ص 139 ـ 142. وعن المشرق اللاّتيني كلود كاهن C. Cahen، **الإقطاعية والمؤسسات السياسية بالمشرق اللاّتيني** في مجلّة Accad. Naz.d.Lincei، ج XII، ندوة فولتا، 1956، ص 22-23.

كلود كاهن ومحمد الطالبي



القدّيس لويس في تونس

إنّه لا يزال هنا بأرض تونس، على وجه من الوجوه. فالسياح، وهم حجّاج هذه العصور الحديثة، يعرفون جيّد المعرفة، على اختلاف مللهم ولغاتهم، سيدي أبا سعيد، ذلك الرجل « الصالح المنعّم السعيد » الذي أطلق اسمه على كامل المصطاف الشهير بضواحي مدينة تونس. لكنّهم لا يعلمون نفس العلم أنه يوجد على بعد ميلين من هناك، بأعلى هضبة بيرصا قلعة قرطاج العتيقة ووسط آثار البونيّين، بعض بقايا من رفات رجل « صالح » آخر يدعى لويس التاسع، تنام في مُدْخَر من الشّبه المذهّب علّق فوق هيكل الكتدرائية، تلك التي أقيم بناؤها تكريساً لهذا الرجل وزلفى، فوق قطعة من الأرض تمّ التّنازل عنها لفائدة البلاد الفرنسية بمقتضى اتّفاق أبرم بين حسين باي وشارل العاشر

فصل من مؤلّف جماعي بعنوان « **الحروب الصّليبيّة** » صدر عن دار لوسوي، باريس، 1988، ص ص. 72 ـ 79.

بتاريخ 8 أوت 1830. فقد مات القدّيس لويس فعلا بقرطاج يوم 25 أوت من سنة 1270 م .

فماذا أتى بالقدّيس لويس إلى تونس ؟ هل جاء، كما يدّعي جورج دوبي Georges Duby: « ليموت شهيدا كما سوّلت له نفسه ورؤاه الانفرادية الكبيرة »؟ أم جاء، كما يقول كلود كاهن Claude Cahen طالبا «تضحية فات أوانها وانقضى زمانها ؟ » أم تراه جاء حاملا في رأسه فكرة عبقرية سبق بها الخطط الاستراتيجية العسكرية الحديثة، وهي أن ينزل الضربة بنقطة الضعف في المغرب ليفكّ من شدّة الطوق على البقاع المقدّسة المسيحية في المشرق ؟ ما فتىء الناس يسعون إلى سبرنوايا الملك الحقيقية أو المفترضة. وبما أنّ هذه النوايا قد أحيطت بالكتمان الشديد حتى آخر لحظة، ونظرا إلى فقدان الوثائق الواضحة الدقيقة، فإنّ كلّ الافتراضات والاحتمالات تبقى جائزة وقابلة لأن تدعّمها حجج مقبولة.

وقد سبق للقدّيس لويس أن تطوّع بالانخراط في سلك الصليبيّين من قبل. وقد قام في سنة 1249م. بمهاجمة دمياط على ساحل البحر شماليّ القاهرة. وإثر هزيمته في معركة المنصورة وأسره، تمّ افتداؤه بالمال، فأطلق سراحه وبقي بأرض فلسطين من سنة 1250 إلى سنة 1254 م قبل أن يرجع فيلتحق ببلاد فرنسا. وعندما عاد يوم 25 ماي 1267 رفقة بنيه الى حمل شعار الصليب من جديد، لم يلاق مسعاه تحمّسا من أحد. ولم يكن ذلك ناتجا عن فتور في الإيمان، لكنّ روح الحملات الصليبية قد خمدت وفلّ حدّها من جرّاء الخيبات المتكرّرة. ثمّ إنّ هذه الحملة التي عزم عليها القدّيس لويس لم تأت متأخرة عن زمانها فحسب، بل إنها كانت أيضا شاقّة وعسيرة. ذلك أنّ الظروف الماديّة لم تكن مؤاتية بالمرّة. أجل، لقد أمكن للملك الفرنسي أن يفضّ لصالحه بفضل معاهدة باريس (سنة 1259 م) تلك الخلافات والنزاعات التي كانت قائمة بينه وبين انغلترا، لكنّ العملية الجديدة كانت باهضة التكاليف في حين كانت الأموال مفقودة. فقد كان يجب صناعة أسطول كامل أو تسويغه، وكان ينبغي أيضا وبالخصوص إقناع عدد من الحلفاء المتردّدين المتمنّعين، ممّا جعل الاستعدادات حينئذ طويلة إذ دامت ماينهاز الثلاث سنوات. وبالإضافة إلى كلّ ذلك كان الملك مصابا منذ بضع سنوات بداء الزحار الاسهالي. وفي الحقيقة فإنّ الرّجل الذي غادر باريس يوم 15 مارس 1270 كان بعدُ رجلا مريضا .

- **بين آثار قرطاج :** سار الجيش في طريقه من حجّ إلى حجّ حتّى وافى مدينة «آغ مورت » Aigues -Mortes، ومن هناك، وبعد قدّاس ليلي، أبحرالجيش في أوّل

جويلية نحو مدينة «كالياري» Cagliari التي بلغها بعد ستة أيام. ولم يتمّ اتخاذ القرار بالتوجّه بالأسطول نحو تونس ـ أو الكشف عنه للملوك والبطارقة وأعيان النبلاء المساهمين في الحملة ــ إلاّ بعد بلوغ تلك المرحلة. وفي يوم 17 جويلية، أي بعد قطع يومين بالبحر، بلغ الصليبيّون مرسى حلق الوادي. فنزلت جيوشهم (وكانت تعدّ بين العشرة آلاف والخمسة عشر ألف رجل تقريبا)، وتحصّنت بآثار مدينة قرطاج القديمة. وكان عليها أن تقاوم شدّة الحرّ، وأن تواجه فقدان الأغذية ـ وقد أصبح هذا المشكل يدعو إلى الانشغال والحيرة منذ يوم 20 أوت ـ وأن تجابه بالخصوص خطر الوباء.

وأخذت جيوش المسلمين مواقعها بمنطقة مطار تونس قرطاج الحالي. وكان المعسكران محاطَيْن بالخنادق. وفي انتظار قدوم شارل دي أنجو Charles d'Anjou شقيق القدّيس لويس وملك صقليّة، تمّ الامساك عن أي اشتباك جدّي طيلة شهر كامل أو يزيد. وفي الأثناء أخذ وباء الزّحار الجرثومي يفتك بالناس. وفي يوم 3 أوت قضى الوباء على جان تريستانJean-Tristan أصغر أبناء الملك و « كونت » مقاطعة نوفار Nevers. وفي عشية يوم 25 من نفس الشهر أسلم القدّيس لويس الروح إلى بارئها، في حين كانت مراكب أخيه شارل دي أنجو تُرسي هناك بعد طول انتظار. ومن الغد، وبمحضر أفراد أسرة الملك وأهل بيته، وجريا على سنّة كانت سائدة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر فيما يتعلق بجثمان الملوك، تمّ تجريد الجسد وتغلية الأحشاء والأجزاء الرخوة منه. ثمّ أخذها شارل دي أنجو معه إلى مدينة بلرمة.

وكان فيليب الثالث، ملك فرنسا الجديد، قد أقعده نفس المرض الذي قضى على والده، فتولىّ عمّه قيادة جيش فاقد معنوياته أهلك الوباء جانبا هامّا من رجاله. وقد تعذّر دفن كلّ الموتى حتّى عمد الناس إلى إلقاء الجثث في مياه البحيرة، وقد أدّى ذلك إلى انتشار روائح نتنة لا قدرةلأحد على تحمّلها. هذه هي الظروف التي حفّت بحدوث اشتباكين بين الفريقين، الأول يوم 4 سبتمبر، والثاني يوم 20 أكتوبر. وقد دارت الدائرة في كلا المعركتين على جيوش المسلمين التي لم تسلم هي الأخرى من الوباء. عندئذ اتجّه الرأي لدى كلّ من الجانبين إلى إيقاف القتال. فقد أصبح همّ فرق البدو الرّحّل من جيش المسلمين هو الالتحاق بمراعي الجنوب كما تقتضيه عاداتهم المألوفة في مثل ذلك الوقت. أمّا الصليبيون فكان يلازمهم الفزع الشديد من مفاجأة الخريف لهم مع ما يرافقه

من الصعوبات في الملاحة. لكنّ مفاوضــات السلام كان لها خصومها داخل كل فريق. لذلك لم تبلغ تلك المفاوضــات نتيجتها ـ بعد شيء من التردّد لدى الجانب الإسلامي في خاتمة المطاف ـ إلاّ يوم 5 نوفمبر. وقد وصلنا الأصل العربي من المعاهدة المبرمــة مختوما بخاتم كبير من الشمع فـوق شريط من الحرير الأحمر والأخضر. وهو محفـوظ حاليا بخـزانة الوثـائق الوطنية ببـاريس. وتنصّ هذه المعاهدة على إطـلاق سراح الأسرى، وضمان سلامة المسافـرين والتجّار، وطرد أعـداء كل طرف من بـلاد الطرف المقـابل، والإقرار للمبشرين النصـارى بحق القيام بطقـوسهم وشعائرهم ودعـوة الناس إلى دينهم بكـامل الحريّة في أراضي الدولـــــة الحفصية . هــــذا مــــع وجوب قيام المستنصر بـالله بدفع غـرامة حربية تساوي 210.000 أوقية من الذهب، وبتسديد « الجزية » التي كان شارل دي أنجو قـد فرضها على البـلاد. وقد ضوعـف مقدار هذه الجزيـة ابتداء من تاريخ المعاهدة. وبعد انصراف جيوش الصليبيّين تمّ تهديم آثار قرطــاج مـــن أساسها بصـــورة شاملـــة ومنظّمـة، فكـــان في ذلك خسارة لا تعوّض، وهو أسوأ ما ترتّب عن هذه المغامرة من العواقب .

على هذه الصــورة كانت نهايـة هذه الحرب الصليبيـةالغريبة الأطـوار، التي تمّ الانحراف بها عن القصد، وكان المستفيد الرئيسي منهاـ كما تمّ تأكيد ذلك مرارا ـ هو شـارل دي أنجو الذي اغتنمها فـرصة ليسوّي لصالحه النـزاع القـديم الـــذي كـان بينه وبين السلطـــان الحفصي. أمّا الأثر الـذي تركته هذه الحرب في أذهان الناس فهو شعـور عميق بالارتباك وإضاعة الجهود سدى. فــــلم تكــــن هذه الحـرب تعني في رأي ميشـــال مـــولا (Michel Mollat) سوى «مجهود مالي ضخم ذهب بدون طائل، وجيـش عتيد قضى عليه «الطاعون» ... وأسطـول كـامل أبـادتـه عـاصفـــة خـريفيـة بعـرض مينـاء تـرابـاني [...] و[بالخصــوص] إضاعة لماء الوجـه وفقدان للهيبة والاعتبـار». هذا وقـــــد لاحـــظ أحد رواة الأخبـار من الـلاّتينيين، فـــي نقمـة وسخــــــط، إنّ الصليبيّين « قد انسحبوا جميعا تـاركين نصف رجالهم في بطون القبور بأرض غريبـــــة، وفـــي ذلك الجزاء العادل على مـا قدمت أيـديهم، لأنهّم اتجهوا إلى أرض إفريقيـا خداعـا وزورا، مخالفين بذلك الإرادة الإلاهية والعدل اللذيـــن كانا يفرضان عليهم المناجزة بالتوجّه إلى الأرض المقدّسة بقصد تحريرها» .(1)

ـ معاهدة مخزية : وفي المعسكر الإسلامي لم تكن الأمور أيضا تبعث على قدر أوفـر من الفخر والاعتـزاز. فلم يكتسب المستنصر بـالله فعـلا من هذه المحنـة

مزيدا من العظمة وعلوّ الشأن. أجل، إنه استطاع أن يجنّب عاصمته ما كان يتهدّدها من أهوال النهب الذي بدأت مخاوفه تساور أذهان السكّان المخيّم عليهم اليأس والقنوط، وقد « ابتلي المسلمون بتونس ـ كما يقول ابن خلدون ـ وظنّوا الظنون، واتهم السلطان بالتحوّل عن تونس الى القيروان »[2] . فتقبّل الناس انصراف الصليبيّين عن أرضهم بمشاعر الارتياح العميق، ونحن لا نشكّ في صدق شهادة ابن خلدون إذ يؤكّد لنا أنّ السلطان أغْرَمَ الرعايا ما أعطى العدوّ من المال فأعطوه « طواعية » .

ولا نزاع مع ذلك في أنّ هذه المعاهدة قد كانت مجحفة ومُخلّة بالكرامة بالنسبة إلى الأمير الحفصي.فهذا «خليفة» المسلمين كافة يخوّل المبشرين المسيحيين القيام في كامل الحرية بدعوة الناس الى النصرانية على كامل تراب مملكته !وهذا ما يفسرّ بدون شك إحجام أكابر رجال الدولة عن المساهمة في ختم المعاهدة. إذ لم يوقع عليها ابن الخبّاز كبير القضاة ولا الوزيران ابن أبي الحسين وابن الرائس. وقد وجّه السلطان بيبرس، أحد ملوك دولة المماليك بمصر، كتابا إلى المستنصر خاطبه فيه بكل احتقار قائلا له : « رجل مثلك لايستحق أن يكون حاكما على المسلمين » [3] .

ومع ذلك فإنّ المقاومة ضدّ الصليبيّين قد كانت بدأت في غمرة من الإيمان والحماس، وتوجّه الأمير الحفصي إلى أهالي البلاد بخطبة استشهد فيها بالقرآن الكريم ونادى في الناس بالجهاد متمثّلا بقوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللّه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون»(4) فأقبل الناس من كلّ صوب وجاؤوا حتّى من المغرب الأوسط، وساهم الشعراء بنصيبهم في هذا المجهود ساعين الى جمع الطاقات وتقوية الهمم والعزائم . وما إن سرى خبر الاستعداد لشنّ هذه الحرب الصليبيّة الثامنة ، التي لم تكن تعرف وجهتها الحقيقية في بادىء الأمر ، حتى سارع أبومطروح شاعر البلاط بمصر إلى إرسال هذه الصيحة من قصيدة حماسية طويلة يقول فيها :

« وقل لهم إن أزمعوا عودة ★ لأخذ ثار أو لشغل قبيحْ

دار ابن لقمان على حالها ★ والقيد باق والطواشي صبيحْ »

وعمد أحد شعراء مدينة تونس، إلى إنذار القديس لويس بأنّه وشيك الوقوع في قبضة منكر ونكير الملكين المكلفين بتعذيب الأشقياء في قبورهم، فخاطبه قائلا:

« يا فرنسيس، هذه أختُ مِصْرِ ★ فتأهّبْ لِمَا إليه تصير
لك فيها دارُ ابنِ لقمانَ قبرٌ ★ وطواشيك مُنكرٌ ونكيرُ »

أفلم يكن ذلك يعني فعلا تجنّد كامل بلاد الإسلام في وجه النصرانيّة؟ كلاّ! فقد ظلّت الحروب الصليبيّة إلى ذلك العهد نزاعات محليّة في نظر المسلمين لا يعنى بأمرها سوى الأجوار المباشرين لميادين الصراع، ولم يتمكّن أحد في العالم الإسلامي على ذلك العهد من إدراك عمق هذا الحدث ومداه ولا طبيعته الحقيقيّة على وجه الخصوص. ولم تظهر عبارة «الحروب الصليبيّة » إلاّ في عهد متأخّر ، أي في العصور الحديثة حيث استعملت في بادئ الأمر داخل أوساط العرب المسيحيّين المتفتّحين للتأثير الفرنسي. أمّا أهل ذلك العصر القديم فلم يروا في الحروب الصليبيّة سوى حلقات من الصراع التقليدي الذي بدأ منذ ظهور الإسلام، والذي كان المسلمون فيه يجابهون الروم بالمشرق والإفرنج بالمغرب. وهذا هو الإطار الذي أحلّ فيه المؤرخ التونسي ابن خلدون (1332 – 1406 م) بكلّ بساطة ووضوح هذه الهجمة ضدّ تونس التي قام بها «الإفرنجة وتسمّيها العامة بالإفرانسيس ». وقد غابت عنه الدوافع العميقة الحقيقية للصليبيّين، فجعل السبب المباشر لهذه الحملة ما لحق من الخسارة «بمال أدعياء تجّار أرضهم ». فهذه الخسائر قد حدثت فعلا وقد تمّ إيفاد سفارة بشأنها، لكنّه لم يكن لهذه الديون من أثر حقيقي في هذا النزاع رغم ما يوجد من وجوه التشابه بينه وبين الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830. بل ان بعضهم قد ذهب إلى حدّ القول بأنّ السبب المباشر لهذا الهجوم هو غضب القدّيس لويس عندما بلغ الى علمه أنّ المستنصر هزئ به يوما في أحد مجالس بلاطه بسبب ما كان حلّ به من أسر بأرض مصر. وهذا كلّه يؤكّد مدى بعد رواة الأخبار العرب في ذلك العهد عن إدراك النوايا الحقيقية التي كانت تدفع وتحرّك خصومهم .

ـ **الجهل بالجغرافيا** : من البديهي الواضح أنّ جوّا من الخلط والجهل والغلط كان يغمر أطوار الصليبيّة الثامنة سواء من جانب النصارى أو المسلمين. فالوجهة التي دفعها فيها القدّيس لويس كانت تصدر عن سلسلة من الأخطاء الجغرافية ـــ مثل سوء تقدير المسافات ـــ والاستراتيجية والبيئوية والسياسية والدبلوماسية والبشرية. وقد دار جدال كثير حول الدور الذي قام به شارل دي آنجو شقيق الملك، إمّا لتبرئته من كل ذنب، أو لاتهامه بأنّه كان موجّها خفيّا تحرّكه انتهازيّته وحرصه الماكيافيلي على حساباته الخاصة

ومصالحه السياسيّة، ويتميّز بقدرته الشيطانيّة على الاستئثار بثمرة مجهود غيره. وقد لوحظ أنّ نصارى مدينة تونس، بمن فيهم من التجّار أصيلي مدينة جنوة - وهي المدينة التي زوّدت أسطول القدّيس لويس بالعدد الأكبر من الرجال - لم يمسسهم أيّ أذى من قبل الحكّام ولا جماهير الأهالي. كما لوحظ أيضا حضور كلّ من فريدريك دي كاستيل Frédéric de Castille ابن عمّ القدّيس لويس، وفريدريك لانشا Frédéric Lancia ابن عمّ كونستانس دي هوهنشتاوفن Constance de Hohenstaufen إلى جانب المستنصر وداخل قبّة خبائه. فيالها من صليبيّة غريبة حقّا تلك التي يستعين فيها قائد المسلمين بمستشارين عسكريين نصارى بمثل هذه المنزلة الرفيعة !

أمّا الشخص الوحيد الذي كان يتميّز بين كلّ هذه الأصناف البشريّة بصفاء النيّة ونقاء النفس والضمير، فيبدو أنّه القدّيس لويس الذي ليس يوجد من شكّ في صدقه ونزاهته وحرارة إيمانه. وكان يدور من حوله عدد من الرهبان المبشّرين المختصّين في تنصير المسلمين، ومن أشهرهم رامون مارتي Ramon Marti المستعرب الجيّدالاطّلاع، وعضو مؤسسة Studium Arabicum بتونس ومؤلّف كتابPugio fidei adversus Mauros et Judeos. وقد يكون هو الذي رسّخ الاعتقاد لدى القدّيس لويس بأنه من الممكن تنصير الأمير الحفصي صاحب تونس. ففي خضمّ ذلك العهد وما كان يسود فيه من التباس في الأمور وحرارة في الاندفاع وإغراق في ضروب الجهل، كان مثل ذلك التحوّل والانصراف عن الإسلام لاعتناق المسيحية من الأمور التي تبدو محتملة وقابلة للتصديق. وإنّه ليجدر بنا، من أجل التعمّق في إدراك حسابات أهل ذلك العصر وفهم عقلياتهم، أن نذكر أنّ بلاد الأندلس، رغم طول عهدها بالإسلام منذ الفتح، قد عادت إلى سالف صلتها بتقاليد الحياة النصرانيّة نتيجة للجهود المتضافرة التي تشارك في بذلها رجال الدنيا ورجال الدين بقصد استرجاعها من أيدي المسلمين. فلماذا لا تسير إفريقية إذن - وهي موطن القديس أغسطينوس - على آثار الأندلس؟

مــراجــع

1) Chronicon de rebus in Italia gestis نقلا عن دي مــاس لا تري De Mas Latrie في كتابه معاهدات حربية وتجارية ط. باريس، 1866، القسم الأول، ص 137.

2) ابن خلــدون، كتاب العبــر، ط. بيـروت، 1959، ج VII، ص 680 (IV ـ 670).

3) المقريـزي، سلــوك، القاهرة، نشر مطبعة لجنة التاليف، 1957، ج I، ص601.

4) القــرآن، ســورة IX، آيـــة 41.

5) راجــع مقال : « هل عــاش القدّيس لويـس حقًا ؟ » حوار مع جاك لوغوف Jacque Le Goff مجلّة التاريخ « l'Histoire عدد 40، ديسمبر 1981،ص90.

مراجع لمزيد الاطّلاع

- A. S. Atiya, **the Crusade, Historiographie and Bibliography,** Londres, Oxford University Press, et Bloomington, Indiana University Press, 1962.

- A. Bridge, **les Croisades,** Paris, Denoël, 1983.

- **Les Croisades,** Numéro spécial de "Notre Histoire" n 20 février 1986.

- R. Lefèvre. **"La crociata di Tunisi nei documenti del distrutto archivio angioino di Napoli"** dans Africa, t. 5. Rome, 1977.

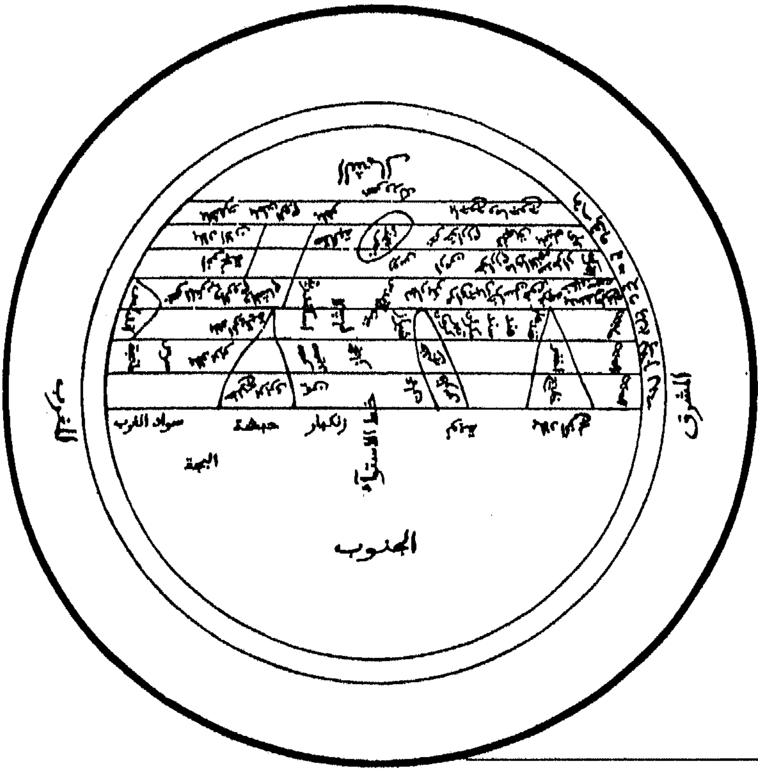
- A. Maalouf, **les Croisades vues par les Arabes,** Paris J.C. Lattès, 1983.

- J. Richard, **Saint Louis,** Paris, Fayard, 1985.

- J. Richard, **Saint Louis et son siècle,** Paris, Taillandier, 1985.

- E. Saïd, **L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident.** Paris, Ed. du Seuil, 1980.

- E. Sivan, **L'Islam et la Croisade, Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux croisades,** Paris, Maisonneuve, 1968.



مشـــارقـــة

مشارقة، هم العرب والمستعربـون المنتسبون إلى المشرق الإسلامي، مقابل المنتسبين إلى المغرب الإسلامي الذين يطلق عليهم اسم المغاربة [راجع هذه اللفظة في « دامــت »]. وليس يدخل في نيّتنـا هنا تنـاول تاريخ المشـارقة بـالمشرق، لأنّ مثل هذا العمـل داخل في صلب تاريخ تلـك المنطقة بأكملـه. وإنّما سوف يقتصر أهتمامنـا على المشارقـة الذين كـان المغاربـة يحسّون بأنـهّم يتميّزون بهذه الصفة داخل منطقة المغرب الإسلامي.وقد بدأ التمييز بين هذين المجموعتين الكبيرتين ـ مع شيء من الخصوصيّة التي تَتسمُ بها الأندلس ـ يظهر بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بأقّل من نصف القَرن، أي حوالي سنة 122هـ / 740 م.

وانّه من المتعذر أن نحـددّ بشكل مدقّق - ولو على سبيل التقـريب - عدد المشارقـة الذين جاؤوا في دفعـات متتاليـة وفي عهود تتراوح بين منتصف القرن الأوّل ومنتصف القرن الخامس هـ./ الربع الأخير من القرن السابع إلى منتصف القرن الحادي عشر م. فاستقرّوا بالمغرب الإسلامي، ولاسيّما بإفريقية حيث بلغ تمركـزهم أقصى كثافته و أطول مدّته. هـذا وبقدر ما كـان الوافـدون على البـلاد « يَتَمَغْربـون — أي منذ الجيـل الثاني — فإن الإحساس بأنهـم مشارقـة كـــان يزول شيئا فشيئا. وقـــد كانت الدفعـــات الأولى من المشارقـة إلى حدود الرّبع الأخير من القـرن الثاني هـ/ أوائل القرن التـاسع م . تتكوّن من حضر أسّسوا المدن أو نـزلوا بما وجدوه منها قائما. ويمكن أن نقـدّر أنّ عددهم لم يتجاوز ربع مليون من الأشخـاص بين مجاهـدين في سبيل اللّـه تصحبهم نسـاؤهم و أولادهم ، وبين رجـال دواوين ورجـال دين وتجّار وبـاعـة وغير ذلك من أصنـاف الناس الـذين تستهويهم الأربـاح والمغانم التي يمكن أن يتيحهـا مثل هذا البلد الجديد (انظر محمد الطالبي، **الإمارة الأغلبية**، باريس، 1966، ص 21-22 ، و**الموسوعة الإسلاميــة**، ج I، ص 549عنـــد لفظة **العـرب**)، وقد شكّلت المدن التي نزلوابهـا، فــي آن واحـد، مـراكز دينيـة لنشر الإسلام ومراكز ثقافيـة لـمَشْرَقـة المغـرب، ويبدو أن عددا من صحابة الرسول عليه السلام ماتوا بالمغرب (راجـــع أبـو العـــرب، **الطبقـات** نشر ابن شنب، باريس، 1915، ص 16 - 18 ، والمالكـي، **رياض النفوس**، نشر ب. البكـوش وم . ع . المطـــوي، بيروت، 1981ج I ص 60 -98 ، حيث يحيـل الناشران في حواشيهما على سـائر المصادر بصورة شاملة تقـريبا)، وقد احتفظت بعض المدن إلى اليـوم بذكراهم في شكـل مآثر خـالدة تتجسّم في أضرحـة ومقامــــات مبنـــيّـــة، من ذلك مثـلا الضريح الموجـود بالقيـروان والمنسوب الـى أبي زمعة البلوي، وقـد أقيم حوله مَعْـلَـم دينـي يسمّى (زاوية سيدي الصّاحب) ويحظى بشهرة خاصّة (انظر ب. روا. وب. بوانصو B.ROY etP. POINSSOT، **النقائش العربية بالقيروان** ، باريس ، 1950، ج II / 1. 65 - 76) . على أن المصادر تولـي مكانـــة ممتازة للتابعـين العشرة الذين أوفدهـم الخليفـــة عمـــر بن عبد العزيز (99-101 هـ / 717- 720 م) إلى إفريقيـة لنشـر الإســـلام ببـلاد المغرب (المالكي، **رياض النفوس** ، ج I ، ص 99- 118 مع الإحالـة على المصادر

الأخرى). والجدير بالملاحظة أنه لم يكن يوجد بين هؤلاء المشارقة أيّ عَلَمَ يُشهد له بالتقدّم .
أمّا من الجانب السياسي فإنّ أهمّ الأسرالمالكة المشرقية التي حكمت بالمغرب الإسلامي كانت دولة الأغالبة بالقيروان ودولة الأدارسة بفاس ودولة الأمويّين بقرطبة ودولة الفاطميّين الذين أسسوا المهديّة على الساحل التونسي .

وآخر المشارقة الذين دخلوا بلاد المغرب ثم الأندلس في جماعات كثيفة (بضعة مئات الآلاف) هم البدو من قبائل بني هلال الذين انتصروا سنة 443هـ / 1052م. بحيدران ، ثمّ تبعهم بعد ذلك بنوسليم. وبخصوص مدى « الكارثة » الهلالية فإنّ الآراء تختلف كثيرا (راجع محمد الطالبي، القانون والاقتصاد في إفريقية ... ضمن **دراسات في تاريخ إفريقية ...** تونس، 1982 ، ص 205 ، التعليق رقم4 ، ترجمة انكليزية ضمن **الشرق الأوسط الإسلامي** نشر أ، ل ، أودوفيتش A.L. Udovitch ، برنستن، 1981، ص 272- 273 والتعليق رقم77). هذا ولم يتمّ اعتبار بني هلال وبني سليم في المغرب الإسلامي كمشارقة بأتمّ معنى الكلمة ، فهذه التسمية ـ مثل تسمية عراقي أو كوفي في غالب الأحيان بالمغرب الإسلامي ـ كانت لا تعني دائما وبالضرورة الانتماء الترابي إلى رقعة اجتماعية ثقافية محدّدة، بل والانتساب كذلك إلى مدرسة دينية. فقد كان الشيعة بالخصوص منذ قيام الدولة الفاطمية غالبا ما يسمّون بالمشارقة ولو كانوا من المغاربة الخُلّص. فقد كان ابن غازي مثلا رجلا من أتقياء أهل السنة بالقيروان ومن المقبلين على المرابطة. فلما دخل عبيْدالله القيروان « تشرّق » ابن غازي، أي أنه اعتنق مذهب الشيعة. (انظر محمد الطالبي، **تراجم أغلبية**، تونس، 1968،ص 284). وهذا رجل آخر« مشرقيّ » خرج عن الإسلام (انظر المالكي، **رياض النفوس**، ج II، ص 502) ليعتنق نحلة الشيعة. وهذا مجلس بالقيروان كان يضمّ جماعة من « أهل السّنة ومن المشارقة » (المالكي، **رياض النفوس**، جII، ص 338) أي من الشيعة. وهناك أمثلة أخرى في **رياض النفوس** للمالكي، ج II، ص 425- 427. وفي **تراجم أغلبية** لمحمد الطالبي، ص 369، 383، 394.

أما كلمة عراقي (أو أهل العراق) وكلمة كوفي فقد كانتا تطلقان على أتباع المذهب الحنفي من أهل إفريقية (راجع **رياض النفوس**للمالكي ج I،

ص 118، 256، 263، 264، 266، 277، 374، 375، 451، 452، 463، 500، و ج II ، ص 29، 73، 207، 339، **وتراجـم أغـلـبـيـــة** لمحمـد الطالبي، عند كلمة **عراقـيّون** في الفهارس). وقد كان هؤلاء الحنفية- على نقيض المالكية الذين كانوا بمثابة سنـان الرّمح في حـركـة المقاومـة ضدّ الفـاطميّين ــ أكثر تقبّـلا للدعـوة الشيعيـة، ممّـا قـد يفسرّ جزئيـا اختفـاءهم من السـاحـة الإفـريقيـة مع استئصـال المذهب الشيعي نهائيا، بعـد أن كـانوا يشكّلـون فيهـا أكثريّـة السكّان (راجع محمد الطالبي، **الإمارة الأغلبية** ، ص 233) .

وقد قام المشارقة بدور حـاسم بالمغرب الإسلامي على الصعيد ين الديني والثقافي. هذا ومن الثابت أننا لم نر أيّ واحدمن أعلام المشارقة قد تجاوز حدود أرض النيل. فقد كـانت بلاد المغرب بمثابـة المغترب الذي لا يقصده بحثا عن الرزق والثراء سوى شخصيات من الطراز الثاني نسبيّا، على أنّ هذا لايعني أنّ دور هـؤلاء الرجال كـان أنقص قيمة أو أقلّ أثرا. ولنـذكر على سبيل المثال أن القاضي عياضا قـد كـــان من شيوخـه رجلان من المشارقـة زارا سبتة وهما أبو الحسن الربعـي المقدسي (المتوفّ بالنـاصرية سنة 531 هـ/ 1137 م؛ عيـاض، **الغـنْـية**، رقم 81) والشـافعي سهل بن عثمان النيسابوري (المصدر السابق، رقم 89 ؛ المقري، **نفـح الطيب**، ط. بيروت ، 1968، ج III، ص67). ولا يمكننا هنا طبعا أن نقوم بإحصاء شامل لجميعهم ، على أن مثل هذا الكشف الذي لا نملكه إلى حدّ الآن يمكن لو تمّ تحقيقه أن يكـون موحيا بكثيرمن الأفكـار الجديدة وفـاتحا بعض المسالك والسبل أمام البحث .

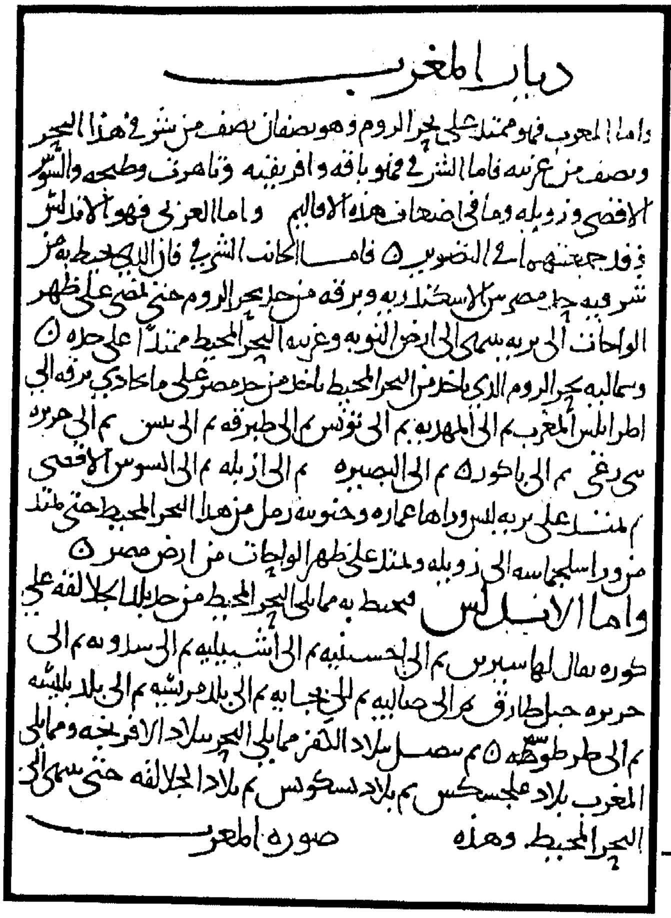
هذا ولم تحتفظ لنـا المصادر المتوفرة اليـوم لدينا بكل المعلومـات بصورة شاملـــــة. فهذا المقـري يؤكّـد ـ بعـد أن خصّص 86 ترجمة شخصيـة للمشارقة الذين أقاموا بالأندلس (انظر **نفح الطيب** ج ، III، ص 5- 149) - أنّه لا سبيــل إلــــى حصرهـــم جميعـــا حتى لو اقتصر الأمر على أشهرهـــــم. (**نفـح الطيب**، ج III، ص 5). أمّا ابن بشكوال فـإنه يقدّم لنـا من جهته أسماء خمسين من المشـارقة المستقـرين بالأنـدلس (راجع كتاب **الصّلة** حيث تجدهم مرتّبين حسب ترتيب حـروف الهجاء تقريبا في نهاية كل قسم من الكتاب ضمن باب « ومن الغرباء ») .

ومـــن أكبرهـــم شأنـــا ثلاثـــــة وجـوه هم أحســـــن مثـــــال على الـــــدور الممتاز الـــذي قـام بــــه المشـارقة فـي

المغرب الإسلامي، إثنان منهم من رجال الأدب واللغة، والثالث من أهل الغناء والموسيقى. فأبو علي القالي (288 ـ 356 هـ / 901 - 967 م.) قدم قرطبة سنة 330 هـ / 942 م، وحظي فيها باستقبال مشهود (انظر المقّري، **نفح الطيب**، ج III ، ص 71- 72). وقد اعتمد على ما استمدّه من مكتبته الثريّة جدًّا ومن ذاكرته كذلك ليضمن لثقافة المشرق أوسع الانتشار. وهو يحتلّ بذلك « منزلة رئيسية في إشاعة التقاليد الأدبية العراقية بالمغرب الإسلامي» (انظر **الموسوعة الإسلامية**. الطبعة الثانية ج IV، ص 523). أمّا شخصية سعيد البغدادي (المتوفّ سنة 417 هـ / 1026 م؟ فهي لامحالة أكثر تمثيلا لهذه الظاهرة وأشدّ طرافة (انظر بلاشير، **رائد للثقافة العربية المشرقية بالأندلس في القرن العاشر : سعيد البغدادي**، في مجلة أنالكتا، دمشق ، 1975 ص 443 - 465). وهي شخصية «فنّان متسكّع ظريف الأطوار » (المصدر المذكور، ص 445) تساعده ذلاقة لسانه على التألّق بين أهل البلاط. وبحكم اضطراره إلى « التخليّ عن بلوغ الشهرة في العراق » فقد قصد قرطبة حيث كان «بمثابة أنموذج الرائد والداعية للثقافة الأدبية المشرقية بالأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر» (المرجع المذكور ،ص 465). أمّا زرياب، فقد كان مغنيًا أسود بدأ حياته المهنيّة في محيط البلاط العباسي ببغداد حيث أثار من حفيظة حسّاده ما أرغمه على اليأس من بلوغ بعض السّطوة بالعراق ، ودخول قرطبة سنة 207 هـ / 822 م ـ بعد إقامة قصيرة بالقيروان ـ بحثا عن الثراء والحظوة. وقد كان له هناك أثر عظيم لم يقف عند حدّ الغناء والموسيقى. فقد ذكر الأستاذ أ.ليفي بروفنصال انّ : « أهل البلاط وكامل سكان المدينة قد غيّروا ملبسهم وأثاثهم وأطعمتهم عملا برأي زرياب الذي كان لا ينازع » (راجع أ.ليفي بروفنصال، **تاريخ الأندلس**، باريس، 1950، ج I، ص 272) .

المراجع

لا توجد مجموعة مراجع خاصة بهذه المسألة، فبالإضافة إلى المراجع التي أشير إليها في صلب هذا البحث، يمكن الظفر ببعض المعلومات في المؤلفات التاريخية وفي طوايا كتب الأدب وكتب الطبقات على وجه الخصوص .


ديار المغرب

واما المغرب فهو ممتد على بحر الروم وهو نصفان نصف من شرقي هذا البحر
ونصف من غربيه فاما الشرقي فهو برقه وافريقيه وتاهرت وطنجه والسوس
الاقصى وزويله وما في اضعاف هذه الاقاليم واما الغربي فهو الاندلس
وقد جمعتهما في التصوير ٥ فاما الجانب الشرقي فان الذي يحيط به من
شرقيه حد مصر من الاسكندريه وبرقه من حد بحر الروم حتى تمضي على ظهر
الواحات الى بريه تنتهي الى ارض النوبه وغربيه البحر المحيط ممتدا على حده ٥
وشماليه بحر الروم الذي ياخذ من البحر المحيط فاخذ من حد مصر على ما يحاذي برقه الى
اطرابلس المغرب ثم الى المهديه ثم الى تونس ثم الى طبرقه ثم الى تنس ثم الى جزيره
بني زغناي ثم الى باكوره ثم الى البصيره ثم الى ازيله ثم الى السوس الاقصى
ثم يمتد على بريه السودان لا عماره وخلفه رمل من هذا البحر المحيط حتى يمتد
من وراء سجلماسه الى زويله ويمتد على ظهر الواحات من ارض مصر ٥
واما الاندلس فيحيط به مما يلي البحر المحيط من حد بلاد الجلالقه على
كوره يقال لها شنترين ثم الى الحسنيه ثم الى اشبيليه ثم الى الساوبه ثم الى
جزيره جبل طارق ثم الى مالقه ثم الى المريه ثم الى بلد مرسيه ثم الى بلد بلنسيه
ثم الى طرطوشه ٥ ثم يتصل ببلاد الكفر مما يلي البحر ببلاد الافرنجه ومما يلي
المغرب بلاد جليقيه ثم بلاد بشكونس ثم بلاد الجلالقه حتى ينتهي الى
البحر المحيط وهذه صوره المغرب

مـغـاربـة

مغاربة اسم جمع مشتقّ، يعني الناطقين بالعربية في المغرب الإسلامي (مغرب، جمعه مغارب)، بالمقابلة مع الناطقين بالعربيّة في المشرق ـ (مشرق جمعه مشارق) ويدعون مشارقة. ويمكن تبينّ هذا التوزيع للناطقين بالعربية بين مشارقة ومغاربة ـ ويمكن تتبع ذلك حتى في اللّهجات الحالية الموزّعة بين مشرقية ومغربية ـ منذ الأصول. فالحدّ بين المجموعتين الكبيرتين ـ وتدخل ضمن ذلك إسبانيا المسلمة، رغم خصوصيتها المتفرّدة، ومصيرها المختلف ـ يقع دائما شرقي طرابلس، على مستوى لِبْدة، ويتأتى من هنا الوضع الخاص بليبيا، المقسّمة باستمرار بين انتماءاتها المغربية والمشرقية .

وقد « تمغرب » العرب المستقرّون في أرضهم بالمغرب بسرعة كبيرة أو

أصبحوا إسبانيّين بصفة كافية ليظهروا في مظهر المختلفين بالقياس إلى إخوتهم في الجنس الباقين بالمشرق. ونستخرج ذلك من علامات عديدة متوافقة. فمنذ منتصف القرن الثاني هـ / الثامن م، وعت الجالية العربيّة المتجذّرة في ولاية القيروان (أهل إفريقية) بخصوصيتها المحلية (انظر م. الطالبي، **المغرب من الفتح إلى أواخر الربع الأول من القرن الثاني وبذور الشعور بقوميات محلية**، في العدد 4 من سلسلة الدراسات الاجتماعية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية CERES، تونس 1979 ، 207 - 230) بالمواجهة العنيفة التي أبدوها، زمن الانفجار الخارجي الكبير سنة 122 هـ / 740 م. ، تجاه الإخوة القادمين من المشرق لإنجادها، وفي الحقيقة، دون التخلّي عن ضمّها في نفس الاحتقار المخصص حتى ذلك الوقت للبربر وحدهم. ونلاحظ، بالمثل، تطوّرا شبيها، بالمواجهة بين العرب البلديّين، و « الغرباء » من الموجات اللاّحقة، في إسبانيا المسلمة، رغم أنها محيت بطول الوقت (انظر أ. ليفي بروفنسال «E.Lévi Provençal»، **تاريخ إسبانيا المسلمة** Histoire de l'Espagne musulmane ، باريس، 1950 ، I، 44 - 53 ، 83 ، 110 ، 345). وفي المشرق، مثل المغربي (جمع مغاربة) القريب الفقير، ورد الفعل القديم الوسيط هذا شديد اللّصوق حتى أنه يواصل، في عصرنا بفويرقات ودرجات مختلفة، اشباع العلاقات بين المشرق والمغرب في جميع المستويات، بما في ذلك مستوى الموسيقى. فالمغرب يعجب دائما ـ مهما كان التطور الجاري ـ بالمشرق ويستورد منه، أكثر بكثير مما يصدر إليه، حاجات الاستهلاك الثقافي : الكتب والأفلام والأسطوانات .

ويتعلق الأمر بظاهرة قديمة جدّا تستحق التحليل والتفسير، ولم تخصّص لها أية دراسة جملية إلى الآن. وهذه بعض الأمثلة التي تعود إلى القرنين الأولين من العهد الإسلامي : كان أبو محمد بن عمران التجيبي (المتوفى 125 أو 127 هـ / 743 أو 745 م) ، المستقر بتونس، يعيش بشعور حقيقي بأنه منفي في هذا الربع الكنود « وهو المغرب» (م.الطالبي، **الإمارة الأغلبية** «L'Emirat Aghlabide»، باريس، 1966، 43)، وقد أُهين التونسي ابن فروخ وكان يتابع بالعراق دروس أبي حنيفة (80 - 150 هـ / 700 - 768 م) لمغربيّته (نفسه المرجع، 20)، وقد قبل أسد بن الفرات (المتوفى 212 هـ / 827 م) [انظر الفصل المخصّص له في « دامت »] والذي أصبح من أشهر شيوخ القيروان، في دروس مالك (المتوفى

179 هـ / 796 م) ضمن حلقة المصريّين لأنه كان أذكى من أن يبقى ضمن مجموعة المغاربة (نفسه، 20)، الخ. وهكذا كان المغرب معقدا بوضوح تجاه المشرق، مما جعل ابن بسّام (المتوفى 542 هـ / 1147م) يقول مستنكرا : « إن أهل هذا الأفق، أبوا إلاّ متابعة أهل الشرق ... حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما » (**الذخيرة**، ط. القاهرة ، 1358هـ / 1931م ، I / 1 ، 2) .

وهذا ما يفسرّ لـمَ استقرّ التيار الغالب لتنقل النخب خاصة في اتجاه المغرب ـ المشرق. وعلى سبيل المثال، نقول إن المقري (المتوفى 1041 هـ / 1641 م) يثبت قائمة تحوي 307 اسما للأندلسيّين الذين زاروا المشرق (**نفح**، ط. إحسان عباس، بيروت، 1968 ، II، 5ـ 704) مقابل 148 مشرقيّا قاموا بالرحلة المضادة (نفس المصدر، III، 5ـ 149). والحدث المعبر أكثر، هو أن أي شاعر كبير من دمشق أو بغداد أو القاهرة، وباختصار أي شاعر لم يرهق مطيّته على طريق المغرب. وكانت الرحلة، وهي الجمع بين الحج والدّراسة، وبالمناسبة أيضا، التجارة، تتمّ، لأسباب ثقافية ودينية بديهية، لصالح المشرق. ويعود المسافر غالبا إلى بلاده مسلّحا بالعلم والشهرة .

لكن يقع أيضا في كثير من الأحيان أن يستقرّ المسافر نهائيا في المشرق. وهكذا أمكن لجاليات مغربية أن تتكوّن في كبرى العواصم المشرقية التي تتركّز على طرقات الحجّ، وخاصة في الإسكندرية، والقاهرة وقوص، ودمشق، والمدينة، ومكّة، وبسبب انعدام دراسة جمليّة شاملة، فإن تاريخها مازال بالنسبة إلينا متقطّعا ناقص الوضوح. إلاّ أنّه يمكننا أن نعتبر أنه إذا كان من الحاصل أن الحضور المغربي كان فعليا، وفي بعض الأحيان، كثيفا بالمشرق، فإنّه لم يؤدّ على الإطلاق في التاريخ والمجتمع دور الفرس أو الأتراك. فلا توجد أية شعوبية مغربية خاصة، أو أيّ تأثير في المؤسسات أو أسلوب الحياة .

وكانت النساء البربريات معتبرات في البلاطات الأمويّة والعباسيّة. وكان هشام ابن عبد الملك (105 - 125 هـ / 724 - 743 م) يطلبهنّ من واليه على المغرب (م.الطالبي، المرجع المذكور أعلاه، 33)، وقد تزوّج أبو جعفر المنصور (136- 158هـ / 754 - 775م)، وهو بنفسه ابن بربرية تدعى سلامة، قيروانيّة تدعى أم موسى، وهي أم الخليفة المقبل محمد المهدي (158- 168هـ / 775ـ 785 م)، وأنجبت راح، أصيلة قبيلة نفزة البربرية، عبد الرحمن الداخل (138- 172هـ 756/- 788 م)، مؤسّس الدولة الأموية بإسبانيا، وقاتول المعتضد

(279 – 289 هـ/ 892 – 902 م)، وقراطيس القاهر (320 – 322 هـ/ 932 – 934 م.)
(م.الطالبي، المرجع المذكور أعلاه، 42 – 43).

وكان دور المغاربة، في جيوش الخلفاء الأمويّين والعباسيّين، من غير أن تكون له أبدا أهمية دور الخراسانيّين أو التّرك، بعيدا عن أن يهمل. وكان وزن البربر، بقيادة طارق بن زياد، حاسما في غزو إسبانيا. وشارك جيش إفريقية، سنة 98 هـ / 717 م، بقيادة المغيرة بن أبي بردة القرشي، في الهجوم الكبير، الذي أسفر في نهاية الأمر عن الفشل، ضد القسطنطينيّة (أبو العرب، **طبقات**، تحـ. ابن شنب، باريس، 1915، 22، ابن عذاري، **البيان**، تحـ.ج. س. كولان G.S Colin وأ. ليفي بروفنسال E.Lévi. Provençal، ليدن Leyde، 1948، I، 49). وفي بغداد، بدأ المغاربة يقومون، بداية من عهد حكم المتوكّل (232 – 247 هـ / 847 – 861 م)، وفي نطاق الجيش، وبإمرة قواد من صفوفهم، بدور معتبر. وقد تحصّلوا على نفس رواتب الترك (الطبري، **تاريخ**، تحـ. أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1968، 155)، ونصبوا، مع هؤلاء، المستعين (248 – 252 هـ / 862 – 866م) خلفا للمنتصر (247 – 248 هـ/ 861 – 862م)، (الطبري، المصدر المذكور أعلاه، 256)، ثم تخلّوا عنه، وبايعوا، دائما إلى جانب الترك الذين قاموا بدور المحرّك، المعتزّ (الطبري، 287)، وساهموا بصفة نشيطة في الحرب الأهلية المندلعة بين 251 هـ / 865 م و252 هـ / 866 م (الطبري، 290، 295، 304 – 339)، وساهموا سنة 255 هـ / 869 م، في خلع المعتز واغتياله، عندما عجز عن الوفاء برواتبهم ورواتب الترك (الطبري، 389)، وبداية من ذلك الحين، لم يعودوا يشغلون مقدمة الركح. وينبغي أن ننتظر إثر ذلك الفاطميّين لنرى المغاربة يدخلون بكثافة المشرق. فقد انتصر الفاطميّون بفضل بربر كتامة [انظر الفصل المخصص لهم في« دامت »]. وقد تبعهم هؤلاء إلى القاهرة ودمشق، وكانوا رأس الحربة لجيشهم ودعايتهم الإسماعيلية. وشركهم جوهر الصقليّ، غازي مصر، في جميع مستويات السلطة. « وفي كافة الخطط، أولى جوهر مغربيّا مع من يشغلها » كما ذكر المقريزي (**اتعاظ**، 78). وبين 361/ 972م و363هـ / 974م، كانت كتامة منطلق عدة فتن بالقاهرة. وفي سنة 386 هـ / 996 م، فرضت رئيسها ابن عمار على الخليفة الحاكم (386 – 411 هـ/ 996 – 1020م). وسبب حضور المغاربة، بدمشق، اضطرابات أيضا. واندلعت أخطر فتنة واجهوا فيها الأهالي، سنة 461 هـ / 1069 م، ولحقت بالمدينة والجامع الكبير أضرار هامة.

ولم يكتف العديد من ممثلي النخبة المغربيّة بزيارة المشرق، إذ استقرّوا فيه. ولا يمكن بالطبع أن نثبت هنا قائمة شاملة لهم. ولنذكر، على سبيل المثال، من بين أشهرهم : الطرطوشي، المولود بطرطوشة سنة 451 هـ / 1059 م، والمتوفى بمصر حوالي 525 هـ / 1131 م حيث كان له تأثير كبير بصفته فقيها وزاهدا، وابن جُبَير، مؤلّف **الرحلة** الشهير، المولود ببلنسية سنة 540 هـ / 1145 م، والمتوفى بالإسكندرية سنة 614 هـ / 1217 م، حيث جمع حوله حلقة لدراسة السنة والتصوف، ومحيي الدين بن العربي (560 – 638 هـ / 1165 – 1240 م)، أشهر الصوفيّين وأكثرهم عرضة للنقد، المولود بمرسية والمدفون بدمشق في تربة أسرة ابن الزكي التي حضنته، وهي أسرة شهيرة جدّا، والمؤرخ عبد الواحد المرّاكشي، المولود بمراكش سنة 581 هـ / 1185 م، والذي قصد المشرق سنة 613 هـ / 1216 م. وتوفي به بعد سنة 621 هـ / 1224 م. إثر إقامته على التوالي بمصر، وبغداد، والحجاز، ودمشق، وابن مرزوق (حوالي 710 – 781 هـ / 1310 – 1379 م) ، المولود بتلمسان ، والذي سافر إلى القاهرة سنة 771 هـ / 1370 م حيث تمتع بتقدير كبير وكان قاضيا وواعظا ومدرسا، وابن خلدون، المولود بتونس سنة 732 هـ / 1332م. والذي استقرّ نهائيا بالقاهرة (784 – 808 هـ / 1382 – 1406 م) دون أن يخلّ أبدا عن برنسه المغربي، والمقّري، المولود بتلمسان سنة 986 هـ / 1578 م، والذي ارتحل إلى المشرق سنة 1027هـ / 1618م. حيث ألّف بطلب من طلابه الدمشقيّين كتابه البالغ الشهرة **نفح الطيّب**، وقد توفي بالقاهرة سنة 1041 هـ / 1641 م.

ومن بين المعاصرين ، نشير إلى بيرم التونسي (1840 – 1889)، مؤلّف **صفوة الاعتبار**، الذي استقرّ بالقاهرة، والأمير عبد القادر (1807 – 1883) الذي اختار، بعد إطلاق سراحه ومنحه جراية من السلط الفرنسية، دمشق مقرا لإقامته سنة 1855 حيث قام بدور معتدل معتبر ،وعبد القادر الورديغي المغربي (المتوفى 1895) الذي كان من أشهر شيوخ الأزهر، وعبد القادر الجزائري (1887 – 1945)، من أشهر أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق .

ولنذكر أخيرا بأن أحد مؤسّسي النّحل ـ نحلة البرغواطة ـ يونس بن إلياس بن طريف (227 – 271 هـ / 842 – 884 م)، بحث عن الإلهام في المشرق (م.الطالبي، **الكفر، وتلاشي الثقافة والوطنية لدى البربر البرغواطة)** «Hérésie, acculturation et nationalisme des Berbères Barghawàta»، في أعمال المؤتمر الأول لدراسات الثقافات المتوسطية ذات التأثر العربي البربري «Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence arabo-

«berbère، الجزائر، 1973، 217- 233)، وأن مؤسس مدرسة ودولة، وهو ابن تومرت (حوالي 471- 524هـ / 1078- 1130م)، قد جمع بالمشرق عناصر المذهب الذي نشأت عنه الحركة الموحديّة .

ولم يكن حضور المغاربة بالمشرق حضور الشخصيّات الشهيرة فقط، لكنّه كان أيضا حضورا أكثر كثافة لجاليات التجّار، والطلبة، والمهاجرين المختلفين. وإن معلوماتنا حول هذه الجاليات قليلة جدّا، عدا جالية اليهود الأفارقة المستقرّين بالقاهرة بين القرنين الخامس هـ / الحادي عشر م والسابع هـ / الثالث عشر م، وقد أصبحت اليوم مألوفة لدينا نسبيا بفضل **وثائق الجنيزة** Geniza التي قام بتحقيقها س. د. غويتين S.D.Goitein (**مجتمع متوسطي** A. Mediterranean society ، I، بركلي ـ لوس انجلس 1967، II، بركلي ـ لوس أنجلس ـ لندن، 1971، III، بركلي ـ لوس أنجلس 1978، **ورسائل تجّار يهود من العصر الوسيط** Letters of Medieval jewish traders، برنستون Princeton ، 1974) . وتكشف لنا هذه الوثائق عالما محكم التنظيم، كامل الهيكلة، مزوّدا بوسائل ناجعة للاتصال وتحويل النقود، وجميع ذلك في خدمة نشاط تجاري هام لا يغطّي فقط حوض المتوسط، بل يمتد أيضا إلى المحيط الهندي. وتأتي الدراسة الحديثة التي قام بها جـ. س. غارسان J.C.Garcin من جهة أخرى فتؤكد الدّور الحاسم الذي أدّاه المغاربة في إعادة إقرار السنّة بمصر ودعمها بعد سقوط الفاطميّين. فقد استقرّوا بأعداد كبيرة بقونة، على طريق الحجّ وعلى مسيرة يوم شمالي قوص. « وتدين المدينة بجانب كبير من ازدهارها الجديد للشهرة التي حصلت عليها لأنّ بعض الصالحين، وهم مغاربة عامة، استقرّوا بها، وتوفّوا، ودُفنوا بمقبرتها التي غدت محجّا. وهؤلاء الزهّاد والمتصوّفون يتميّزون بسنّيتهم، وبواسطتهم أكثر مما تمّ عبر التأثير المباشر لحلقات الإسكندرية أو القاهرة، انتشر « الإصلاح المضاد السنّي في الشعب » (**مركز إسلامي ... قوص** «Un centre musul-man ... Qûs» ، القاهرة ، 1976 ، 161) . وهذا المثال ليس فريدا. إذ يلاحظ ل. بوزي L. Pouzet ، في مقال جيّد التوثيق (**المغاربة بدمشق في القرن السابع هـ / الثالث عشر**. «Maghrébins à Damas au VIIè / XIIIè Siècle» ، في نشرة الدّراسات الشرقية XXVIII B.E.O (1977)، 167ـ 199، كيف أن المغاربة، المستقرّين بأعداد كبيرة بسورية « عرفوا الاستفادة من الظروف قليلة الملاءمة لهم نسبيا (النفي والهجرة الجبريّين جزئيا، صعوبات شخصية في المجال المذهبي أو غيره، اضطراب سياسي وانقلابات في موطن منفاهم نفسه، الخ.) فاتخذوا مكانة، من المستوى الأول بالنسبة إلى بعضهم، ومشرّفة جدّا للجالية المغربية « بدمشق إذا نظر إليها كلا » (192). ويتبينّ لنا حضور

المغاربة بالقاهرة، في القرن الثامن عشر، أكثر كثافة و أكثر تنوّعا : من طلاّب بالأزهر يتوفّر لهم رواق خاص بهم ، ويكوّنون فريق ضغط يمكنه أن يكون مخيفا في بعض المناسبات، وتجار يحتكرون التجارة في بعض المنتجات مثل الزيت أو الطرابيش، الخ (أ.ريمون A.Raymond، **الصنّاع والتجّار بالقاهرة في القرن الثامن عشر** «Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIè siècle»، دمشق، 1974، I 171 191 201، II، 52، 419، 452، 470 ـــ 476، 507، 518). ويقدر عددهم ب 15 أو 20 ألف شخص مستقرّين شديد الاستقرار في أحياء معيّنة، مثل حيّ مسجد ابن طولون. وقد اصطدم نابليون Napoléon ، لما دخل مصر، بهم وفكّر، عندما عجز عن طردهم من القاهرة، في أن يستخدمهم وقرّر أن يجنّد « فرقة مغربية» تتألّف من « أوْغاد أشدّاء، قساة القلوب، كقائدهم » (أ. ريمون A.Raymond)، **التونسيّون والمغاربة بالقاهرة في القرن الثامن عشر** «Tunisiens et Maghrébins au Caire au dix-huitième siècle» ، في كراسات تونس «C. T.» 1959، العددان 26 - 27 ، 364 - 365) وكان ذلك عبثا، لأنّ المغاربة كانوا من الذين استجابوا بأكبر الحماس للنداء الموجّه من أجل المقاومة. وقد نتج عن استقرار الفرنسيّين في إفريقيا الشمالية حركة هجرة واسعة، تمتدّ على ثلاث مراحل أساسا : 1881 - 1889 ، 1890 - 1908 ، 1909 - 1914. وبصفة جملية استقرّ الجزائريّون بسورية، والتونسيّون بالقسطنطينية ومصر والبلاد الطرابلسيّة (ب . باردين P.Bardin **الجزائريّون والتونسيّون بالامبراطورية العثمانية** من 1848 إلى 1914 «Algériens et Tunisiens dans l'Empire Ottoman» ، باريس، 1978) .

وأخيرا يضرب لنا التاريخ الحالي بعض الأمثلة لتواصل الحضور المغربي بالمشرق. فقد زار الزعيم الوطني التونسي، الشيخ الثعالبي، مصر سنة 1898، والتقى بالعالم المصلح محمد عبده، وتأثّر به، وأدخل أفكاره إلى البلاد التونسية (نقولا أ. زيادة، **أصول الوطنية بالبلاد التونسية** «Origins of Nationalism in Tunisia» بيروت ، 1962 ، 97 وما بعدها). ثم، التحق الرئيس المقبل ح. بورقيبة، عند تأسيس الجامعة العربية، وكان آنذاك قائد الدستور الجديد، بالقاهرة بصفة سريّة في مارس 1945. و أنشأ بها، بمعية حزب الاستقلال المغربي، والحزب الشعبي الجزائري « مكتب المغرب العربي» سنة 1947، قبل أن يعود إلى تونس في 8 سبتمبر 1949 .

البيبليوغرافيا : عدا المراجع المذكورة في صلب الفصل، يمكن أن نلتقط معلومات في جميع المصادر ذات الطابع التاريخي أو الجغرافي، وخاصة في الرحلات وكتب الطبقات .

الألف (ا)

الحاء (ح)

الخاء (خ)

الدال (د)

القاف (ق)

الكاف (ك)

اللام (ل)

الميم (م)

* د . الطالبي (محمد) : راجع «دامت» الكراس 2 و 3
تكملة لـ«بيبليوغرافيا محمد الطالبي» المنشورة في كتاب « بحوث مهداة الى محمد الطالبي في عيد ميلاده السبعين»
منشورات كلية الآداب بمنوبة 1993. ص ص 163ـ181. . اعداد أحمد الحمروني

I- الكتب :

1ـ عيال الله، دار سيراس للنشر، 1992.

II- أبواب في كتب جماعية :

2ـ القاضي النعمان بن محمد بن حيّون مؤرخ ظهور الدعوة الفاطمية. ملتقى القاضي النعمان. تونس، 1977، ص87.85

3ـ الاوضاع التي مهّدت لقيام دولة الفاطميين في افريقية. ملتقى القاضي النعمان. . تونس، 1981، ص 29. 35.

4ـ نحن والغرب (اجوبة على أسئلة كلثوم السعفي)، تونس 1992، ص 113ـ135.

III- مقالات بالعربية أو مترجمة اليها وعرض كتب :

5ـ الفتاوي وقيمتها التاريخية. ـ مجلة الندوة، مارس 1954 ص 19ـ22.

6ـ «اليوسي» لجاك بارك (تقديم)، الفكر، ماي 1958 ص 78.

7ـ «الحوادث والبدع» للطرطوشي، الفكر، جوان 1958، ص 79ـ83.

8ـ ابن خلدون وسبيل النظر الحر. الفكر، جوان 1960، ص 37 ـ39.

9ـ نظرية ابن خلدون في سلطة الدولة. الفكر، مارس 1961. ص 34ـ38.

10ـ «مجلة معهد المخطوطات العربية»، مج6، الجزآن 1و2/ 1960 الفكر، ديسمبر 1961، ص 85 ـ 89.

11ـ لوي ماسينيون وتاريخ الاسلام. الفكر، جانفي 1963، ص 11ـ13.

12ـ مشكلة تحديد النسل في القديم. الفكر، اكتوبر 1963، ص 29ـ31.

13ـ ندوة الجامعة التونسية. الفكر، نوفمبر 1967، ص 29. 30. 59. 86. 87.

14ـ «افريقية» (ترجمة محمد العربي عبدالرزاق) ـ دائرة المعارف التونسية ـ «بيت الحكمة» الكراس 1991/2 ص 90. 98، (عن دائرة المعارف الاسلامية، ط2)

15ـ «الكاف»ـ دائرة المعارف ـ «بيت الحكمة» الكراس 1992/3 ص 81. 86، (عن دائرة المعارف الاسلامية، ط2)

** عبد الرزاق محمد العربي، من مواليد سنة 1936 بتونس. تخرّج من دار المعلمين العليا بتونس (الفوج الأول، سنة 1959)، ثم أحرز على التبريز من جامعة باريس، ودرّس بالتعليم الثانوي ثمّ العالي. ساهم بمقالاته ومترجماته ومحاضراته في الحركة الأدبية والفكرية الحديثة بتونس.

*** كاهـن (كلـود) Claude Cahen (1909ـ1991)
أستاذ مختص في تاريخ العالم الإسلامي في العصر الوسيط، صدر له : الشعوب الإسلامية في التاريخ القروسطي (Les peuples musulmans dans l'Histoire médiévale)
منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، 1977 (مجموعة مقالات) و «سوريا الشمالية في عهد الحروب الصليبية والإمارة الفرنكية بأنطاكية»، باريس، 1940. ساهم في «دائرة المعارف الإسلامية» بمقالات متعددة.

**** أ . المرزوقي (رياض) راجع «دامت» الكراس 1 و 2

- صحن من الخزف الأغلبي بالقيروان - القرن الثالث هـ - متحف القيروان.
[صفحة 14]

- «قائمة انساب الدولة الأغلبية» كما وردت في كتاب «الدولة الأغلبية - التاريخ السياسي -» تأليف أ. د. محمد الطالبي - نقله الى العربية د. المنجي الصيادي - نشر : دار الغرب الإسلامي - ط 1/ 1985، [ص. ص. 17-18-19-20].

- صحن من رَقّادة قرب القيروان من الطراز الأغلبي - متحف القيروان.
[صفحة 21]

- ابن خلدون كما نحته الفنان التشكيلي التونسي الزبير التركي - تصوير رضا الزيلي - [صفحة 24].

- الورقة 8 / ظ من المخطوط المنسوب الى ابن الرّقيق. (المرجع : كتاب «قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب» لابن الرّقيق - تحقيق : د. عبدالله العلي الزيدان ود. عزالدين عمر موسى - نشر : دار الغرب الإسلامي - ط 1990/1،
[صفحة 44].

- الصفحة 14 من كتاب «رحلة التجاني» - قدّم لها حسن حسني عبدالوهاب - نشر : الدار العربية للكتاب - طبعة سنة 1981، [صفحة 46].

- الصفحة 72من كتاب «فتوح إفريقية والأندلس» للمؤرخ ابن عبد الحكم، تحقيق وتقديم : ألبار قاتو - Albert Gateau - طبعة الجزائر - سنة 1942. [صفحة 51].

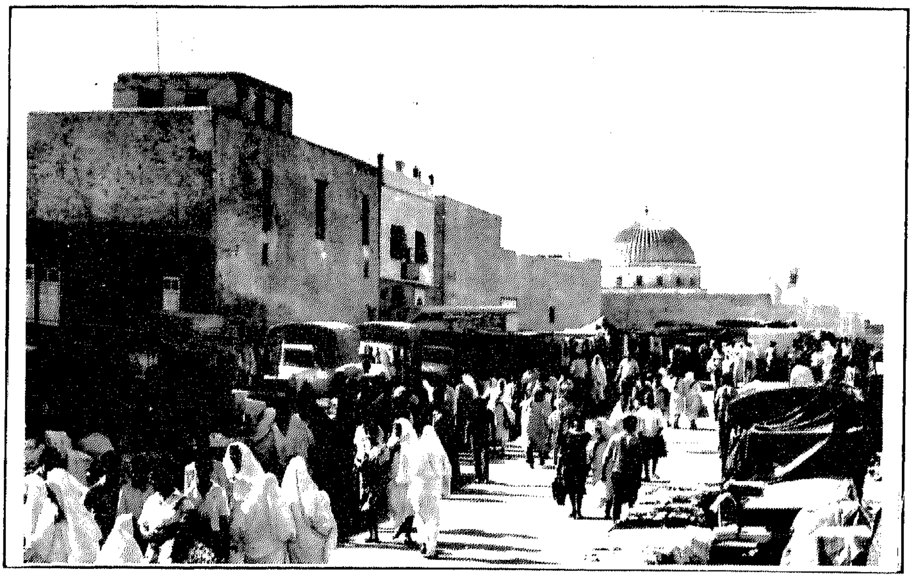
- غلاف الجزء الرابع من كتاب «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان»[صفحة 54]

- الصفحة 74 من كتاب «فتوح إفريقية والأندلس» لابن عبد الحكم. المرجع المذكور - [صفحة 56].

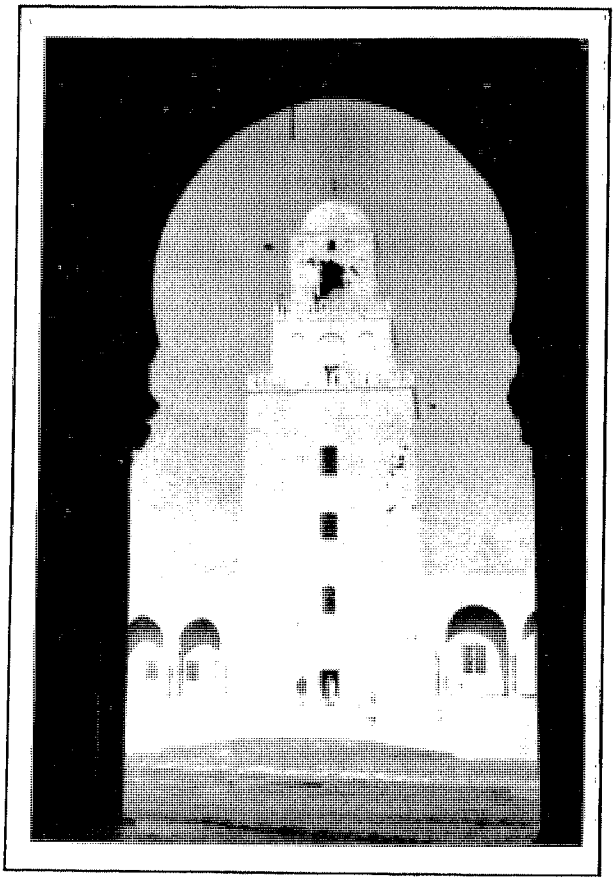
- الصفحة 66 من كتاب «فتوح إفريقية والأندلس» - المرجع السابق المذكور
[صفحة 62].

- ورقة من مصحف على الرق، كتبه بالخط الريحاني الخطاط القيرواني الشهير علي بن احمد الورّاق سنة 410هـ لفاطمة حاضنة الأمير باديس بن المنصور الصنهاجي (سورة الحجر - الآية 98و99) - تصوير «مصلحة التصوير بوزارة الثقافة - [صفحة 66].

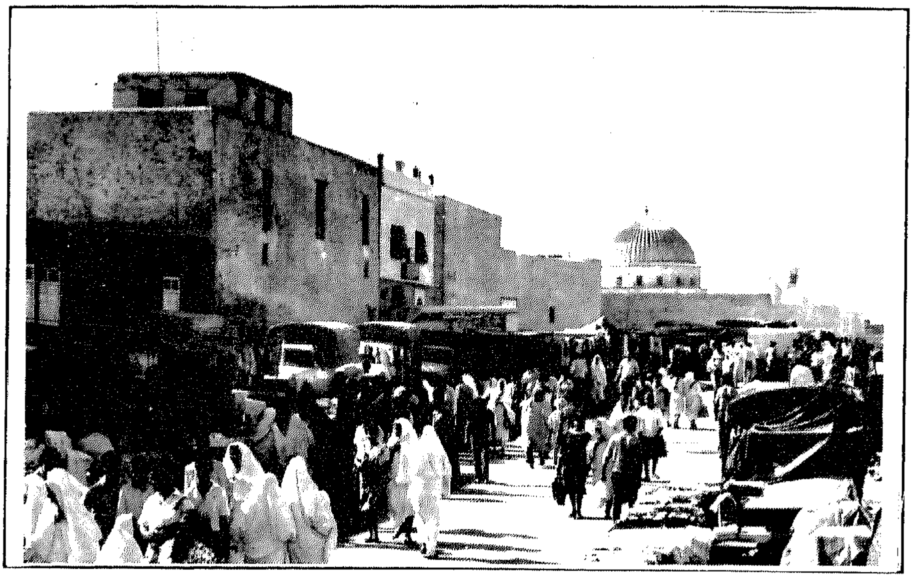
- «شجرة نسب الأمراء الصنهاجيين» كما وردت في كتاب «الدولة الصنهاجية - تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 الى 12 م». تأليف : الهادي روجي ادريس - نقله الى العربية : حمادي الساحلي - نشر : دار الغرب الإسلامي - ج2. ط 1992/1 - [صفحة 77].



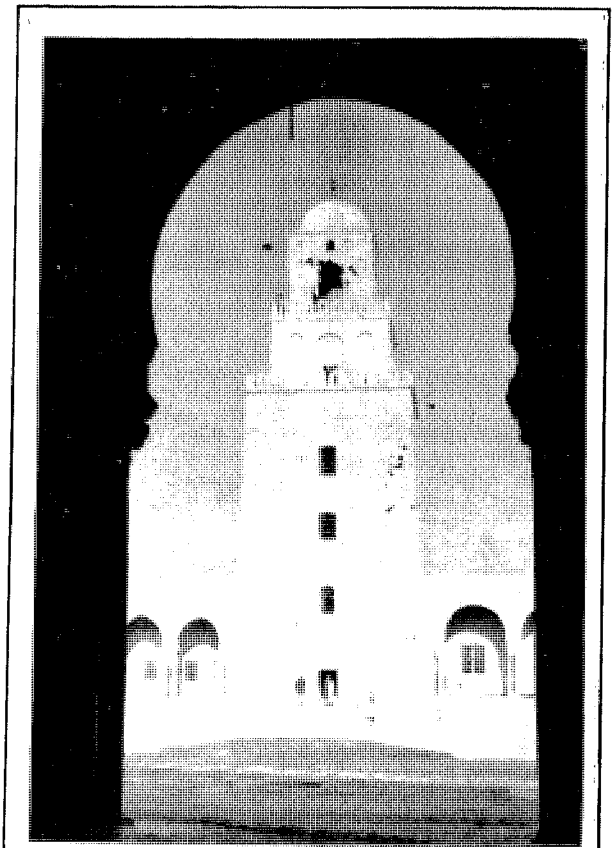
● القيروان...



● جامع عقبة



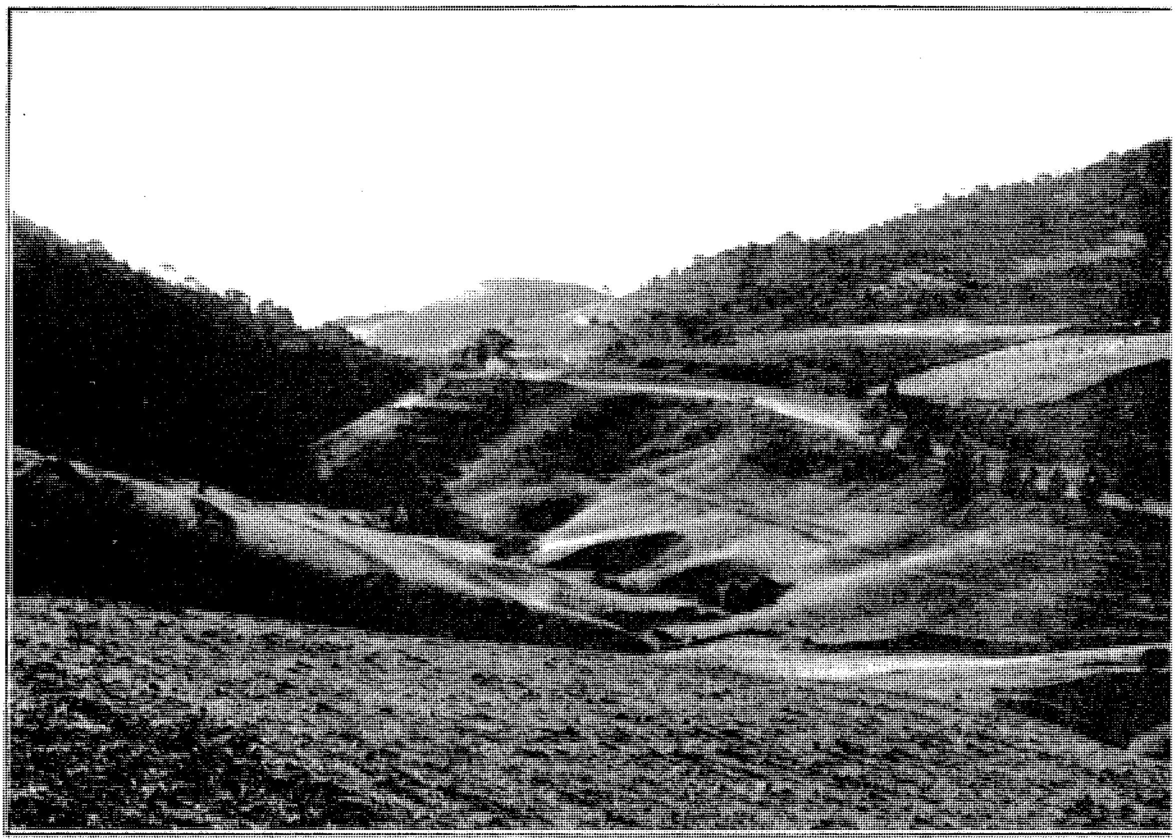
● القيروان...



● جامع عقبة

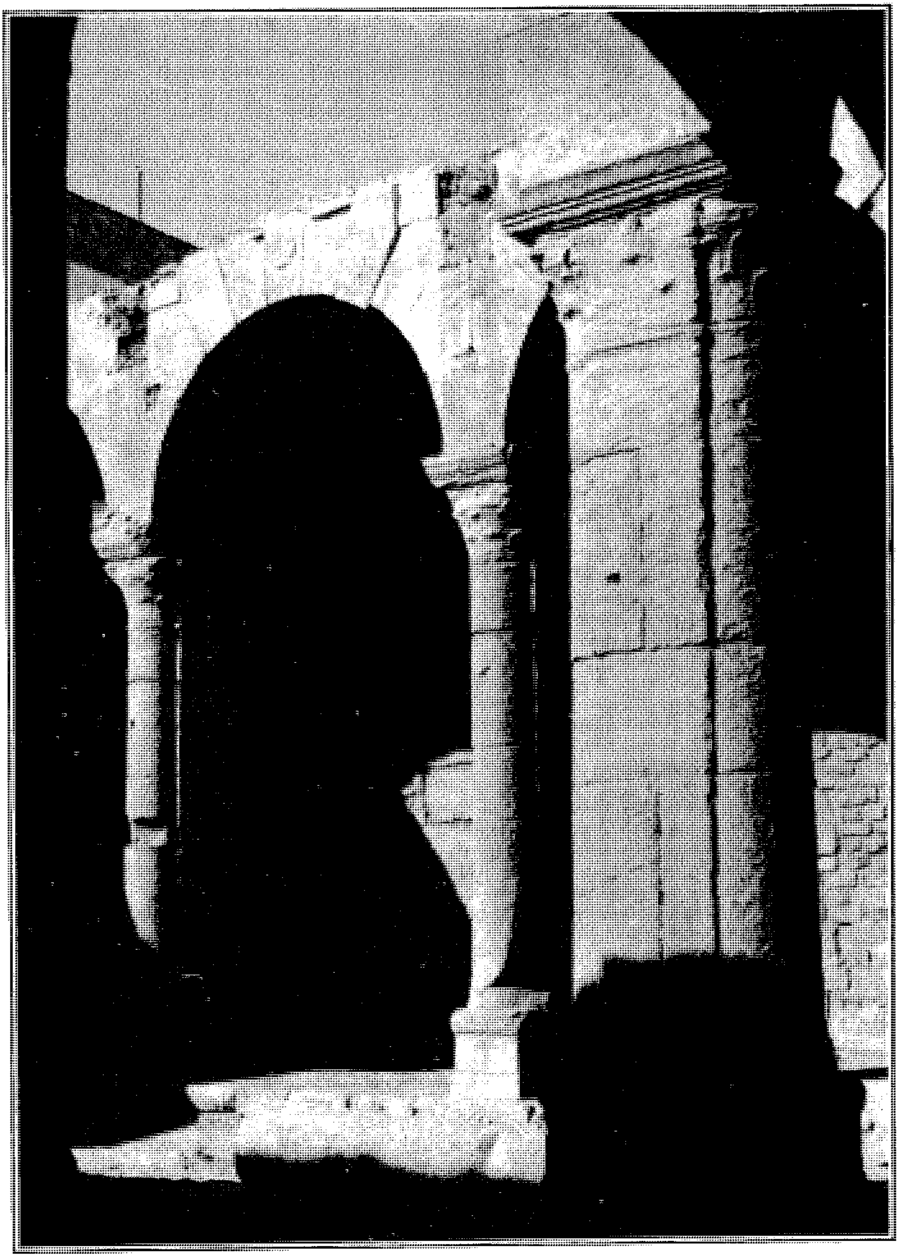


● توزر (قسطيلية)...



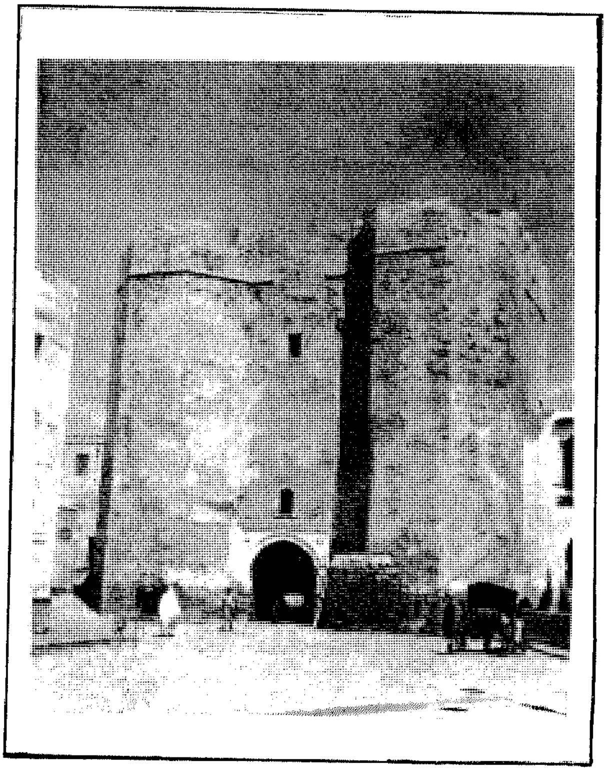
● خمير

● أثر روماني (الكاف)

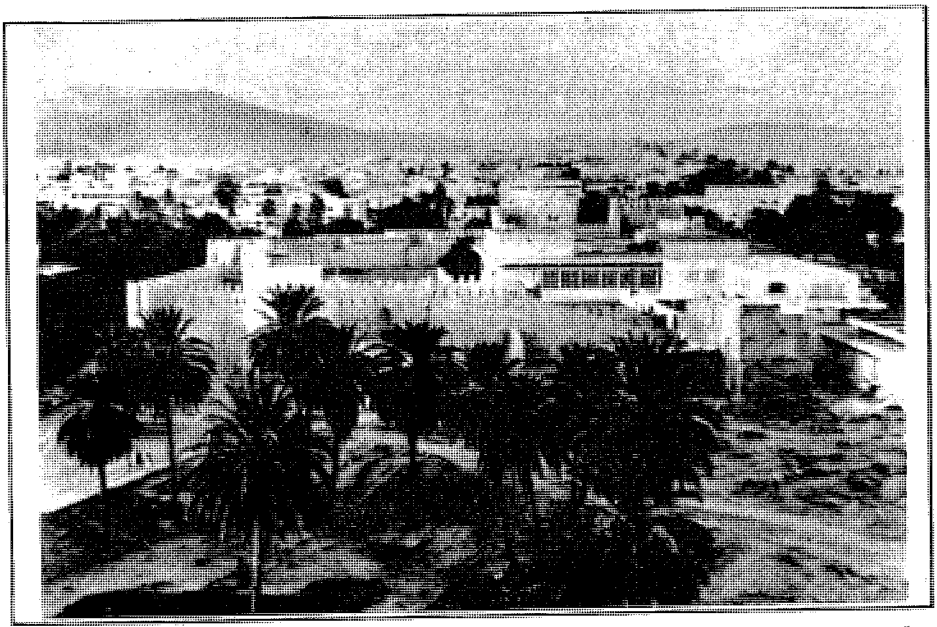




● المهدية...
(بقايا الميناء الفاطمي)



● القلعة...



● قفصة... المدينة ...

...والغابة...



من مؤلفات أ. د. محمد الطالبي

الدّولة الأغلبيّة

184~296
800~909

التاريخ السياسي

تأليف
الأستاذ الدكتور محمّد الطالبي

نقله إلى العربيّة
الدكتور المنجي الصيادي

دار الغرب الإسلامي

كلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس

السلسلة الرابعة : تاريخ — مجلد XXVI

محمد الطالبي

دراسات في تاريخ إفريقية

وفي

الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط

Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Tunis

Quatrième série : Histoire — Volume XXVI

Mohamed TALBI

Études d'Histoire Ifriqiyenne

et de

Civilisation Musulmane Médiévale

بالمدرسة المصحية في (التعريف) .
ص . 285/729

6) توجد بالجزائر ، بولاية وهران ، على 6 كم من قرية فرندة .
7) انظر مؤلفنا :
Ibn Haldun et le sens de l'histoire Tunis 1973 p. 11-13

منهجيّة ابن خلدون التاريخيّة وأثرها في ديوان « العبر »

الأستاذ محمّد الطالبي
كلية الآداب - الجامعة التونسية

لم يكن ابن خلدون مؤرخا كغيره من المؤرخين . والسبب الأساسي في ذلك هو أنه لم يكن مؤرخا فحسب . كان أيضا مفكرا ، بل انه كان مفكرا قبل ان يكون مؤرخا . وكان ابن خلدون خاصة - وهذا ما لا يؤكده ابدا بما يكفي من الالحاح - رجلا من رجال السياسة ، من اولائك

1) انظر :
N. Nassar, le maître d'Ibn Khaldoun al-Abili, dans Studia Islamica, Paris, 1964, XX, 103-115

Mohamed TALBI

Ecrits sur l'histoire de l'Ifrikiya
(Biographies - Sites - Culture et civilisation)

Articles parus dans l'Encyclopédie de l'Islam (seconde édition)

Traduction arabe :
M. A. Abderrazek et R. Marzouki

REPUBLIQUE TUNISIENNE
Ministère de la Culture

ENCYCLOPEDIE DE LA TUNISIE

4è cahier / 1994

Académie Tunisienne des Sciences, des Lettres
et des Arts "Beït El Hikma" - CARTHAGE -

Encyclopédie de la Tunisie

REPUBLIQUE TUNISIENNE

Ministère de la Culture

ENCYCLOPEDIE DE LA TUNISIE

4è cahier / 1994



FONDATION NATIONALE CARTHAGE